

إديث هول

منهج أرسطو

كيف يمكن للمعرفة القديمة أن تغير حياتك؟

ترجمة: محمد إبراهيم الجندي

إديث هول
منهج أرسطو

كيف يمكن للمعرفة القديمة أن تغير حياتك؟

الكتاب: منهج أرسطو ، كيف يمكن للمعرفة القديمة أن تغيّر حياتك؟

تأليف: إديث هول

ترجمة: محمد إبراهيم الجندي

عدد الصفحات: 288 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-165-0

الطبعة الأولى: 2021

هذه ترجمة مرخصة لكتاب


ARISTOTLE'S WAY: How Ancient Wisdom Can Change Your Life

تأليف Edith Hall

Copyright © 2018

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير © دار التنوير 2021

الناشر

 دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بثر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

إديث هول

منهج أرسطو

كيف يمكن للمعرفة القديمة أن تغير حياتك؟

ترجمة
محمد ابراهيم الجندي



الفهرس

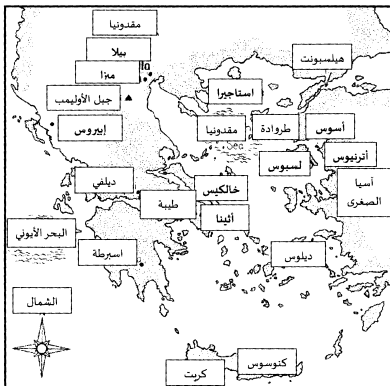
9	الترتيب الزمني للحوادث
13	مقدمة
39	الفصل الأول: السعادة
59	الفصل الثاني: القدرة
81	الفصل الثالث: القرارات
103	الفصل الرابع: التواصل
129	الفصل الخامس: معرفة الذات
163	الفصل السادس: النوايا
183	الفصل السابع: الحب
201	الفصل الثامن: المجتمع
225	الفصل التاسع: وقت الفراغ
247	الفصل العاشر: الموت
283	شكر وتقدير
285	مسرد المصطلحات

هذا الكتاب مُهدى إلى ذكرى
أرسطو الاستاجيري، ابن نيقوماخوس وفايستس

الترتيب الزمني للحوادث

(كافة التواريخ تعود إلى ما قبل الميلاد)

- 384 مولد أرسطو في استاجيرا للأب نيقوماخوس والأم
فليستس.
- 372 موت والد أرسطو وتبنيه من قبل بروكسينوس من
أترنيوس.
- نحو العام 367 انتقال أرسطو إلى أثينا للدراسة في أكاديمية أفلاطون.
- 348 الملك فيليب الثاني المقدوني يدمر استاجيرا ولكنه يعيد
بناءها بناءً على طلب من أرسطو.
- 347 رحيل أرسطو عن أثينا بعد موت أفلاطون والتحاقه
بهرمياس، حاكم أسوس.
- 344-345 أرسطو يجري دراسات في علم الحيوان في لسبوس.
- 343 الملك فيليب الثاني يدعو أرسطو لتعليم ابنه الإسكندر
في مقدونيا.
- 336-338 أرسطو يقضي بعض الوقت في إيروس وإليريا.
- 336 اغتيال فيليب الثاني وانتقال الملك إلى الإسكندر ليصبح
الملك الإسكندر الثالث (الأكبر)، وانتقال أرسطو إلى
أثينا وتأسيس مدرسته.
- 323 وفاة الإسكندر الأكبر في بابلون.
- 322 محاكمة أرسطو في أثينا وانتقاله إلى مدينة خالكيس،
التي توفي فيها.



خارطة تظهر الأماكن التي عاش فيها أرسطو وزارها بخط أسود عريض.
أما المناطق المنقطة فتشير إلى العالم الناطق باليونانية
في القرن الرابع قبل الميلاد.

مقدمة

إننا نستخدم كلمتي «سعيد» و«سعادة» بكثافة في حياتنا اليومية؛ إذ يمكنك شراء «الوجبة السعيدة» (هابي ميل) من أحد مطاعم الوجبات السريعة، أو الاستمتاع بتخفيضات على أسعار المشروبات خلال «الساعة السعيدة» في إحدى الحانات. ويمكنك تناول «حبوب السعادة» لتحسين حالتك المزاجية، أو إضافة تعبير «وجه سعيد» إلى منشور على وسائل التواصل الاجتماعي. إننا نقدّر السعادة كثيرًا. وقد أصبحت أغنية «سعيد» Happy لمغني الراب فاريل ويليامز هي الأغنية الأولى والأعلى مبيعًا في العام 2014 في الولايات المتحدة وفي ثلاث وعشرين دولة أخرى حول العالم. وبحسب ما يقول ويليامز في أغنيته، فإن السعادة هي لحظة نشوة عابرة، أو الشعور بأنك مثل «منطاد هواء ساخن» محلّق في الهواء.

إلا أن ثمة حيرة والتباسًا لدينا بشأن السعادة؛ فالناس كافة تقريبًا يعتقدون بأنهم يريدون أن يكونوا سعداء، وهو ما يعني بالنسبة إليهم عادةً حالة نفسية دائمة من الراحة والرضا (على عكس ما تقوله أغنية ويليامز). فلو أنك قلت لأطفالك إنك «تريدهم أن يكونوا سعداء فحسب»، فإنك تقصد بذلك السعادة الدائمة. إلا أن المفارقة هي أن السعادة في أحاديثنا اليومية العادية غالبًا ما تشير إلى شعور بسيط وزائل بالبهجة يمكن الوصول إليه من خلال وجبة طعام، أو مشروب، أو رسالة بريد إلكتروني؛ أو كما قالت شخصية لوسي في القصة الفكاهية المصورة «بينوتس» *Peanuts* بعد معانقة الجرو سنوبي، فإن السعادة هي لقاء مع «جرو لطيف». كما أن

«عيد الميلاد السعيد» لا يزيد على بضع ساعات قليلة من البهجة احتفالاً بذكرى مولدك.

لكن ماذا لو كانت السعادة هي حالة وجودية تدوم مدى الحياة؟ ينقسم الفلاسفة إلى معسكرين رئيسيين حول ما يمكن أن يعنيه هذا في الواقع. فمن وجهة نظر أحد المعسكرين، السعادة موضوعية، ويمكن تقديرها، وربما حتى قياسها، عن طريق مراقب خارجي أو مؤرخ. وهي تعني -على سبيل المثال- التمتع بصحة جيدة، وطول العمر، وأسرة مَحَبَّة، وعدم المعاناة من المشكلات المالية أو القلق. ووفقاً لهذا التعريف، يمكن القول إن الملكة فيكتوريا، التي عَمَّرت لأكثر من ثمانين عاماً، وأنجبت تسعة أطفال عاشوا حتى سن الرشد، وكانت محط إعجاب الجميع في العالم، عاشت حياة «سعيدة» على نحو واضح. أما ماري أنطوانيت فقد كانت «تعيسة» على نحو واضح أيضاً؛ فقد مات اثنان من أطفالها الأربعة في طفولتهما، وكرهها شعبها، وأُعدمَت وهي بعدُ في الثلاثينات من عمرها.

يشير معظم الكتب حول السعادة إلى هذا التعريف الموضوعي «للرفاهية»، وكذلك الدراسات التي تجريها الحكومات لقياس سعادة مواطنيها على نطاق دولي. ومنذ العام 2013، تحتفل الأمم المتحدة في العشرين من مارس من كل عام بـ«اليوم العالمي للسعادة» International Day of Happiness، حيث تسعى من خلاله إلى تعزيز السعادة القابلة للقياس من خلال القضاء على الفقر، والحد من عدم المساواة، وحماية كوكب الأرض.

ولكن على الجانب الآخر، ثمة مجموعة ثانية من الفلاسفة الذين يرفضون هذا التعريف ويرون أن السعادة إنما هي ذاتية؛ فبالنسبة لهم، السعادة لا تعادل «الرفاهية»، بل «الرضا» أو «البهجة». ووفقاً لهذا المنظور، لا يمكن لأي مراقب خارجي أن يعرف ما إذا كان شخص ما

سعيدًا أم لا، ويمكن لأكثر الأشخاص صخبًا في الظاهر أن يعاني من حزن عميق. وهذه السعادة الذاتية يمكن وصفها، ولكن لا يمكن قياسها. فلا يمكننا معرفة ما إذا كانت ماري أنطوانيت أو الملكة فيكتوريا أكثر سعادة خلال معظم فترات حياتهما. فلربما تمتعت ماري أنطوانيت بساعات طويلة من الرضا العظيم، ولم تحظ فيكتوريا بهذا قط، إذ ترمّلت مبكرًا وعاشت لسنوات في عزلة.

وكان أرسطو أول فيلسوف يدرس هذا النوع الثاني من السعادة. وقد وضع برنامجًا إنسانيًا دقيقًا لكي يصبح المرء شخصًا سعيدًا، ولا يزال هذا البرنامج صالحًا حتى وقتنا هذا. يمدنا أرسطو بكل ما نحتاج إليه لتجنب موقف بطل رواية تولستوي «موت إيفان إيليتش» *The Death of Ivan Ilyich* (1886)، حين أدرك أنه ضيّع معظم حياته في تسلّق السلم الاجتماعي، ووضع مصلحته الشخصية فوق قيم التعاطف والمجتمع، وأثناء ذلك تزوّج من امرأة يمقتها. وعندما حان أجله، كان يكره أقرب أفراد عائلته، ولم يتحدث معه عن الأمر. وقد اشتملت الأخلاقيات الأرسطية على كل ما ربطه المفكّرون المعاصرون بالسعادة الذاتية، ومن بين ذلك: تحقيق الذات، ومعرفة «معنى» الحياة، و«تدفّق» المشاركة الإبداعية في الحياة، أو «العواطف الحقيقية»^[1].

ويستعرض هذا الكتاب أخلاقيات أرسطو العريقة بلغة معاصرة بسيطة، ويطبق دروس أرسطو على مواقف حياتية واقعية عديدة، مثل: اتخاذ القرارات، وكتابة طلب وظيفة، والتواصل في مقابلة شخصية، واستخدام مخطط أرسطو للفضائل والذائل في تحليل شخصيتك، ومقاومة الإغواء، واختيار الأصدقاء والشركاء.

وأيًا كان وضعك في الحياة، فإن نظريات أرسطو يمكن أن تجعلك أكثر سعادة. فأغلب الفلاسفة، أو المتصوّفة، أو علماء النفس، أو علماء الاجتماع، لم يزدوا على مجرد إعادة صوغ أفكار وآراء أرسطو الأساسية

بطرق مختلفة. إلا أنه كان هو من صاغها أولاً، وصاغها على نحو أفضل، وأكثر وضوحاً، وأكثر شمولية وتكاملاً من أي شخص جاء بعده. وكل جزء من وصفته للسعادة يرتبط بمرحلة مختلفة من مراحل الحياة الإنسانية، ولكنه أيضاً يلتقي بالأجزاء الأخرى ويتقاطع معها.

شدّد أرسطو على أن كونك سعيداً سعادة ذاتية كفرد هو مسؤوليتك الفريدة والأساسية. كما أكد على أن هذه أيضاً هبة رائعة؛ فالقرار بأن تصبح أكثر سعادة هو قرار يقع ضمن نطاق قدرات معظم الناس، بصرف النظر عن ظروفهم. ولكن فهم السعادة كحالة ذهنية شخصية داخلية يظلّ أمراً غامضاً للغاية. فما هي السعادة إذاً؟ يتناول الفلاسفة المعاصرون السعادة الذاتية من ثلاث مقاربات مختلفة.

المقاربة الأولى، ترتبط بعلم النفس والطب النفسي، وتشير إلى أن السعادة هي نقيض الاكتئاب، وهي حالة عاطفية خاصة تُعاش كسلسلة متصلة من الحالات المزاجية، وتنطوي على توجه ذهني إيجابي متفائل. ومن الناحية النظرية، يمكن أن يحظى بها شخص ليس لديه أي طموح لتحقيق أي شيء في الحياة، وإنما يجلس لمشاهدة التلفزيون طوال اليوم، وكل يوم، لكنه يشعر دائماً بأنه بحالة معنوية جيدة. قد تكون هذه مسألة مزاج، وربما كانت موروثية (حيث يبدو أن حالة الابتهاج الدائم تسري في عائلات معينة). ووفقاً لبعض الفلسفات الشرقية، يمكن تعزيز هذه الحالة العاطفية في النفس من خلال أساليب من قبيل «التأمل المتسامي». ويشير الفلاسفة الغربيون إلى أنها قد تكون مرتبطة بالمستويات العالية على نحو طبيعي من السيروتونين، وهو الناقل العصبي الذي يعتقد الكثيرون من الأطباء والأطباء النفسيين أنه ضروري للحفاظ على توازن الحالة المزاجية، والذي يعاني الأشخاص المصابون بالاكتئاب من نقصه. والمزاج السعيد هو هبة تثير الحسد، لكن الكثيرين منا لا يولدون بهذه الهبة. وتعمل مضادات الاكتئاب الحديثة -والتي يمكن أن تفيد

الأشخاص الذين يعانون من الحزن المؤقت كاستجابة لحوادث الحياة، أو الذين يعانون من الاكتئاب «الداخلي المنشأ» المستمر - في الغالب على تعزيز مستويات السيروتونين. ولكن هل يُعتبر المظهر الخارجي المبتهج سعادة؟ هل يمكن لحياة تنقضي في مشاهدة التلفزيون أن تجسد السعادة؟ كان أرسطو -الذي يرى أن السعادة تتطلب تحقيق الإمكانيات البشرية- سيعارض ذلك بشدة. وقد لخص جون ف. كينيدي السعادة الأرسطية بعبارة واحدة حين قال: «الاستخدام الكامل لقدراتك من أجل تحقيق أداء متميز في حياة توفر لك الحرية والفرص».

أما المقاربة الفلسفية المعاصرة الثانية للسعادة الذاتية فهي مقاربة «مذهب اللذة» hedonism؛ وهي فكرة أن السعادة يمكن تحديدها بواسطة النسبة الكلية من حياتنا التي نقضيها في إمتاع أنفسنا، أو عيش اللذة، أو الشعور بالبهجة والنشوة. ومذهب اللذة hedonism (والكلمة الإنجليزية «hedonism» مشتقة من كلمة hedone اليونانية القديمة التي تعني «المتعة») له جذور قديمة. تبنت المدرسة الفلسفية الهندية المعروفة باسم «شارفاكا» Charvaka، والتي تأسست في القرن السادس قبل الميلاد، وجهة نظر مفادها أن «لذة العيش في الجنة تكمن في تناول الطعام الشهي، ومرافقة النساء اليافعات، وارتداء الملابس الجميلة، ووضع العطور، والأكاليل، ومعجون الصندل. والأحمق هو من يرهق نفسه بالكفارات والصيام»^[2]. وبعد قرن من الزمان، وضع أريستيبوس من قورين في شمال أفريقيا -وهو أحد طلاب سقراط- نظامًا أخلاقيًا يسمى «الأنانية اللذائدية» hedonistic egotism. وألف أريستيبوس كتابًا بعنوان «عن الترف القديم» *An Ancient Luxury* يتضمن قصصًا عن مآثر الفلاسفة الباحثين عن المتعة. وأكد أريستيبوس على أن كل إنسان يجب أن يسعى إلى نيل أكبر قدر من اللذة الجسدية والحسية في أسرع وقت ممكن، من دون اكتراث بالتبعات.

اشتهر مذهب اللذة مرة أخرى عندما زعم النفعيون -بدءًا بجيريمي بنتام (1748-1832)- بأن الأساس الصحيح للقرارات والأفعال الأخلاقية هو أي شيء يحقق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس. آمن بنتام بأن هذا المبدأ يمكن أن يساعد في وضع القوانين؛ ففي إعلانه الصادر عام 1789 بعنوان «مقدمة إلى مبادئ الأخلاق والتشريع» *An Introduction to the Principles of Morals and Legislation* عرض خوارزمية للمتعة الكمية، من أجل قياس حاصل المتعة الإجمالي الذي يمكن أن ينتج عن فعل ما، وكثيرًا ما يُطلق على هذه الخوارزمية اسم «حساب اللذة». ووضع بنتام المتغيرات لهذه الخوارزمية كما يلي: ما مدى قوة المتعة؟ كم من الوقت ستستمر؟ هل هي نتيجة حتمية أم محتملة للعمل الذي أفكر في القيام به؟ متى ستحدث؟ هل ستكون مثمرة وتحفز المزيد من المتعة؟ هل تضمن عدم وجود عواقب مؤلمة؟ كم من الناس سيشعرون بهذه المتعة؟

كان بنتام مهتمًا بإجمالي مقدار المتعة، وليس نوعيتها؛ أي الكم لا الكيف. ولو أن الممثل السينمائي إيرول فلين كان يقول الحقيقة عن تجربته الذهنية في لحظات احتضاره -إذ يُزعم أنه قال: «لقد عشت الكثير جدًا من المرح، واستمتعت بكل لحظة منه»- فقد كان -وفق مذهب اللذة الكمية- رجلًا في غاية السعادة في الواقع.

ولكن ماذا كان يقصد إيرول فلين بكلمتي «المرح» و«الاستمتاع»؟ رأى جون ستيوارت ميل، تلميذ بنتام، أن مذهب «اللذة الكمية» لا يميز بين السعادة البشرية وسعادة الخنازير، التي يمكن عيشها من خلال حياة مليئة بالمتع المادية. لذا فقد طرح ميل فكرة مفادها أن ثمة مستويات وأنواعًا مختلفة من المتع. فالمتع الجسدية التي نتشارك فيها مع الحيوانات، مثل المتعة التي نكتسبها من تناول الطعام أو ممارسة الجنس، هي متع «دنيا»، أما المتع العقلية، مثل تلك التي نستمدّها من الفنون، أو النقاش الفكري،

أو السلوك الجيد، فهي متع «أسمى» وأعلى قيمة. وعادة ما تسمى هذه النسخة من النظرية الفلسفية لمذهب اللذة اسم «اللذة المتعقّلة»، أو «اللذة النوعية».

قليل من فلاسفة القرن الحادي والعشرين هم من يناصرون مذهب اللذة لتحقيق السعادة الذاتية. وقد تعرّضت النظرية لضربة موجعة في العام 1974 عندما نشر الأستاذ بجامعة هارفارد، روبرت نوزيك، كتابه «الفوضى، والدولة، والمدينة الفاضلة» *Anarchy, State, and Utopia*، الذي تخيل فيه وجود آلة قادرة على منح الناس تجارب ممتعة مستمرة طوال حياتهم. غير أن هؤلاء الناس لن يكونوا قادرين على التمييز بين تجارب المحاكاة الآلية هذه وبين تجارب «الحياة الحقيقية». فهل سيختار أحد أن يكون متّصلاً بهذه الآلة؟ الإجابة هي: لا؛ فنحن نريد الواقع. لذا، فمن المنطقي أن نقول إن الناس لا يعتبرون أن الأحاسيس الطيبة هي العامل الحاسم الوحيد لتحقيق السعادة الذاتية الكلية.

كان نوزيك يكتب قبل فجر عصر انتشار أجهزة الكمبيوتر الشخصية على نطاق واسع وذبوع فكرة الواقع الافتراضي. وقد استحوذت تجربته الفكرية على خيال العامة، واقتُرنت في أذهانهم بألة «أورجازماترون» في فيلم «النائم» (1973) *Sleeper* للمخرج وودي آلن. ولربما سيأتي يوم يختار فيه معظم البشر سعادة المحاكاة الآلية المؤكّدة الدائمة على مخاطر التجربة الحيّة، لكن ذلك اليوم لم يأت بعد. نحن نريد أن نكون سعداء، لكن يبدو أننا نعتقد بأن السعادة تتكوّن مما هو أكثر من مجرد تجارب طيبة مفضّلة. إنها تتطلب فعل شيء أكثر استدامة، أو أكثر معنى، أو أفضل ثمرة؛ وهذا الشيء هو ما كان أرسطو مهتمّاً به منذ زمن بعيد في اليونان القديمة. لقد اعتقد أرسطو أن السعادة هي حالة نفسية، وشعور بالإنجاز والرضا حيال سلوك المرء، وتفاعلاته، ومجريات حياته؛ وهي تنطوي على عنصر من النشاط والتوجّه نحو هدف. ويمثّل هذا -وليس الحالة المزاجية

الإيجابية أو مذهب اللذة- المقاربة الفلسفية الثالثة المعاصرة للسعادة الذاتية، وهي مقاربة فلسفية قائمة على تحليل وتعديل طموحاتك، وسلوكياتك، واستجاباتك للعالم، وهي مستمدة من أرسطو نفسه مباشرة. آمن أرسطو أنك إذا درّبت نفسك على أن تكون خيرًا، عن طريق العمل على زيادة فضائلك وصقلها والسيطرة على رذائلك وكبحها، ستكتشف أن حالة السعادة الذهنية تأتي من فعل الشيء الصحيح على نحو اعتيادي دائم. فإذا بدأت عن عمد تتبسم بترحاب في كل مرة يقترب فيها منك طفلك، فستبدأ تلك تصبح عادة تمارسها من دون وعي. وقد شكك بعض الفلاسفة في أن أسلوب العيش الفاضل أكثر استحسانًا من نقيضه. غير أن «أخلاقيات الفضيلة» رُد لها اعتبارها في الأوساط الفلسفية في الآونة الأخيرة، وتوافق الجميع على أنها مفيدة. لقد اعتبر أرسطو أن جميع الفضائل حزمة متكاملة، ولكن المفكرين المعاصرين كانوا أكثر ميلًا إلى تقسيمها إلى فئات فرعية. فقد تحدث جيمس والاس، في كتاب «الفضائل والرذائل» (1978) *Virtues and Vices* عن ثلاث مجموعات مختلفة من الفضائل، وهي: فضائل الانضباط الذاتي -مثل الشجاعة والصبر- وفضائل الضمير -مثل الصدق والعدل- وفضائل الخير والإحسان إلى الآخرين -مثل اللطف والرحمة-. ويمكن لنوعي الفضائل الأولين أن يؤثرًا إيجابيًا على نجاح مشاريع الفرد والمجتمع ككل. أما فضائل الخير فهي أقل وضوحًا، ولكنها يمكن أن تزيد من حبك لنفسك ولكل من حولك. ومن ثم يمكن القول إن الفضائل لها فوائد خارجية: فالأرجح أنك ستكون سعيدًا إذا كان من حولك سعداء، وبالتالي فمن مصلحتك الشخصية المستنيرة أن تكون فاضلاً. بيد أن أرسطو، إلى جانب سقراط، والرواقيين، وفيلسوف العصر الفيكتوري، توماس هيل جرين، كانوا يؤمنون بأن الفضائل لها أيضًا فوائد داخلية مباشرة؛ فالفضائل الموجهة نحو الآخرين تشكّل ركيزة أساسية لسعادتك^[3].

في كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» *Nicomachean Ethics*، يناقش أرسطو علّة السعادة. ويرى أرسطو أنه إذا لم تكن السعادة هبة من الله (وهو لا يعتقد بأن الآلهة تتدخل في شؤون البشر)، «فإنها تأتي نتيجة للخير، إلى جانب عملية التعلم، وبذل الجهد». إن عناصر السعادة يمكن وصفها وتحليلها، على غرار أي موضوع في أي فرع آخر من فروع المعرفة، مثل علم الفلك أو علم الأحياء. غير أن عملية دراسة السعادة تختلف عن دراسة هذه العلوم لأن لها هدفًا محددًا هو: تحقيق السعادة، وهذا يجعلها أشبه بالطب، أو بنظرية سياسية.

وعلاوة على ذلك، يرى أرسطو أن السعادة يمكن أن تنتشر على نطاق واسع، «لأنه يمكن تحقيقها من خلال الدراسة أو بذل الجهد من قبل جميع الأشخاص الذين لم تتضرر قدرتهم على ممارسة الفضائل». كان أرسطو يدرك أن القدرة على فعل الخير يمكن أن تتضرر بسبب ظروف حياتية معينة. لكن بالنسبة لأكثر الناس، السعادة ممكنة حقًا لو أنهم قرروا تكريس أنفسهم لإيجادها. فيمكن لأي شخص تقريبًا أن يقرر التفكير بطريقة تجلب له السعادة؛ وهذا أمر ليس قاصرًا فحسب على مجموعة قليلة من الأشخاص الذين يمتلكون شهادة في الفلسفة.

وبالطبع فإن كلمة «تقريبًا» هي كلمة محورية في هذا السياق؛ فأرسطو لا يقدم لنا عصا سحرية لمحو كل التهديدات التي تواجه الشعور بالسعادة. فهناك بالفعل بعض المؤهلات للقدرة العامة على السعي لتحقيق السعادة. ويتقبل أرسطو فكرة وجود بعض المزايا التي ربما تمتلكها وربما لا تمتلكها. فإذا كنت سيئ الحظ بأن وُلدت في أدنى درجات السلم الاجتماعي-الاقتصادي، أو لم يكن لديك أطفال أو عائلة أو أحياء، أو كنت قبيحًا جدًا إلى حد استثنائي، فإن الظروف -التي لا يمكنك تجنبها- «تعكر» صفو بهجتك، على حد تعبير أرسطو. وحينها يصبح تحقيق السعادة أمرًا أكثر صعوبة؛ ولكنه لا يصبح مستحيلًا. فأنت

لست بحاجة إلى ممتلكات مادية، أو قوة جسدية، أو جمال ووسامة، لتبدأ تدريب عقلك وفق مبادئ أرسطو، لأن أسلوب الحياة الذي يدعو إليه يتعلّق بالتميّز الأخلاقي والنفسي، وليس التميّز على أساس الممتلكات المادية أو المفاتن الجسدية. وثمة عقبات أخرى يصعب التغلب عليها: ووجود أطفال أو أصدقاء فاسدين كلياً هو إحدى تلك العقبات. أما المشكلة الأخرى - التي أرجأها أرسطو حتى النهاية وأشار في مكان آخر إلى أنها أصعب مشكلة يمكن لأي إنسان أن يواجهها على الإطلاق - فتمثّل في فقدان أصدقاء صالحين استثمر المرء جهداً كبيراً لاكتسابهم، وكذلك الأطفال، من خلال الموت.

ومع ذلك، فحتى الأشخاص الذين لم تحابهم الطبيعة بالكثير، أو الذين عانوا من فقدان قاسٍ للأحبة، يمكن أن يحيوا حياة طيّبة بالالتزام بجانب الفضيلة. يقول أرسطو موضعاً: «هذا النوع من الفلسفة - الذي يمكن للجميع ممارسته - يختلف عن أغلب أنواع الفلسفة الأخرى»، لأن له هدفاً عملياً في الحياة اليومية الواقعية، وهو: الأخلاق، ويضيف أن الأخلاق «على عكس فروع الفلسفة الأخرى، لها هدف عملي؛ لأننا لا نبحث مسألة كون المرء إنساناً طيباً من أجل معرفة ماهية ذلك فحسب، وإنما من أجل أن نصبح أناساً طيبين بالفعل، ومن دون هذه النتيجة لن يكون لبحتنا أي جدوى». وفي الواقع فإن الطريقة الوحيدة لتكون إنساناً طيباً خيراً هي أن تفعل الخير. عليك أن تعامل الناس بإنصاف على الدوام؛ وعليك أن تعرض مبتهجاً المشاركة في رعاية الأطفال مع شريك حياتك مناصفة في نهاية الأسبوع؛ وأن تدفع دائماً دائماً لمنظفة المنزل أجرها كاملاً إذا قمت بإلغاء موعد التنظيف. يعتقد أرسطو أن كثيراً من الناس يظنّون بأن الحديث عن السلوكيات الطيبة أمر كافٍ: «فبدلاً من القيام بأعمال خيرة، فإنهم يناقشون ماهية الخير، ويتخيّلون أنهم يمارسون الفلسفة، وأن ذلك سيجعلهم أناساً صالحين طيبين». ويشبّه أرسطو هؤلاء بـ«المرضى

الذين ينصتون بعناية إلى ما يقوله الطبيب، لكنهم يهملون تنفيذ الوصفات العلاجية».

إن التفكير الأرسطي يعني استخدام فهمنا للطبيعة البشرية من أجل العيش بأفضل طريقة ممكنة. إنه يعني أن الطبيعة - وليس مفهومًا يتجاوز الطبيعة، مثل الآلهة - هي الأساس لتحليل شؤوننا وقراراتنا. كان هذا هو الفارق الأكثر أهمية بين أرسطو ومعلمه، أفلاطون، الذي كان يعتقد بأن البشر بحاجة إلى إيجاد حلول لمشكلات الوجود في عالم غير مرئي من الأفكار غير الملموسة أو «الأشكال» الأساسية التي تتجاوز العالم المادي الذي يمكنهم رؤيته. غير أن أرسطو ركّز على الظواهر المثيرة في واقعنا الملموس في الزمان والمكان، وهو ما عبّر عنه الشاعر والكاتب الكلاسيكي لويس ماكنيس في المقطع الثاني عشر من قصيدة «مذكرات الخريف» *Autumn Journal*:

كان أرسطو هو أفضل من رأى الحشرات وهي تلد،
والعالم الطبيعي وهو يتطور،
وقد ركز في رؤيته على الوظائف، متجاهلاً الشكل ذاته،
فقد تجاهل جمال شكل الحصان وركز على رشاقة عدوّه.

ركّز أرسطو كل فكره على الخبرة البشرية؛ وقد حظي بإعجاب شديد من كل من توماس مور، وفرانسيس بيكون، وتشارلز داروين، وكارل ماركس، وجيمس جويس، من أجل هذا. وقد كتب فلاسفة معاصرون، ومن بينهم بعض النساء البارزات اللاتي وُلدن في القرن العشرين - مثل حنة أرندت، وفيليبا فوت، ومارثا نوسبوم، وسارة برودي، وتشارلوت ويت - أعمالاً مهمة إما عن أرسطو نفسه وإما تأثراً به.

يؤكد أرسطو على أن صنع السعادة لا يكمن في تطبيق قواعد ومبادئ كبرى بحماسة شديدة، وإنما في الانخراط في نسيج الحياة، وفي كل

موقف - مع كل جوادٍ يعدو - بينما نصادف كل موقف فريد من مواقف الحياة. وثمة إرشادات عامة يمكن أن توجهنا؛ تمامًا كما في حالة الطب أو الملاحة، حيث يتزوّد الطبيب أو القبطان بمعرفة مبادئ معينة، ولكن يكون لكل مريض متاعب مختلفة قليلًا عن غيره، ولكل رحلة مشكلات مختلفة قليلًا عن غيرها، وكل واحدة منها تتطلّب حلولًا مختلفة.

وفي حياتك الشخصية - بصفتك كائنًا أخلاقيًا - يجب عليك «التفكير في ما يناسب الظروف في كلّ حالة على حدة». ستكون هناك عطلات أسبوعية تكون مطالبًا فيها بالقيام بكل أعمال رعاية الأطفال، أو غير مطالب بأي شيء. ولا يقتصر الأمر على كون كل حالة مختلفة عن غيرها: فكل فرد مختلف عن غيره كذلك، وكونك شخصًا خيرًا، طيبًا في أفعالك اليومية، يعني شيئًا مختلفًا من فرد لآخر. يستخدم أرسطو هنا مثالًا لشخص رياضي يحتاج إلى كميات أكبر من الطعام مقارنة بغيره؛ فيستشهد بميلو من كروتون - وهو أشهر بطل للمصارعة في تاريخ اليونان على الإطلاق - كمثال على شخص نهم أكل. ويحتاج كل واحد منا إلى اكتساب المعرفة بذاته وتحديد نوع الغذاء الأخلاقي الذي نحتاج لتقديمه إلى أنفسنا. هل هو مديد العون للآخرين، أم التخلي عن الحق، أم تعلّم الاعتذار، أم شيء مختلف تمامًا؟

لا أعتقد بأنني إنسانة فاضلة أو لطيفة على نحو استثنائي؛ بل إنني أكافح من أجل التغلّب على بعض السمات الشخصية البغيضة. وبعد قراءة آراء أرسطو حول الفضائل والرذائل، والتحدّث بصدق مع أناس أثق بهم، أعتقد بأن أسوأ صفاتي هي: نفاد الصبر، والتهوّر، والفظاظة المفرطة، والتطرّف العاطفي، والنزعة الانتقامية. لكن فكرة أرسطو عن الوسطية المثالية بين المتناقضات المتطرفة - والتي نسميها الآن «الوسطية الذهبية» - توضح أن كل هذه الأشياء لا بأس بها إن كانت باعتدال؛ فالأشخاص الذين لا ينفد صبرهم أبدًا لا يحققون أي إنجاز؛

والأشخاص الذين لا يجازفون أبدًا يعيشون حياة مقيّدة؛ والأشخاص الذين يتهربون من الحقيقة ولا يعبرون عن الألم أو البهجة على الإطلاق يعانون من التقرّم النفسي والعاطفي أو الحرمان؛ والأشخاص الذين لا يرغبون في الانتقام حتى من أولئك الذين آذوهم، إما يخدعون أنفسهم أو يعانون من تدنٍّ شديد في تقدير قيمة أنفسهم.

إن العالم مليء بالشعور؛ فجميعنا يعرف أو يسمع عن أناس وجماعات يبدون مدمنين - أو على الأقل معتادين - على ارتكاب أعمال سيئة وإيذاء الآخرين. ولكن معظمنا لا يزال مقتنعًا على نحو مقبول بأن نسبة كبيرة من البشر، إذا مُنحوا موارد أساسية كافية لكيلا يضطروا لأن يكونوا أنانيين من أجل البقاء على قيد الحياة، سيكونون خيرين ومتراطين اجتماعيًا؛ فهم يشعرون بالرضا عندما يساعدون الآخرين. إن العيش في حالة من التعاون مع الآخرين - في أسر ومجتمعات - يبدو أنه الرغبة الطبيعية والحالة الطبيعية للإنسان. إن سمات المفكر الأرسطي تتمثل في الرغبة في العيش في مثل هذه المجتمعات، والتفكير بعقلانية، واتخاذ قرارات أخلاقية، واستخدام السعادة الكلية كدليل على الخير، وتعزيز السعادة لدى الذات ولدى الآخرين.

وجدت أنظمة فلسفية قديمة أخرى مناصرين لها في العصر الحديث، لا سيما رواقية ماركوس أوريليوس، وسينيك، وإبيكتيتوس. لكن الرواقية لا تشجّع «متعة الحياة» نفسها مثل أخلاقيات أرسطو، بل هي بالأحرى متشائمة وقاتمة؛ فهي تتطلب قمع العواطف والشهوات الجسدية، وتوصي بقبول البلى بإذعان، بدلًا من الانخراط النشط والعملي في مشاغل الحياة اليومية وحلّ المشكلات. ولا تتيح الرواقية مجالًا كافيًا للأمل، أو للإنسانية، أو لعدم احتمال البشر للبؤس. وتدين الرواقية البهجة لذاتها، وتغري بالانفاق مع شيشرون، الذي تساءل: «ماذا؟ أيّمكن للرواقي أن يثير الحماسة؟ كلا، بل هو يطفئ أيّ حماسة على الفور حتى لو التقى شخصًا متقدّمًا بالحماسة».

كتب أرسطو للأشخاص المنخرطين بنشاط في مجتمعاتهم. ودعا الأبيقوريّون الناس إلى التخلّي عن كل طموح لنيل السلطة، والشهرة، والثروة، وإلى عيش حياة خالية من الاضطرابات قدر الإمكان. أما الشكوكيون، برغم مشاركتهم الأرسطيين في قناعتهم بضرورة تحدّي جميع الافتراضات، فقد كانوا على يقين من أن المعرفة الحقيقية مستحيلة، وزعموا أن وضع مبادئ عامّة لعيش حياة بناءة مثمرة، وتعايش البشر معاً، أمر مستحيل. واتفق الكلييون أو أصحاب الفلسفة التشاؤمية مع أرسطو على أن البشر هم حيوانات متطورة، وأن الهدف من الحياة هو السعادة، التي يمكن تحقيقها من خلال العقل. إلا أن الطريق الذي اقترحوه لذلك كان غير تقليدي على نحو أكبر: فالسعادة عندهم يمكن تحقيقها من خلال الزهد، بالتخلّي عن الحياة العائلية، والممتلكات المادية، والطموح في كسب المكافآت الاجتماعية، مثل الشهرة، والسلطة، والثروة. وكان أشهر أتباع الكلبية، ديوجين الكلي (وهو معاصر لأرسطو أكبر منه سنًا وكان معروفًا في أكاديمية أفلاطون)، يعيش شبه عارٍ في الشوارع، ولم يكن لديه زوجة ولا أسرة، ونبذ أي مشاركة في المجتمع. إن كثيرين منا يتوقون إلى عالم أكثر بساطة، لكنّ قليلين هم من يريدون التخلّي عن الأسرة والوضع الاجتماعي ليصبحوا مشردين معزولين.

وعلى الرغم من أن أرسطو نفسه لم يكن متدينًا على أي نحو تقليدي، فقد عاش في ثقافة اتبعت ديانة لا يؤمن بها أحد الآن، سبقت ظهور المسيحية والإسلام بمئات السنين. ويعني هذا أن فكر أرسطو لم يكن مرتبطًا بأي معسكرات سياسية أو أيديولوجية معاصرة. وفي الواقع، لقد ألهم -على مر القرون- فلاسفة ذوي ثقافات مختلفة مسيحية، ويهودية، وإسلامية، وأخرى أحدث مثل فلاسفة الهندوسية، والبوذية، والكونفوشيوسية. وعلى هذا فإن أرسطو ليس ملكية حصرية لأي مذهب من المذاهب الفكرية أو الثقافية معاصرة. وثمة سلوى يمكننا اكتسابها

من إجراء حوار مع عقل إنساني ينتمي إلى عصور غابرة، لأن هذا يجعلنا ندرك أن الحالة البشرية لم تتغير كثيرًا عبر العصور، ورغم كل التطورات التكنولوجية المفترضة. مثل هذا الحوار يجعلنا نشعر بأننا جزء من متدى بشري مستمرّ ومتصل، ويدعمنا بطريقة تنجح في تجاوز الزمان والفناء البشري. شكك بعض الفلاسفة منذ زمن هيوم وكانط في فكرة أن الطبيعة البشرية مفيدة في الأخلاق، لأن الثقافة الإنسانية تباينت على نطاق واسع للغاية، وحتى الأفراد داخل المجتمعات صاروا مختلفين بشدة عن بعضهم بعضًا. غير أن أرسطو يصف مجموعة من المشكلات الأخلاقية البشرية التي تتسم بالثبات والاستمرارية على نحو مذهش. وعندما يستخدم الضمير «نحن»، فإنه غالبًا ما يقصد الجنس البشري بأكمله على نحو جمعي، في الماضي، والحاضر، والمستقبل. ففي أحد أكثر المقاطع شهرة في كتابه «الميتافيزيقا» *Metaphysics*، ينتقد الحكايات الخرافية غير العلمية التي تتناول أصل الكون، والتي طرحها الشعراء الإغريق القدماء، ومن بينهم هزيود. ويقول أرسطو إن هزيود وغيره من المهتمين بدراسة الكون «لم يضعوا لنا اعتبارًا، لأنهم يجعلون المبادئ الأولى هي الآلهة، أو ما جاء من الآلهة، ويقولون إن كل من لم يذق من رحيق وطعام الآلهة أصبح فانيًا». وهكذا، فبدلًا من التفكير فينا «نحن» - أبناء الجنس البشري - كان المهتمون الأوائل بالكونيات يفكرون فيهم «هم» - الآلهة المتميزة - الذين لم نكن «نحن» بالنسبة إليهم أكثر من مجرد فكرة ثانوية لاحقة.

وعندما نقرأ لأرسطو وهو يصف الأشخاص الذين ييخلون بالمال، أو النزقين، ترى أنواعًا بشرية يمكنك التعرف عليها بسهولة تتصرف بالطريقة نفسها اليوم. كما يُعد أرسطو أيضًا قدوة رائعة تُحتذى للناس في أي مرحلة تقريبًا من مراحل حياتهم؛ فهو لم ينجح فحسب في حياته الشخصية، ومع عائلته وأصدقائه، بل لقد نجح حتى في تجاوز أكثر

الحوادث السياسية اضطرابًا ليحقق طموحه الشخصي -بعد نصف قرن من الانتظار والاستعداد- بتأسيس جامعة مستقلة وتدوين معظم أفكاره على ورق البردى.

وُلد أرسطو في أسرة طبيب من استاجيرا، وهي دولة -مدينة إغريقية صغيرة مستقلة، في العام 384 قبل الميلاد. تقع استاجيرا على قمتين لشبه جزيرة صخرية تطل على شمال بحر إيجه. كان والده نيقوماخوس طبيبًا، ويبدو أنه كان بارعًا في مهنته؛ إذ عُين طبيبًا شخصيًا لملك مقدونيا آنذاك، أمينتاس الثالث. غير أنه عاش طفولة مضطربة، إذ توفي كلا والديه عندما كان في نحو الثالثة عشرة من عمره، على خلفية الصراع العسكري المحتدم في العالم الناطق باليونانية. وقد نجح في التصرف على نحو أخلاقي في زمان ومكان كانت معايير السلوك الأخلاقي فيهما متدنية على نحو صادم. نجح أرسطو في تحويل محنته إلى منحة، وقضى معظم حياته في تحسين النتائج التي توصل إليها. وقام رجل يدعى بروكسينوس -وهو زوج أخت أرسطو- بكفالته وتولّى مسؤولية تعليمه.

وفي عامه السابع عشر، انتقل أرسطو إلى أثينا والتحق بأكاديمية أفلاطون. وبعد عقدين من الزمان -حين تُوفي أفلاطون- قبل أرسطو دعوة هرمياس -الذي كان حاكمًا لمملكة مقرها مدينتي أترنيوس وأسوس في شمال غربي آسيا الصغرى. وقد رسّخ بعد ذلك هذه الصداقة عن طريق الزواج من بيثياس، ابنة هرمياس. وفي نحو الأربعين من عمره، أبحر أرسطو إلى جزيرة لسبوس، حيث أجرى أبحاثه عن الحياة البرية، والتي مكّنته من تأسيس علم الحيوان. لكن كل شيء تغير في العام 343 قبل الميلاد، عندما استدعاه الملك فيليب الثاني إلى مقدونيا لتعليم ابنه الصغير الإسكندر، الذي صار يُعرف في ما بعد باسم الإسكندر الأكبر. أمر الملك فيليب ببناء مدرسة لأرسطو في حرم الحوريات -وهو مكان

يحتوي على نبع مياه عذبة- في وادٍ أخضر رائع في مدينة ميزا، التي تقع على بُعد ثلاثين ميلاً جنوب العاصمة المقدونية في بيللا. وأصبح الوضع السياسي الدولي على صفيح ساخن مع قيام فيليب بتوسيع الإمبراطورية المقدونية، ولعل أرسطو قضى الفترة بين العام 338 إلى العام 336 قبل الميلاد -عندما اغتيل فيليب وأصبح الإسكندر ملكاً- متوارياً عن الأنظار في إبيروس وإيريا (غرب البلقان).

وفي نحو الخمسين من عمره، اغتنم أرسطو فرصة عمره؛ إذ لم يرافق الإسكندر في حملته إلى الشرق، على الرغم مما زعمه روبرت روسين في فيلمه الملحمي «الإسكندر الأكبر» (1956) *Alexander the Great*، الذي لعب فيه دور البطولة الممثل ريتشارد بيرتون. لم يكن أرسطو شاباً، وكان في خدمة آخرين منذ أن كان مراهقاً؛ سواء أفلاطون بصفته رئيساً للأكاديمية، أو رعااته الأثرياء الملكيين هرمياس وفيليب. وها قد جاء زمانه. وصل إلى أثينا وأسس مدرسته «ليسيوم»، التي كانت بمثابة أول جامعة بحثية وتعليمية في العالم. وعلى الرغم من أنه كان يكتب ويفكر منذ سن المراهقة، فإن غالب الباحثين يعتقدون بأنه كتب أبحاثه وأطروحاته التي حُفظت لنا، إضافة إلى جميع الأطروحات الأخرى 130- على الأقل - التي فُقدت، فقط خلال فترة السنوات الاثنتي عشرة الذهبية من حياته الناضجة كرئيس لمدرسة الليسيوم. ومن بين الأعمال المفقودة للأسف الكتاب الثاني من «فن الشعر» *Poetics*. (ولعل أفضل تصوير لفداحة الخسارة التي لحقت بالثقافة العالمية جراء ضياعه ما جاء في قصة أمبرتو إيكو البوليسية التي تدور حوادثها في القرون الوسطى، والتي حملت عنوان «اسم الوردة» (1980) *The Name of the Rose*، والتي تحوّلت إلى فيلم من بطولة الممثل شون كونوري العام 1986. ففي ذروة حوادث الرواية والفيلم، دُمرت آخر مخطوطة باقية من أفكار أرسطو حول الكوميديا في حريق أشعله راهب يؤمن بأن الضحك بجميع

أشكاله خطيئة. ولعل فكرة إيكو هنا تعكس في الواقع السبب الحقيقي لعدم نقل هذا العمل الثمين إلى عالمنا المعاصر؛ فقد كانت احتمالات نسخ أي كتابات عن المسرح الهزلي في الأديرة المسيحية في العصور الوسطى أقل بكثير من احتمالات نسخ الكتابات عن المنطق أو الفلسفة الأخلاقية، على سبيل المثال).

وعلى الرغم من أن أرسطو غالبًا ما يوصف بأنه كاتب متزمت وصارم، فثمة عشرات اللحظات في أعمال أرسطو الباقية لنا التي يتحول فيها فجأة إلى كاتب مفعم بالحيوية والنشاط على نحو يخلب الألباب. إنه يتسم بالطرافة الهادئة، وهو يرصد نقاط الضعف البشري ببريق يشع من عينيه. فعلى سبيل المثال، في حفل شراب مع بعض الفلاسفة، قابل رجلًا كان يكرر على نحو كوميدي حكم إمبيدوكليس؛ وهو أحد المفكرين الإغريق الأكثر غموضًا، والذي كان يعبر عن آرائه في قصائد مطولة سداسية التفاعيل. وكان أرسطو يعرف العديد من الشعراء شخصيًا، ووجد أنهم يميلون إلى الهوس بشأن إبداعاتهم الأدبية، حيث «يعشقونها كعشق الآباء لأطفالهم». كما كان يحب الحكايات التي توضح الغرابة الإنسانية الحميدة؛ مثل قصة الرجل البيزنطي الذي أصبح خبيرًا في التنبؤ بالطقس من خلال مراقبة اتجاهات المشي شمالًا أو جنوبًا لقنافظه الأليفة، أو سكير سيراكيوز الذي كان يحافظ على دفء البيض الذي تضعه دجاجاته حتى يفقس عن طريق الجلوس عليها، ويحتفل بشرب كميات هائلة من النبيذ. كما اهتم أرسطو بعلاقته بجسده؛ إذ كان يؤمن بشدة بأن الجنس والطعام والنبيذ، والتمتع بها بطرق بناءة مع أشخاص نحبه، تقدم أدلة جوهرية على السعادة البشرية. وقد كان مولعًا بحاسة التذوق، وبالطعام والطهو، وكان يعرف ما يزرعه الناس في الحدائق المنزلية ليأكلوه. كما كان يستمتع بالتدليك والحمام الدافئ في صالة الألعاب الرياضية. ويشير

مقدار معرفته بالموسيقى والآلات الموسيقية وطرق العزف عليها إلى أن هذا كان جانباً مهماً من حياته. وكانت لهجته المعتدلة عادةً تتلاشى تمامًا عندما يتحدث عن نساء اسبرطة القويات المتشبهات بآرائهن واللاتي لا تتحملن المسؤولية في الوقت ذاته، مما يوحي بأنه عانى من علاقة مؤلمة مع إحداهن. وقد كان أباً وعمّاً، ووصف أنواع الهدايا التي يقدمها الناس للأطفال، ومنها، على سبيل المثال، كرة أو قارورة زيت للجسد.

غالبًا ما تكون أطروحات أرسطو -المستندة إلى أبحاثه الشخصية وتعليقاته على المحاضرات التي استخدمها في تعليم طلابه- مكثفة وعصية على الفهم، حتى في أكثر الترجمات حداثة ويسرًا. إلا أن أرسطو فكّر كثيرًا في الفارق بين الطريقة التي يحتاج إليها الفيلسوف أو العالم لمخاطبة عامة الناس والطريقة التي يخاطب بها جمهورًا أكاديميًا مثقفًا، وكان مقتنعًا بالمكانة المتساوية لكلا أسلوبَي الخطاب. كان أرسطو أبعد ما يكون عن ازدراء «تبسيط» أطروحاته، إلى حد أنه كتب الكثير من هذه المواد المبسطة بنفسه. إننا نعلم أنه كتب وألقى نوعًا مختلفًا من المحاضرات على عامة الناس، وهي محاضرات عُرفت في العصور القديمة باسم أعماله «العامة» *exoteric works* (وكلمة «عامة» *exoteric* تعني أنها «موجهة للآخرين»، أو «مصممة لتلائم العامة»). ومن المؤكد أن هذه الأعمال كانت تأخذ الشكل الحوارى البسيط سهل القراءة الذي كان أفلاطون قد أكسبه الشهرة والانتشار. وقد ظهر أرسطو نفسه كمحاور في محاوراته، تمامًا كما كان يظهر سقراط في المحاورات الفلسفية لأفلاطون وزينوفون. وقد قال شيشرون -الذي كان يعرف كل شيء تقريبًا عن الأساليب الأدبية- إن خطابات أرسطو للعامة كانت مكتوبة «بلغة العامة»، ومن المؤكد أنه كان يقصدها حين قال إن نشر أرسطو يتدقّق «مثل نهر من الذهب». وكان أشهر أعماله العامة «تشجيع الفلسفة» *Protrepticus*. كان هذا عملًا فلسفيًا كلاسيكيًا شعبيًا لـ «عامة

الناس»؛ وقد وجده فيلسوف يدعى كريتوس يومًا ما بالصدفة «بينما كان يجلس في ورشة أحذية» وقرأه كله في جلسة واحدة. كان النص يعبر عن شغف أرسطو بالفلسفة، ويصف أكثر ما يميز البشر عن الحيوانات الأخرى: القوة الهائلة للعقل البشري، كما أنه كان يقرب البشر إلى ما أسماه أرسطو ببساطة «الإله»؛ فعلى الرغم من أن الإغريق كانوا يعبدون آلهة عدّة، فإن الفلاسفة كان لديهم مفهومٌ عن قوة إلهية واحدة عليها تحرّك الكون في النهاية. وقد اشتملت الأجزاء القليلة المتبقية من أطروحة «تشجيع الفلسفة» على عبارات تؤكّد أن الفلسفة يمكن أن تكون متعة خالصة: «فمن الممتع أن تجلس وتترك نفسك لها».

لكن مع أي محاولة لإحياء الفلسفة الأرسطية، لا سيما من جانب امرأة، نواجه مشكلة تحيزاته المثيرة للجدل -بصفته ذكوريًا قديمًا ورب منزل- ضد النساء والعبيد. ففي المجلّد الأول من كتابه «علم السياسة» *Politics*، يدافع أرسطو عن العبودية علانية وعلى نحو سيئ السمعة -على الأقل في حالة استعباد الإغريق لغير الإغريق- ويصرّح على نحو لا لبس فيه بأن النساء أدنى من الرجال على المستوى العقلي. لم أسهب في المقاطع (النادرة للغاية في الواقع) التي يكشف فيها عن خطأ تفكيره القائل بأن النساء أو العبيد غير الإغريق لم يولدوا بنفس القدرات العقلية كالرجال الإغريق^[4]. وبدلًا من ذلك، أشدّد على مدى اتساق أرسطو بشأن زعمه أن كافة الآراء لا بد أن تخضع للدراسة والمراجعة على الدوام.

فعلى سبيل المثال، كتب أرسطو في كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» يقول إنه على الرغم من أن الثبات على الرأي هو فضيلة في الأساس، فثمة أوقات قد يكون من المضّرّ فيها التمسك بآراء ثابتة على نحو صارم. فلو أنك صادفت أدلة لا تقبل الجدل على أن رأيك خاطئ، فإن تغيير رأيك -الذي قد يدينه بعض الناس باعتباره عدم اتساق- هو أمر يستحقّ الثناء. وكالمعتاد، يبيّن أرسطو مدى عمق تفكيره في الأمثلة الأخلاقية التي تعرضها

التراجيديا. ويستشهد بحالة نيوبتوليموس في مسرحية «فيلوكيتيس» *Philoctetes* لسوفوكليس. أفنع أوديسيوس نيوبتوليموس بالكذب على فيلوكتيس الأعرج، ولكن عندما رأى نيوبتوليموس معاناة فيلوكتيس وعرف المزيد من المعلومات عن محتته، غيّر رأيه ورفض المشاركة في الخداع. لقد راجع رأيه. وأود أن أظنّ بأننا إذا استطعنا التحدّث مع أرسطو، فربما أمكننا إقناعه بالعدول عن رأيه بشأن عقل المرأة.

ورغم أن أرسطو يعتقد بأن الآراء الموروثة (المعتقدات) ينبغي أن تؤخذ على محمل الجد، وربما تحتاج إلى تفنيد منهجي -إذا لزم الأمر- فإنه لم يكن لديه وقت كافٍ للجدال بشأن ما إذا كان شيء ما جيداً لمجرد أنه موروث من أسلافنا. ويعتقد أرسطو بأن البشر البدائيين كانوا مثل الأشخاص الأقل تطوّراً في عصره، «لذا فسيكون من الغريب أن نتقيّد بمفاهيمهم». كما كان يعتقد بأنه قد يكون من المفيد أيضاً مراجعة القوانين المكتوبة، «لأنه من المستحيل أن يكون هيكل الدولة قد صيغ على نحو ملائم لجميع العصور في ما يتعلّق بكل تفاصيله».

الاسم التقليدي لمدرسة أرسطو الفكرية هو «المدرسة المشائية» *Peripatetic philosophy*. وتأتي كلمة «مشائية» الإنجليزية *Peripatetic* من الفعل اليوناني *peripateo*، سواء في اليونانية القديمة أو المعاصرة، والذي يعني «أمشي». فعلى غرار أستاذه أفلاطون، وسقراط، أستاذ أفلاطون من قبله، كان أرسطو يحب المشي أثناء التفكير؛ وكذلك كانت حال العديد من كبار الفلاسفة من بعده، ومن بينهم نيتشه، الذي كان يصرّ على أن «الأفكار المكتسبة من خلال المشي هي وحدها الأفكار التي لها قيمة». لكن كان الإغريق القدماء سيشعرون بالحيرة تجاه الشخصية الرومانسية للحكيم الجوّال المنفرد الذي ظهر للمرة الأولى في كتاب روسو «أحلام يقظة جوال منفرد» *Reveries of the Solitary Walker* (1778)؛ فقد كانوا يفضّلون التجوّل في صحبة أحد، مستفيدين من

التقدّم للأمام الذي تحقّقه خطواتهم النشطة من أجل تحقيق التقدّم الفكري، مع مزمنة محادثاتهم مع إيقاع خطواتهم. ووفقًا لضخامة إسهامه في الفكر الإنساني، وعدد الكتب الكلاسيكية التي قدّمها، يمكننا القول إن أرسطو لا بد وأنه قطع آلاف الأميال مشيًا مع طلابه عبر الطبيعة الإغريقية المتعرّجة خلال الاثنتين وستين سنة التي عاشها على سطح هذا الكوكب.

لقد كانت ثمة علاقة حميمة في الفكر الإغريقي القديم بين التأمل الفكري وفكرة الرحلة. وتمتد هذه العلاقة إلى زمن بعيد قبل أرسطو في افتتاحية «الأوديسة» *Odyssey* لهوميروس؛ حيث إن تجول أوديسيوس سمح له بزيارة أراضي العديد من الشعوب المختلفة «والتعرّف على أفكارهم». وبحلول الحقبة الكلاسيكية، صار من الممكن مجازًا أن تصطبّح مفهومًا أو فكرة ما «في جولة مشي»؛ ففي مسرحية كوميدية أنتجت لأول مرة في أثينا قبل نحو عشرين عامًا من ولادة أرسطو، يتلقّى البطل المأساوي يوريبيديس نصيحة بعدم «المشي» مع ادعاء مغرض لا يمكنه إثباته أبدًا. وثمة نصّ طبيّ يُنسب إلى الطبيب أبقراط يُعادل بين التفكير وبين أخذ عقلك في جولة من أجل تدريبه: «بالنسبة للبشر، الفكر هو تمشية للروح».

استخدم أرسطو هذه الصورة المجازية عندما بدأ دراسته الرائدة في طبيعة الوعي الإنساني في كتابه «عن الروح» *On the Soul*. وقال في كتابه إننا بحاجة إلى إلقاء نظرة على آراء المفكرين السابقين إذا كنا نأمل «أن نمضي قدمًا في محاولة العثور على المسارات المباشرة لعبور الأزمات والطرق المسدودة»؛ وعبارة «مسارات العبور» في اللغة الإنجليزية pathways through مستمدة من الجذر الإغريقي *poros*، والذي يمكن أن يعني جسرًا، أو مخاضة، أو طريقًا عبر الوديان، أو ممرا ضيقًا عبر المضائق أو الصحاري أو الغابات. وقد افتتح أرسطو دراسته

للطبيعة في كتابه «السماع الطبيعي» أو «الطبيعة» *Physics* بدعوة مماثلة ليس فقط إلى سلوك المسار، ولكن إلى سلوك الطريق السريعة معه: طريق البحث يحتاج إلى الانطلاق من الأشياء المألوفة والتقدّم نحو الأشياء التي يصعب علينا فهمها.

كان المصطلح القياسي للمشكلة الفلسفية هو *aporia*، والذي يعني «طريقاً مسدودة»؛ غير أن اسم «المشائين» *Peripatetic* التصق بفلسفة أرسطو لسببين: الأول، هو أن نظامه الفكري بأكمله يركز على الحماسة للتفاصيل الدقيقة الملموسة للعالم المادي من حولنا. لقد كان أرسطو عالماً طبيعياً تجريبياً إلى جانب كونه فيلسوف عقل، ودائماً ما كانت كتاباته تحتفي بمادية الكون التي يمكننا إدراكها من خلال حواسنا ومعرفة أنها حقيقية. وتشير أبحاثه في علم الأحياء إلى صورة لرجل يتوقّف أثناء مشيه كل بضع دقائق لالتقاط صدفة بحرية، أو الانتباه إلى نبات ما، أو يطلب إيقاف الحوار للاستماع إلى عندليب يشدو. والسبب الثاني، هو أن أرسطو كان ينظر إلى البشر على أنهم حيوانات موهوبة على نحو رائع - وذلك أبعد ما يكون عن احتقار الجسد البشري على النحو الذي كان ينتهجه أفلاطون - لا يمكن فصل وعيهم عن كيانهم العضوي، وتمثّل أيديهم معجزة في الهندسة الميكانيكية، وتمثّل المتعة البدنية الغريزية بالنسبة لهم مرشداً حقيقياً صادقاً لعيش حياة الفضيلة والسعادة. وعندما نقرأ لأرسطو، ندرك أنه استخدم تلك اليد الماهرة في كتابة الأفكار التي انبثقت في ذهنه المتّقد - وهو جزء من جسده المحبّب والمدرب جيّداً - على ورق البردى.

ولكنّ ثمة ارتباطاً إضافياً آخر بمصطلح «المشاة». يخبرنا النص اليوناني لإنجيل متى أنه عندما سأل الفريسيون يسوع الناصري لِمَ لم يعش تلاميذه وفقاً للقواعد اليهودية الصارمة في ما يتعلّق بطقوس الطهارة، فإن الفعل الذي استخدموه لكلمة «العيش» كان *peripateo*. لذا فإن الكلمة

اليونانية التي تعني المشي قد تعني مجازًا «عيش حياتك وفقًا لمجموعة معينة من المبادئ الأخلاقية». وبدلاً من اتباع سبيل ديني، اختار تلاميذ أرسطو في المشي أن يشرعوا معه في السير على الطريق الفلسفي السريع نحو السعادة.

لطالما أحببت المشي، وأقضي الآن الكثير من وقت التفكير وأنا أمشي في الطرق الموحلة في كامبريدجشاير. وحين كنت في الثالثة عشرة من عمري، ورغم أنني ابنة لكاهن أنجليكاني، فقدت إيماني بالدين. كان التحدي الأكثر صعوبة لإيماني الأخذ في الزوال سريعاً هو إصرار الكنيسة على أن كون المرء مسيحياً مؤمناً صالحاً يتطلب الإيمان بحوادث خارقة للطبيعة، وعبادة كيانات غير مرئية وغير مسموعة بالحواس. لكن الاعتماد على حواسي الدنيوية ترك ثغرة كبيرة في حياتي. فحين كنت طفلة أصغر سناً، لم يكن لدي شك في أنني سأدخل الجنة إذا كنت صالحة. وأصبحت الآن أشعر بأنني مثل أنطونيوس بلوك في فيلم إنجمار بيرجمان الكلاسيكي «الختم السابع» *The Seventh Seal* (1957)، وهو متشككٌ دينيٌّ خلال فترة انتشار الطاعون في القرن الرابع عشر يسعى جاهداً لمعرفة معنى للحياة؛ إذ يقول: «لا أحد يمكنه أن يعيش في ظل كل هذا الموت أمام عينيه إذا كان يعتقد أنه سيكون طي النسيان والعدم في النهاية». وربما لا يكون من قبيل الصدفة أن بيرجمان أيضاً كان ابن كاهن بروتستانتي. لم أعد أو من بوجود أي شخص أو أي شيء آخر «في الكون» يراقب حياتي، أو يكافئني ويعاقبني على أفعالي الفاضلة والشريرة. ولم أعرف ماذا أضع في هذا المكان الخالي. ومع ذلك فقد ظللت أتوق لأن أكون شخصاً طيباً صالحاً، وأن أعيش حياة ذات قيمة، وأن أترك هذا الكوكب مكاناً أفضل مما كان عليه عندما جئت إليه.

وفي منتصف سنوات مراهقتي، جرّبت لفترة وجيزة علم التنجيم، والبوذية، والتأمل المتسامي، وبعد ذلك، جرّبت على نحو عابر المزيد من

الظواهر الغامضة، ومن بينها العقاقير ذات التأثير النفسي والروحانيات. قرأت كتاب ديل كارنيجي الكلاسيكي «دع القلق وابدأ الحياة!» *How to Stop Worrying and Start Living* (1948) وغيره من كتب مساعدة الذات، ولكنني ظللت أبحث عن نظام أخلاقي عملي، ومثير، ومتفائل على نحو أساسي. وحين تعرّفت على أرسطو -بينما كنت طالبة بالجامعة- قدّم لي الإجابة؛ فهو يشرح العالم المادي من خلال العلم، والعالم الأخلاقي وفقًا للمعايير الإنسانية بدلًا من المعايير التي تفرضها علينا قوة مفارقة.

كان أرسطو هو أول من سيصرّ على أنه لا يمكن لأي شكل من أشكال الأعمال الفلسفية أو العلمية أن يكون نظريًا بحثًا. إن أفكارنا، وفهمنا لذاتنا، وتفسيراتنا للعالم من حولنا ترتبط على نحو أساسي بتجربتنا المعيشية. لقد عاش أرسطو في ثمانية أماكن يونانية متنوعة (انظر الخريطة في بداية الكتاب)، وفي أبريل من العام 2016، قمت بزيارة هذه الأماكن جميعًا من أجل فهم خبرات حياته على نحو أفضل. لقد اتبعت خطى حياته، وحاولت أن أفهم العالم الواقعي الذي شكّل فكر هذا الرجل، والطرق التي سار فيها حقًا أثناء وضع أفكاره الفلسفية استجابة للتحديات والفرص التي جابهته بها الحياة^[5].

لقد قال ثيمستيسوس -أحد أعظم المعلقين القدامى على أعمال أرسطو- إنه كان «أكثر فائدة لعامة الناس» من غيره من المفكرين. ولا يزال هذا صحيحًا؛ فقد كتب الفيلسوف روبرت ج. أندرسون في العام 1986، يقول: «ما من مفكرٍ قديم يمكنه أن يخاطب مباشرة مخاوف وهموم الحياة المعاصرة أكثر من أرسطو؛ وليس من الواضح أن أي مفكرٍ حديث يقدم أكثر مما قدّمه أرسطو للبشر الذين يعيشون في هذا العصر من عدم اليقين»^[6]. إن منهج أرسطو العملي في الفلسفة يمكنه حقًا أن يغير حياتك إلى الأفضل.

الفصل الأول

السعادة

في بداية كتابه «أخلاقيات يوديميان» *Eudemian Ethics*، يقتبس أرسطو حكمة منقوشة على حجر قديم في جزيرة ديلوس المقدسة. تقول الحكمة إن أفضل ثلاثة أشياء في الحياة هي: «العدالة، والصحة، وتحقيق المرء لرغباته». ويختلف أرسطو بشدة مع هذه المقولة. فوفقًا لأرسطو فإن الهدف الأسمى للإنسان في الحياة هو ببساطة تحقيق السعادة، وهو ما يعني إيجاد غاية في الحياة لكي يحقق المرء إمكاناته ويعمل على تحسين سلوكياته ليصبح أفضل نسخة ممكنة من ذاته. فالإنسان هو الوكيل الأخلاقي على ذاته، إلا أنه يعيش في عالم مترابط تعظم فيه أهمية العلاقات مع الآخرين.

كان معلم أرسطو هو أفلاطون، والذي كان هو نفسه أحد تلامذة سقراط صاحب المقولة الشهيرة: «حياة بلا دراسة وتجربة هي حياة لا تستحق العيش». وكان أرسطو ينظر إلى هذا على أنه حكم قاسٍ نوعًا ما. كان يدرك أن العديد من الناس - وربما معظم الناس - يعيشون وفقًا لحدسهم وبلا تفكير أو تدبر غالبًا، لكنهم يستمتعون بسعادة كبيرة وهم يعيشون في وضع «الطيار الآلي». كان أرسطو ليفضل التركيز على النشاط العملي والمستقبل، وربما كان شعاره البديل شيئًا من قبيل: «حياة بلا تخطيط من غير المرجح أن تكون حياة سعيدة تمامًا».

إن الأخلاق الأرسطية تضع الفرد في وضع المسؤولية. وكما كان

أبراهام لينكولن يقول، فإن «معظم الناس يكونون سعداء بقدر ما يقرّرون أن يكونوا سعداء». فبدلاً من أن تعيش في وضع الطيار الآلي، فإن الأخلاق الأرسطية تجعلك الطيار الوحيد أمام لوحة التحكم بالكامل. تولي النظم الأخلاقية الأخرى أهمية أقل بكثير لو كانتك الأخلاقية الفردية وكذلك لمسؤولياتك تجاه الآخرين. وتشارك الأخلاق الأرسطية في نقطة الانطلاق الخاصة بالوكيل الأخلاقي مع فلسفة الأنانية الأخلاقية، المرتبطة بفيلسوف الحداثة المبكر برنارد ماندفيل (1670-1733)، لكنها لا تشارك معها في أي شيء آخر. توصي فلسفة الأنانية الأخلاقية بأن يتصرّف كل فرد على نحو واعي لتعظيم مصلحته الذاتية بأقصى قدر ممكن. تخيل أنك تستضيف حفلاً لتناول الشاي لعشرة من جيرائك. أنت تعلم أن اثنين منهم نباتيان. لكن الشطائر النباتية أغلى بثلاث مرات من شطائر لحم الخنزير المدخن. فلو أنك ابتعت حصتين من الشطائر النباتية، فسيكون الطعام أقل للجميع بشكل عام. سيتجاهل الأناني كل احتياجات الآخرين وسيختار طبقاً لعاداته الشخصية في تناول الطعام. فإذا لم يكن هو نفسه نباتياً، فإنه بالتأكيد لن يفضل أن يقل نصيبه من شطائر اللحم من أجل إحضار طعام يناسب التفضيلات الشخصية لأي شخص آخر. أما إذا كان نباتياً، فإنه سيتجاهل الحرمان الذي سيعاني منه الضيوف الثمانية المتبقين من آكلي اللحوم الذي سيحصلون على نصيب أقل، وبكل بساطة سيتأكد من وجود الكثير من الطعام النباتي من أجل نفسه، وسيطلب حصة إضافية خاصة به.

وعلى الجانب الآخر، يسعى النفعيون إلى تعظيم سعادة أكبر عدد من الناس، وبالتالي يركزون على عواقب الأفعال: فبالنسبة للنفعيين، فإن نتيجة تتضمن سعادة ثمانية من آكلي اللحوم تتفوق تماماً على المشكلة الناتجة عن تعاسة فردين نباتيين. وتصبح النفعية في مأزق عندما تكون الأقليات كبيرة للغاية: فحفلة شاي يضم مثلاً أربعة نباتيين تعساء وستة

أفراد سعداء فحسب من آكلي اللحوم لن يكون حفلاً بهيجاً بكل تأكيد. ويؤكد أتباع إيمانويل كانط على الواجبات والالتزامات، متسائلين عما إذا كان يجب أن يكون ثمة قانونٌ عامٌ ثابت بشأن نسبة الأنواع المختلفة من الشطائر المتوافرة في حفلات الشاي. ويصرّ معتنقو النسبية الثقافية -من ناحية أخرى- على أنه لا وجود لشيء اسمه قانون أخلاقي عام. ويقول هؤلاء إن كل شخص ينتمي إلى مجموعة أو مجموعات لها قوانينها وأعرافها الخاصّة بها. وفي جميع أنحاء العالم، ثمة العديد من الثقافات والمجتمعات التي لا تأكل منتجات الخنزير مطلقاً؛ في حين أن ثقافات أخرى لا يمكنها استيعاب كون البشر نباتيين، بل لا يمكنها استيعاب مفهوم حفلات الشاي من الأساس.

وبدلاً من كل ذلك، كان أرسطو سيدرك أن القرار بشأن الشطائر لا يمكن اتخاذه على نحو مجرد في الفراغ؛ بل كان سيكرّس وقتاً للتفكير في المشكلة ووضع الخطط لحلها. كان سينظر لما وراء خطط تقديم الطعام لتحديد هدفه بوعيّ. فإذا كانت غايته هي جعل جميع الضيوف العشرة يشعرون بأنهم موضع ترحيب ويحصلون على الطعام الكافي لأن هذا سيجعل المجتمع بالكامل أكثر لطفاً بالنسبة لكل من يعيشون فيه، مما سيفضي إلى السعادة الفردية والجماعية، فينبغي أن يؤدّي قراره إلى تعظيم احتمالات تحقيق هذه الغاية لأقصى حد ممكن. لن تكون هناك أي جدوى من إثارة استياء أي من الضيوف، ولو كانوا أقلية. ومن ثمّ، كان سيستشير الأشخاص المعنيين، ومن بينهم الضيوف المدعوون ومقدمو الطعام لاختبار ردود الفعل المحتملة. كان سيأخذ في الاعتبار الحفلات السابقة التي أقامها أو حضرها، ويراجع السوابق، ومن المحتمل جداً أنه كان سيكتشف طريقة لتجاوز المشكلة بالكامل من خلال مراجعة تاريخ حفلات الشاي؛ مثل تقديم الكعك المصنوع من دون منتجات الألبان، والذي يحبه الجميع بدلاً من الشطائر المثيرة للخلاف. وكان سيحرص

على أن يستمتع هو نفسه بأنواع الكعك التي كان سيختارها، وذلك لأن نكران الذات غير الضروري لا محل له في فلسفته القائمة على احترام الذات والآخرين.

إن النظام الأخلاقي الأرسطي هو نظام يتسم بالتعددية، والمرونة، وسهولة التطبيق في الحياة اليومية. وأكثر الخطوات النفسية الواقعية المتخذة من أجل زيادة الرضا والقناعة التي لخصتها عالمة النفس سونيا لوبوميرسكي في كتابها «كيف تكون سعيدًا: دليل عملي لعيش الحياة التي تريدها» *The How of Happiness: A Practical Guide to Getting the Life You Want* (2007) تشبه إلى حدٍّ مدهش توصيات أرسطو الفلسفية، وهي تقتبس منه بالفعل بقبول واستحسان. إن أفكاره المتكررة تفلح في أي موقف تواجهه: التفكير والتدبر المتأنّي، والتركيز الشديد على الأهداف والنيات، والمرونة، والمنطق العملي السليم، والاستقلال الفردي، وأهمية التشاور مع الآخرين. إن الفرضية الأساسية لمفهوم أرسطو عن السعادة بسيطة وديمقراطية على نحو رائع، وهي كالتالي: يمكن لأي شخص أن يقرّر أن يكون سعيدًا. وبعد فترة زمنية معينة، يتأصل التصرف بشكل صحيح بوصفه عادة، لذا يشعر المرء بالرضا عن ذاته، وتكون الحالة الذهنية الناتجة هي حالة «يودايمونيا» *eudaimonia*، وهي الكلمة التي استخدمها أرسطو للتعبير عن السعادة. هذا السعي الأرسطي وراء اليودايمونيا غالبًا ما يكون جذابًا للأدريين والملحدّين، ولكنه في الواقع يتماشى مع أيّ دين يشدّد على المسؤولية الأخلاقية للفرد عن أفعاله، ولا يفترض أن الإرشاد المستمر، أو الثواب والعقاب، يأتیان من أي كيان إلهي خارجي. لكن لما كان أرسطو نفسه لا يؤمن بأن الله يتدخل في شؤون العالم أو مهتمًا به بأي حال، فقد كان برنامجه لتحقيق السعادة يمثل نظامًا قائمًا بذاته. فالمفكر الأرسطي لا يتوقّع العثور على قواعد لحفلات الشاي في أيّ نصٍّ مقدّس. لكنه لا يتوقّع كذلك

تعرّضه لأي عقاب إلهي إذا لم تسر الأمور على ما يرام في حفل الشاي. والعيش بأسلوب يتّسم بالكفاءة والتنظيم والتخطيط هو شيء تختار أن تفعله للتحكم في حياتك ومصيرك. وبما أن هذا التحكم عادة ما يُنسب إلى إله أو آلهة متعدّدة، فإنه ينطوي على معنى قد يجعلك «شبيهًا بإله».

بيد أن مفهوم اليودايمونيا ليس من السهل شرحه. فالبادئة *eu* (وتُنطق مثل كلمة *You*) تعني «حسن» أو «جيد»؛ والمقطع *daimonia* مشتقّ من كلمة ذات مجموعة كبيرة من المعاني، مثل: كيان مقدّس، أو سلطة سماوية، أو ملاك حارس، أو ثروة أو حظ في الحياة. لذا فإن كلمة «يودايمونيا» *eudaimonia* صارت تعني الرفاهية أو الرخاء، وهو المعنى الذي يتضمّن بكلّ تأكيد الرضا. ولكن الكلمة تعني ما هو أكثر بكثير من مجرد «الرضا». فإذا كنت تريد الوصول لحالة «اليودايمونيا»، فإن الأمر يتطلب منك فعلًا إيجابيًا. وفي الحقيقة، السعادة عند أرسطو تعني الفعل النشاط (*praxis*). ويشير أرسطو إلى أنه إذا كانت السعادة نزعة عاطفية يولد بها بعض البشر أو لا يولدون بها، فيمكن لرجل قضى حياته نائمًا، و«عاش ساكنًا كالنبات»، أن يحظى بها.

كذلك فإن تعريف أرسطو للسعادة لا يحدّده الرخاء المادي من أي نوع. فقبل ذلك بقرن من الزمان، تحدّث مفكّر من شمال اليونان، وهو ديموقريطس، الذي كان أرسطو معجبًا به، عن «سعادة الروح»، وأكد أنها حتمًا لا تُستمد من امتلاك الماشية أو الذهب. وعندما يستخدم أرسطو كلمة يودايمونيا، فإنه يشير أيضًا إلى «سعادة الروح»، كما يدركها الإنسان الواعي. ووفقًا لأرسطو، فإن الحياة نفسها تتكون من امتلاك عقل نشط. كان أرسطو مقتنعًا أن معظم الناس يستمدّون متعتهم من معرفة أشياء جديدة ومن التعجب والتساؤل بشأن العالم من حولهم. وبالطبع، كان يعتبر أن اكتساب فهم للعالم - وليس فقط المعرفة الأكاديمية به، بل فهم أي جانب من جوانب التجربة - هو الهدف الأساسي للحياة ذاتها.

فإذا كنت تؤمن بأن الهدف من الحياة البشرية هو تعظيم السعادة إلى أقصى حدٍّ ممكن، فإنك مفكرٌ أرسطي في طور التشكُّل. فإذا كان الهدف من الحياة البشرية هو السعادة، فإن طريقة تحقيقها هي التفكير بعناية وتأنٍّ في كيفية «العيش الطيب»، أو العيش بأفضل طريقة ممكنة. وهذا يتطلب اكتساب الوعي الذاتي، الذي لا يعتقد أرسطو أن بمقدور أيٍّ من الحيوانات الأخرى اكتسابه. وكلمة «طيب» البسيطة على نحو خادع يمكن أن تعني «بكفاءة» من الناحية العملية، وتعني «بأخلاقية» في ما يتعلّق بجانب الطيبة والخير، وتعني «حسن الحظ» أو «البهجة» في ما يتعلّق بالاستمتاع بالسعادة والظروف الطيبة.

في الرابع من يوليو من العام 1776، صدّق الكونجرس الأمريكي الذي كان قد تأسّس للتو على نص «إعلان الاستقلال» الذي كتبه توماس جيفرسون. وكانت الجملة الأولى في الإعلان الذي دشّن عهدًا جديدًا تقول: «نحن نؤمن بأن الحقائق التالية من البديهيات، وهي أن جميع البشر قد خلّقوا متساوين، وأن خالقهم قد حباهم بحقوق معينة لا تنتزع، ومن بينها حق الحياة، والحرية، والسعي في سبيل تحقيق السعادة». ومن المعروف أن الجمهورية الرومانية القديمة كانت نموذجًا يُحتذى به بالنسبة للآباء المؤسّسين لأمريكا، ولكن جملة «السعي في سبيل تحقيق السعادة» الموحية تلك توضح أن توماس جيفرسون كان مستغرقًا في فلسفة أرسطو بدوره. وبعد أربع سنوات من ذلك التاريخ، احتذى دستور ماساتشوستس (1780) بإعلان الاستقلال، فقال إن الحكومة تُشكّل من أجل الصالح العام؛ «من أجل حماية وأمن، ورخاء، وسعادة الناس».

كان أرسطو يؤمن بأن الطريقة التي نعلّم بها مواطني المستقبل في غاية الأهمية من أجل تحقيق إمكاناتهم، سواء كأفراد أو كجزء من المجتمعات. وما كان لإعلان الشمال الغربي الصادر في العام 1787 أن يبدو أكثر أرسطية عندما نصّ على أن المدارس ضرورية من أجل «الحكومة الجيدة

وسعادة البشرية». إن كل من يعيش في العالم الآن ويتفق بوجه عام مع المبادئ التي تبناها الفجر الجديد المشرق للاستقلال الأمريكي الجديد هو شخص أرسطي ملتزم بمشروع السعادة البشرية، سواء أدرك ذلك أم لم يدركه.

تُعد أشهر مقولات أرسطو -وهي شهيرة لدرجة أنها اقتُبست (على نحو غير صحيح) في حوار بين البابا فرانسيس ودونالد ترامب في فبراير العام -2016 هي أن الإنسان «حيوان سياسي» (*zoon politikon*). كان أرسطو يقصد أن الإنسان يتميز عن الحيوانات الأخرى بالميل الطبيعي نحو التجمع مع غيره من البشر للعيش في مجتمع كبير مستقر *polis*، أو دولة-مدينة⁽¹⁾ *city-state*. ودائمًا ما يتوصّل أرسطو إلى التعريفات عن طريق إجراء سلسلة من المقارنات والتمييزات، وفي كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس» *Nicomachean Ethics* يطرح سؤالاً مهمًا: ما هي السمات المميزة للإنسان؟ إن البشر -مثل الحيوان والنبات- يشاركون في الأنشطة الأساسية للعيش، وتحصيل الطعام، والنمو. فإذا كانت الحيوانات والنباتات الأخرى تقوم بالشبيء نفسه، فإن هذا ليس أمرًا مميزًا للإنسان إذًا. كما أن الحيوانات -مثل البشر أيضًا- تملك حواسّ تميّز بها المخلوقات الأخرى والعالم من حولها. لذا فإن الوعي والإدراك لا يمكن أن يكونا سمة مميزة ومقتصرة على البشر كذلك. لكن لا يشترك مخلوق آخر مع الإنسان في امتلاك «الحياة النشطة لكائن يملك عقلًا». إن البشر يفعلون أشياء، ويستطيعون التفكير قبل، وأثناء، فعل هذه الأشياء. هذه هي علة وجود البشر. فإذا كنتَ، كإنسان، لا تمارس قدرتك على التصرف أثناء استخدامك لممتلكاتك العقلية، فإنك لا تحقق أقصى إمكانياتك.

(1) دولة-مدينة *City-state*: هي دولة ذات سيادة، وتوصف أيضًا بأنها دولة صغيرة مستقلة، تتكوّن عادة من مدينة واحدة والأراضي التابعة لها، ومن أشهر أمثلتها أثينا وروما. (المترجم)

إن استخدام عقلك من أجل «العيش الطيب» يعني تنمية الفضائل وتجنب الرذائل. وكونك إنساناً طيباً سوف يجعلك أكثر سعادة. فثمة سبب يجعل فيلم الفانتازيا الباعث على الشعور الجيد «إنها حياة جميلة» *It's a Wonderful Life* (1946) للمخرج فرانك كابرا يعتبر أشهر فيلم عن أعياد الكريسماس على مر التاريخ: فرسالته تردّد بصدى قويٍّ وعميقٍ للغاية قيم الكرم والتعاون التي يتشاركها غالب البشر. فجورج بايلي، الذي يجسّد دوره الممثل جيمس ستوارت، هو رجل أعمال محبّ للخير يمر بضائقة ويتعرض للظلم من رأسماليّ جشع. كان جورج يخطّط للانتحار عشية عيد الميلاد. يصل إلى الأرض ملاكٌ حارسٌ يدعى كلارنس قادماً من السماء، ويُري جورج -من خلال استعادة مشاهد من الماضي- وقائع من حياته الماضية التي ساعد فيها آخرين بإيثار؛ وكان مخلصاً لعائلته؛ وأعطى قروضاً أتاحَت للفقراء شراء منازل خاصّة بهم. يقنع كلارنس جورج بالعدول عن فكرة الانتحار عن طريق إطلاعه على نسخة بديلة من التاريخ لم يكن لجورج وجود فيها قط، فخرّمت منه عائلته، وعاش الفقراء في أحياء بائسة. يدرك جورج أن «حياته الجميلة» قد ربطت بينه وبين الآخرين من خلال جهوده لمساعدتهم. والفيلم أيضاً فيلم أرسطي من حيث إنه يقدّم الحياة كمشروع، أو طريق مستمر، جميل بقدر ما نقرر أن نجعله جميلاً. وبقدر ما قد يبدو الفيلم مبتذلاً الآن، فإنه يمس وتراً عاطفياً صادقاً.

أما فيلم «الوعد» *La Promesse* (1996) للمخرجين البلجيكيين جان بيير ولوك داردن فإنه يتجنّب كل هذه المشاعر العاطفية ليوضح كيف أن صبيّاً على أعتاب مرحلة النضج وامتلاك وكالة أخلاقية كاملة يشعر بالرضا والإشباع نتيجة فعل الخير. في بداية الفيلم، يبلغ إيجور 15 عاماً فحسب من العمر، وهو يعمل كمتدرب لدى ميكانيكي، لكنه يواجه تحدّياً أخلاقياً قاسياً، وينجح في ترسيخ استقلاله الأخلاقي عن والده

المتجرد من المبادئ. تتضمن حبكة الفيلم الموت المفاجئ لمهاجر غير شرعي وإصرار والد إيجور على أن يساعده في إخفاء الأمر. يصل إيجور إلى النضج الأخلاقي ودرجة من السكينة عن طريقة مساعدة أسرة الميت في مواجهة أب عديم الشعور، ومشاعر الذنب، والهشاشة الاجتماعية، والخوف من القانون.

ويُعدُّ التأكيد على العلاقة بين السعادة وأفعال الفضيلة أحد الفروق الأساسية بين صيغة أرسطو للسعادة وبين الفلسفات الأخرى، مثل الأنوية، والنفعية، والكانطية. ففي كتابه «السياسة» *Politics*، ولتوضيح صعوبة تحقيق السعادة من دون محاولة أن يكون المرء إنسانًا طيبًا صالحًا، يعرض أرسطو مثالًا شديد السخرية لشخص مملوء بالذائل، وبالتالي يعيش بائسًا:

لا يمكن لأحد أن يقول إن شخصًا ما ينعم بسعادة مثلى وهو لا يملك أقل قدر من الشجاعة، أو التحكم في الذات، أو اللياقة، أو الإحساس، وإنما هو يخاف من الذباب الذي يحوم حوله، ولا يتورع عن ارتكاب أكثر الأفعال قبحًا وشناعة ليشبع رغبة في الأكل أو الشرب، ويخون أعز أصدقائه من أجل درهم من مال، وهو كذلك لا عقل له في الأمور الذهنية ويخطئ فيها كما لو كان طفلًا أو مجنونًا.

وقد عبّر جورج واشنطن عن نفس العلاقة بين الفضيلة والسعادة بشكل مختلف في خطاب توليه الرئاسة عام 1789، حين قال للجمهور الحاضر أمامه في مدينة نيويورك إن ثمة «رابطًا أبدئيًا لا ينفصم بين الفضيلة والسعادة».

إن اتخاذ القرار بالسعي لتحقيق السعادة من خلال «العيش الطيب» يعني ممارسة «أخلاقيات الفضيلة»، أو بعبارة أكثر بساطة: «فعل الشيء

الصحيح». كذلك فإن الفضائل الأرسطية يمكن ترجمتها إلى أسماء رائعة وذات مغزى، مثل «العدالة»، والتي تعني في الحقيقة معاملة الناس بإنصاف ولطف. ولطالما جذبت أخلاقيات الفضيحة اهتمام الإنسانيين، واللاأدريين، والملحدين، والشكوكيين، لا سيما لأنها تتيح لمن يريد أن يعيش حياته بقناعة، ورضا، ولطف، وبصورة مثمرة بناءً طريقة مدروسة لتحقيق ذلك. سوف تساعدك أخلاقيات الفضيحة في التعامل مع القرارات، والأخلاقيات، و«الأسئلة الكبرى» المتعلقة بالموت والحياة، والثقة بأحكامك وتقديراتك وقدرتك على الاعتناء بنفسك، وبأصدقائك، وبمن تعول. لكن الافتقار إلى ترجمات اصطلاحية للغة اليونانية كان أحد الأسباب التي جعلت برنامج أرسطو المعقول والفعال للسعي وراء السعادة من خلال اتخاذ القرار بـ«فعل الشيء الصحيح» غير مفهوم على نطاق أوسع بين عامة الناس. فلو أن الناس أدركوا أن السعادة الشخصية تعتمد على سلوكهم الشخصي، فإن السعادة، كما قال: «ستصبح أكثر شيوعاً، لأن المزيد من الناس سيتمكنون من مشاركتها». ويذهب أرسطو لما هو أبعد من ذلك بكثير حين يقول إنه في الوضع المثالي «سيكون كل البشر متفقين مع الآراء التي سيذكرها»، لكن في حال عدم حدوث ذلك، فينبغي عليهم أن يتعلموا جزءاً على الأقل من البرنامج الذي تقتضيه أخلاقيات الفضيحة «لأن كل إنسان لديه ما يسهم به».

كتب أرسطو أوائل الكتب المكرسة لإجابة السؤال: «كيف ينبغي أن أتصرف؟»؛ ولم يكن أحد من قبله -ولا حتى أفلاطون- قد فكر في هذا الأمر على نحو منفصل عن أمور أخرى، مثل الدين أو السياسة. كتب أرسطو كتابين كبيرين عن الأخلاق، الأول هو «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، والذي يبدو أنه كان موجّهاً لابنه نيقوماخوس؛ والثاني هو «أخلاقيات يوديميان»، والذي سُمي تيمناً باسم صديقه «يوديموس»، الذي ربما كان هو من نَقح مخطوطة الكتاب. ولا يبدو أنه كان يعرف هذه

العناوين ذاتها أو يستخدمها، على الرغم من أنه يذكر في كتابه «السياسة» كتابات سابقة له عن «الشخصية» *Ethika* (والكلمة اليونانية القديمة التي تعني الشخصية هي كلمة *ethos*). والأرجح أن كتاب «أخلاقيات يوديميان» كُتب في وقت سابق على «الأخلاق إلى نيقوماخوس ثم روجع لاحقاً بشكل جزئي في ضوء الكتاب الأخير منهما. وهذان الكتابان الرائعان يتبعان الخطوط الرئيسية ذاتها. يناقش الكتابان في البداية المشروع الأساسي للسعادة والرخاء، ثم ينتقلان إلى طبيعة الفضيلة بوجه عام (*arete*)، ثم الفضائل بشكل مفصل (*aretai*)، وهي التي يجب تنميتها في البشر إذا كانوا يريدون «العيش الطيب»، والازدهار، والسعادة. ويتناول الكتابان كذلك الصداقة والمتعة، ويتطرقان على نحو موجز إلى علاقة البشر بالآلهة. وثمة كتاب أصغر يحتوي أيضاً شرحاً لأفكار أرسطو، لكن ربما كان من تأليف أحد أتباعه، والذي يحمل العنوان المثير للحيرة *Magna Moralia* (أي «الأخلاق الكبرى»).

ثمة بضع قواعد صارمة أو إرشادات عامة تقدمها لنا كتابات أرسطو عن الأخلاق. لا يوجد صيغة جامدة أو «نظام أخلاقي»؛ فالهدف دائماً هو تحسين حياتنا وتوجيهها نحو السعادة والرفاهية، غير أن البعد الأخلاقي لكل قرار سيكون مختلفاً عن غيره ويتطلب تحليلاً مختلفاً واستجابة مختلفة. ربما يختلس اثنان من الموظفين لديك مالا من الخزينة، لكن الأول يستخدمه لإطعام أطفاله ويعيده آخر كل شهر، بينما الآخر يستخدمه لشراء المخدرات. كان أرسطو يعتقد بأن المبادئ العامة مهمة، لكن من دون أخذ الظروف المحددة في الاعتبار، كثيراً ما تكون المبادئ العامة مضللة. ولهذا السبب يسمي بعض أتباع أرسطو أنفسهم «متخصصون أخلاقيون». فكل موقف وكل معضلة تتطلب انخراطاً مفصلاً في أدق تفاصيلها. وعندما يتعلق الأمر بالأخلاق، فقد يكمن الشيطان حقاً في التفاصيل.

يدرك أرسطو أن بعض الناس لا يستطيعون، أو هم غير مستعدين للعيش بهذا الأسلوب المرن، والمركز على المبادئ في الوقت نفسه. ومثل هؤلاء الناس قد يكونون غير ناضجين بكل بساطة؛ وهو يوضح بعناية أن النضج لا يتعلّق بالسن البيولوجي، لأن هناك شابًا ناضجًا عاطفيًا بشدّة، بينما هناك كبار في السن لا ينضجون أبدًا نفسيًا أو أخلاقيًا. لكن أرسطو يعتقد أيضًا أن البشر الذين يكتبون عواطفهم أكثر مما ينبغي لا يستطيعون عيش حياتهم بطريقة تجعلهم يسعون وراء تحقيق هدف جيد على نحو فعال؛ وفي هذا يبدو أرسطو حدائيًا وفرويديًا للغاية. فالأفراد الذين لا يأخذون في اعتبارهم ردود أفعالهم العاطفية ونزعاتهم الطبيعية لا يستطيعون إنجاز أهداف طيبة في الحياة تمامًا، كما لا يستطيع ذلك أولئك الذين لا يستخدمون قدراتهم العقلية الأخلاقية. في كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، يشير أرسطو إلى أن العلاقة بين العقل والعاطفة ليست علاقة تناقض قطبية بل هي أشبه بعلاقة الجانبين المحذّب والمقعر لقوسٍ منحني.

ويوضح أرسطو كذلك أن العديد من الناس يخلطون بين أنواع معينة من الأشياء الطيبة -مثل المتعة أو الثروة أو الشهرة- وبين أنواع الأشياء الطيبة المثمرة التي يتحدّث عنها هو في الواقع. ومشكلة مثل هذه الأهداف هي أنها يمكن أن تتأثر بشدّة بالحظ، في حين أن الحظ لا يستطيع أن يدمر الأهداف المثمرة اجتماعيًا. فإذا كان هدفك هو تحقيق الثروة، وظللت فقيرًا أو خسرت مالك فجأة بسبب سوء الحظ، فإنك لن تستطيع أبدًا أن تحقق السعادة التي تعنيها كلمة يودايمونيا.

بيد أن عيش حياة أخلاقية واعية ليس أمرًا متاحًا للجميع. يقسم أرسطو البشر الساعين نحو تحقيق أهدافهم إلى ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى مهتمة فقط بنوع «الخير» النابع من اللذة المادية الحسية؛ ويقارن أرسطو بين هؤلاء الناس وبين الماشية، ويقول إنه للأسف ثمة الكثير من

الأشخاص البارزين الذين لا همّ لهم إلا المتعة الجسدية الحسية. ويذكر أرسطو الملك الآشوري الخيالي، ساردانابالوس، كمثال؛ حيث كان شعاره: «كل، واشرب، والعب، لأن لا شيء آخر يستحق». كان أرسطو يعتقد بالفعل بأهمية المتعة الحسية، وبأنها توجّهنا للوصول لما هو طيّب بالنسبة إلى جميع الحيوانات. لكن بالنسبة إلى البشر كحيوانات، فإنها أمرٌ جيد لأنها مفيدة في إرشاد الناس للوصول إلى السعادة، وليس صنع السعادة ذاتها. والمجموعة الثانية تتكوّن من أصحاب الأفعال الذين يقضون حياتهم في النشاط العام أو السياسي. هدف هؤلاء هو الشهرة أو نبيل الاحترام والتقدير. لكن المشكلة هي أنهم مهتمون بنبيل التقدير أكثر من اهتمامهم بأن يكونوا أناسًا صالحين. ما يهم هو الأوسمة، وليس السبب في الحصول عليها. أما المجموعة الثالثة فتتكوّن من أناس هدفهم هو معرفة العالم وإشباع عقولهم. ومن الأصعب بكثير أن يُهدم هذا الهدف بسبب عوامل خارجة عن نطاق تحكّمك، مثل الحظ؛ كما أنه هدف لا يحتاج لتقدير أو مجاملة من الآخرين. إنه شيء يمكن أن تقوم به بنفسك ومربط على نحو أصيل بالاكتماء الذاتي.

والاكتماء الذاتي، أو الاعتماد على الذات *autarkeia*، هو عنصر أساسي في مفهوم أرسطو لعيش حياة طيبة، وبالتالي حياة سعيدة. إنه مصطلح غالبًا ما يأتي في سياق اقتصادي؛ فالشخص المكتفي ذاتيًا يمكن أن يكون شخصًا مستقلًا ماديًا ولا يحتاج لدعم اقتصادي من أي شخص آخر. وهذا بدوره يجعله مستقلًا من الناحية الأخلاقية؛ فهو لا يحتاج إلى أن يخضع لأهواء آخرين أو يتلقّى أوامر من أحد. وهذا هو المعنى الأكثر أهمية بالنسبة لأرسطو. فعيش حياة طيبة يتطلب القدرة على التصرف كوكيل أخلاقي مستقل، وألا تصبح أفعالك المدروسة مقيّدة بالتزامات تجاه الآخرين. فالدخل المناسب يمكن أن يكون عاملاً مهمًا في امتلاك الحرية لتكون شخصًا طيبًا صالحًا وتسعى وراء تحقيق السعادة. ولكن

هذا أيضًا يضع مسؤولية على عاتق الشخص الذي يريد أن يعيش حياة طيبة ويكون سعيدًا وهي مسؤولية أن يجد في ذاته الموارد الشخصية الضرورية. وبالقرب من نهاية كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، يشير أرسطو إلى أن أفضل حياة اكتفاء ذاتي هي حياة التأمل الفلسفي المحض؛ لأنها لا تحتاج لأي شخص آخر. لكن حتى هنا، يقول أرسطو إن الشخص الذي يكرّس كل وقته للفلسفة، وعلى الرغم من أنه يستطيع ممارسة الفلسفة وحده، «ربما كان من الأفضل له أن يكون لديه زملاء يشاركونه في تأملاته». فإذا كنت تخطط لأن تكون سعيدًا من خلال العدل في معاملتك، على سبيل المثال، فإنك تحتاج إلى شخص تكون عادةً تجاهه.

وهذا الإقرار يميّز الفكر الأرسطي بشدة عن المدارس الفلسفية القديمة التي ناصرت العيش في عزلة، مثل الناسك، بعيدًا عن العلاقات وما يجري في العالم. فبالنسبة إلى أرسطو، حتى الشخص صاحب الاكتفاء الذاتي تصبح حياته أفضل بامتلاك أصدقاء. وهو يعارض بشكل واضح وصريح أولئك الفلاسفة الذين يقولون إن الشخص الذي يعيش حياة طيبة لا يحتاج إلى أصدقاء. فإذا كان ثمة أشياء طيبة بطبيعتها توجد في «الخارج»، فلمَ قد يرغب الشخص السعيد في عدم امتلاكها؟ ربما كان هذا الشخص يستطيع عيش حياته من دونها إذا اضطرته الظروف لذلك، لكن لماذا يكون هذا هو تفضيله؟

لذا، يمكنك الاحتفاظ بأصدقائك في طريقك نحو السعادة. وثمة المزيد من الأخبار الجيدة؛ فأنت لا تحتاج حتى لأن تكون «موهوبًا بالفطرة» لـ «تعيش حياة طيبة وتمارس الفضيلة» لكي تصبح «أفضل نسخة من ذاتك». يحرص أرسطو في المجلد الثالث من «الأخلاق إلى نيقوماخوس» على الردّ على أولئك الذين يقولون إن الناس يولدون إما أختيار وإما أشرار. يمكنك تحمّل مسؤولية سعادتك وتقرير أن تعيش حياة طيبة في أي وقت من حياتك الأخلاقية. وعلاوة على ذلك، يؤكّد

أرسطو في المجلد التاسع من الكتاب نفسه أن من يزيدون العيش الطيب ومعاملة الناس بعدل وإنصاف يحتاجون إلى أن يحبوا «أنفسهم» مهما كلف الأمر. وأولئك الذين يترعرعون في بيوت متزمتة دينيًا يقال لهم فيها إنهم مذنبون ارتكبوا الخطايا، ويجب أن يتضرعوا إلى الله من أجل الغفران، غالبًا ما يجدون هذا أمرًا باعثًا على الراحة.

وبفترة طويلة قبل أن يشجع التحليل النفسي الفرويدي الناس على النظر إلى رغباتهم البدائية على أنها أمور فطرية وليست أشياء وضعية أخلاقيًا، وقبل أن يطلب منا المحلل النفسي الدكتور ويتني هيو مسيلدين احتضان الطفل الكامن بداخل كل واحد منا في كتابه «طفلك الداخلي من الماضي» (1963) *Your Inner Child of the Past*، زعم أرسطو أن السعادة لا تتماشى مع كراهية الذات. إن الأشخاص الذين لا يمكنهم احترام ذواتهم والإيمان بالخير المتأصل فيهم لا يمكنهم حتى حب أنفسهم ناهيك عن حب الآخرين. والأشخاص المنحرفون والمجرمون يكرهون أنفسهم ويكرهون الآخرين. ويتعمق أرسطو في تحليله لكراهية الذات. فعلى عكس أكثر النظم الدينية والأخلاقية الأخرى، فإن الأخلاق الأرسطية لا تصدر أحكامًا على الأشخاص غير الأخلاقيين، لأن أرسطو يرى أنهم أناس بؤساء في الأساس. إن الأشخاص الفاسقين دائمًا ما يعانون من التناقض؛ فهم يفعلون ما يكسبهم المتعة، لكنهم يدركون على مستوى ما أن السعي وراء المتعة في حد ذاتها لا يحقق السعادة. وبالمثل، فإن الأشخاص الذين يدركون ما يجب فعله، لكن يمنعهم الجبن أو الكسل من فعله هم أيضًا متناقضون.

يبدو أن أرسطو -الذي عاش في الأربعينيات من عمره بالقرب من العائلة المالكة المقدونية المستبدة؛ الملك فيليب الثاني عديم الرحمة، وزوجاته، ومحظياته، ومساعديه، حيث يسعى الجميع لنيل مكان في البلاط الملكي- قد لاحظ بدقة بؤس الأشخاص الفاسقين والمتهتكين-.

كان يعرف مجرمين سفّاحين أنهموا حياتهم ببساطة بالانتحار. وشاهد رجالاً أشراراً «يسعون دائماً وراء صحبة الآخرين ويتجنبون صحبة أنفسهم، لأنهم حين ينفردون بأنفسهم يتذكّرون كثيراً مما كان سيئاً في ماضيهم ويتوقّعون الشيء نفسه في المستقبل، في حين يمكنهم نسيان ذلك عندما يكونون بصحبة آخرين». وهؤلاء الفاسدون البؤساء -الذين لا يتحمّلون أن يكونوا بمفردهم- لا يستطيعون حتى الشعور «بأفراحهم وأتراحهم بشكل كامل، لأن ثمة حرباً طاحنة تدور داخل أرواحهم». إنهم يشعرون كما لو كانوا يتمزقون إرباً. إنهم يستمتعون بالانغماس في رغباتهم لبضع دقائق، «لكنهم يندمون على ذلك بعد قليل، ويتمنون لو لم تكن لديهم تلك الرغبات من الأساس، لأن الأشخاص السيئين يغيّرون آراءهم باستمرار». ويبدو أن الأديب الروسي ليو تولستوي -الذي كان واسع الاطلاع على الأدب والفلسفة الإغريقية القديمة- كان يقرأ لأرسطو؛ إذ افتتح روايته الشهيرة «أنا كارنينا» (1877) *Anna Karenina* بعبارة تقول: «كل العائلات السعيدة تتشابه؛ لكن كل عائلة تعيسة لها طريقتها الخاصة في التعاسة». وكان أرسطو قد شدّد على أن «الخير بسيط، أما الشرّ فله أشكال متعدّدة؛ وكذلك فإن الشخص الطيب دائماً ما يكون ثابتاً ولا تتغير شخصيته، بينما يتغير الشرير والأحمق في المساء عما كان عليه في الصباح. ولم يكن ثمة تحليل أفضل من هذا للمآسي النفسية متعدّدة الأشكال التي يبتلي بها الشخص الفاسد نفسه من خلال سلوكه المتقلّب المتناقض.

وُلد أرسطو في استاجيرا لعائلة ثرية ومحبة كما يبدو، وفي مدينة مستقلة ذات سيادة وحكم ذاتي تحظى بموقع جميل تغسله أمواج البحر على خلفية من الغابات والجبال. وأظن أن فكرته عن السعادة بوصفها نشاطاً فاضلاً متناغماً داخل مجتمع مزدهر كانت مستقاة في الأساس ذكريات طفولته. ففي مرحلة متأخرة من حياته، ظلّ مخلصاً لمدينته

ومسقط رأسه التي قضى فيها طفولته. غزا فيليب المقدوني هذه المدينة ودمر بعض أبنيتها العام 348 قبل الميلاد، وسبى كل من بقي حيًا من سكانها، لكنه لأن ورقً عندما توّسل إليه أرسطو أن يعيد بناءها ويعيد لسكانها حريتهم. وفي وسط المدينة، ثمة بقايا لصفٍّ من الأعمدة بمقعد مدمج كان يجتمع عليه سكان المدينة الأحرار الذين يتمتعون بالحكم -ومن بينهم والد أرسطو- للنقاش.

إنني أتفق مع أرسطو -الذي ربما حظيَ بهذه الذكريات السعيدة من الطفولة- في أن الأطفال لا يمكن أن يكونوا سعداء بالمعنى الكامل للكلمة؛ لأن لم يعيشوا حياة طويلة بعد، وتسيطر عليهم بشدة الرغبة في الإشباع الفوري لاحتياجاتهم بحيث يكون التفكير طويل الأجل أمرًا مستحيلًا تمامًا بالنسبة لهم. وهذا يجعلني شديدة التعاطف مع الشباب أيضًا؛ فهم لا يفتقرون فحسب للأمان العاطفي والمالي، وإنما لا تزال تتظهرهم فرصة أكبر بكثير لمصادفة سوء الحظ العشوائي الخطير مقارنة بمن هم في منتصف العمر أو العجائز. والنصيحة الوحيدة التي يمكن تقديمها لهم هي أن يكونوا صادقين مع أنفسهم. فلن تكون حالتهم العقلية دائمًا عرضة للتغير أو الاندثار التام، «مثل الحرباء أو مثل بيت بُني على الرمال»، كما يقول أرسطو.

إن أكثر التهديدات خطورة للسعادة هو الحظ السيئ المحض. في كتابه «أخلاقيات يوديميان»، خصّص أرسطو عدة صفحات للعلاقة بين ذاتك الداخلية كوكيل أخلاقي -أي قدرتك على تحديد سلوكياتك والتحكّم في مصيرك- وبين الحظ السيئ العشوائي الذي قد تواجهه، والذي يخرج تمامًا عن نطاق تحكّمك. كان المثال المفضّل لدى أرسطو على المعاناة من الحظ السيئ على نطاق ملحمي هو الملك بريام. كان بريام ملكًا على مملكة طروادة المزدهرة السعيدة، وكان لديه خمسون من الأبناء، وقد خسر مملكته وجميع أبنائه بسبب غزو الإغريق قبل أن يموت

ميتة مهينة على مذبح مدينته. وهو لم يفعل ما يستحقّ عليه كل ذلك. أما المثال الخاصّ بي فهو سونالي ديرانياجالا، وهي محاضرة في الاقتصاد بجامعة لندن فقدت طفلها، ووالديها، وزوجها في موجة تسونامي العاتية التي ضربت سريلانكا العام 2004. عانت سونالي من ألم لا يوصف منذ ذلك الحين. لا تؤمن سونالي بأي دين، وهي تقول إنها نجحت في أن تبقى حية فقط من خلال الاستخدام المدروس لاستعادة الذكريات (وهو أسلوب أرسطي بحث)، وبمساعدة مجهودات استثنائية في مجال علم النفس، استعادت أجزاء من ذاتها القديمة أخيراً. سجّلت سونالي تجربتها بالكامل في مذكراتها المكتوبة بشكل رائع العام 2013 بعنوان «موجة» Wave. إنها تجربة قاسية. وكما يقول أرسطو، فإن تغييرات بسيطة يسببها الحظ «لا تغيّر مسار الحياة بالكامل قطعاً»، ولكن من ناحية أخرى، فإن «التغيرات الكبرى والمتكررة يمكن أن تسحق وتشوّه سعادتنا، بسبب الألم الذي تسببه وإعاقتها للعديد من الأنشطة».

غير أن سونالي ديرانياجالا لا تزال حية، وتلتقي بأصدقائها، وعادت للعمل مجدّداً، وتضحك بين الحين والآخر. ولو كان أرسطو حياً لقال إنه من الممكن أن يمر المرء بمصائب يبدو أنها لا تُحتمل ومع ذلك يظل يحاول أن يعيش «حياة طيبة»: «فحتى في المحن، يبرز الخير، فعندما يتحمّل المرء سوء حظ شديد ومتكرّر وبصبر على مُصابه؛ فهذا لا يعود إلى التبلّد وعدم الإحساس وإنما إلى السماحة ونبل الروح». وبهذا المعنى، فإن السعي الأرسطي لتحقيق السعادة مهما كلف الأمر هو نظام أخلاقي متفائل إلى حدّ بعيد.

يقول مثل إغريقي قديم إنه: لا يمكن أن يقال إن شخصاً ما سعيد حتى يموت. كانت هذه مقولة مفضّلة لدى سولون، وهو زعيم أثيني وأحد الحكماء اليونانيين السبعة. زار سولون ذات مرة ملك ليديا صاحب الثراء الفاحش، كرويسوس. كان كرويسوس يريد من سولون المصادقة على

اعتباره أسعد رجل في العالم. لكنه انزعج عندما اختار سولون رجلًا ثانيًا من عامة الناس يسمى تيلوس عاش حياة مديدة، وعاصر جميع أحفاده الذين ظلوا على قيد الحياة بعد وفاته، ومات دفاعًا عن بلده التي يحبها. كان مقصد سولون هو أنه يمكن أن تقع المصائب في أي وقت، وبالتالي فإن مجمل سعادة أي شخص لا يمكن قياسه إلا بعد موته. تحول هذا الأمر إلى نبوءة غريبة؛ حيث قُتل ابن كرويسوس بعد ذلك بفترة قصيرة في حادث، وانتحرت زوجته، وخسر مملكته لصالح الفرس. يذكر أرسطو وصية سولون ويصادق عليها في ما يتعلق بالتفكير في المستقبل وكيفية مواجهة التحديات التي سيأتي بها.

وتُعدّ وصية سولون بالنظر إلى خاتمتها نصيحة خالدة. فلا يهم إذا كنت مرافقًا بدأ للتو التخطيط لحياته، أو موظفًا منهكًا في منتصف العمر، أو متقاعدًا يريد أن يستغل ما تبقى من حياته بأفضل صورة ممكنة. لا أحد منا يريد أن يلاحقه الشعور بالذنب وهو على فراش الموت، أو أن يدرك حينها أن ثمة شيئًا لم ينجزه لأنه ببساطة كان يخشى المحاولة. في العام 2012، نشرت بروني وير -وهي ممرضة رعاية كانت بجوار العديد من الناس خلال أيامهم الأخيرة في الحياة- حكايات مؤثرة عن أكثر الأشياء التي أخبروها أنهم ندموا عليها^[7]. وتتوافق تلك الأشياء بشكل يكاد يكون إعجازيًا مع المخاطر التي ينصحنا أرسطو بتجنبها أثناء سعيها لتحقيق السعادة في حياتنا. يقول الناس حين يوافيهم أجلهم: «ليتني تركت نفسي أصبح أكثر سعادة»، وبذلك يعترفون بأنهم بطريقة ما تركوا فرصة تحقيق الاكتفاء الذاتي واختيار تحقيق السعادة تفلت من بين أيديهم. إنهم يتمنون لو كانوا قد بذلوا المزيد من الجهد في ما يخصّ علاقات الصداقة (أحد أهم المبادئ الأرسطية). غير أن أكثر الأشياء المسببة للندم التي يُعبر عنها مرارًا وتكرارًا، هو: «ليتني امتلكت الشجاعة لأعيش حياتي صادقًا مع نفسي، وليس الحياة التي توقع الآخرون مني عيشها».

الفصل الثاني

القدرة

ما الذي يعنيه حقًا أن تكون «صادقًا مع نفسك»؟ من منظور أرسطو، يعني هذا إدراك قدرتك الكامنة، ولذا فإن الوقت لا يفوت أبدًا على أن تكون «صادقًا مع نفسك». الكلمة الإنجليزية *realise* لها معنيان؛ الأول هو إدراك أمر ما، والثاني هو تحويل أمر ما إلى واقع؛ وفكرة أرسطو تشتمل على المعنيين معًا.

واجه أرسطو مشكلات وإحباطات في أوقات عديدة من حياته الناضجة، ولم يستطع تكريس وقته بالكامل للكتابة وتعليم الفلسفة - أي تحقيق قدرته الكامنة الفريدة من نوعها - حتى شارف على الخمسين من عمره. ولكن لا بد وأنه كان مدركًا ذلك، لأنه سبق وأن تعرّض لتحفيز فكري مستمر على مدار حياته من الميلاد وحتى منتصف الثلاثينات من عمره. فبصفته طبيبًا، استطاع نيقوماخوس - والد أرسطو - تعريف الصبي على الأفكار والمناهج العلمية الأكثر تقدّمًا المعروفة للإغريق. وفي العالم القديم، كان الطب مهنة تُورث، وكان يمكن لأرسطو أن يتّبع خطى والده؛ وظل مقتنعًا طيلة حياته بأن الطب والفلسفة مرتبطان. وربما كان مفهوم القدرة الكامنة موضوعًا ناقشه نيقوماخوس مع ابنه الصغير أثناء مشيهما معًا، وهما يجمعان النباتات الطبيّة في التلال المغطاة بالغابات التي تمتد من بلدة استاجيرا إلى داخل أراضي مقاطعة خالكيديكى. ربما يكون الموضوع قد أثّر عندما سأل نيقوماخوس، كما يفعل الآباء: «ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟».

كذلك فإن أسلاف أرسطو منحوه سمعة عائلية تعيّن عليه الحفاظ عليها. كان نيقوماخوس واحدًا من سلالة طويلة من الأطباء، كانوا يدعون أنهم من نسل ماخاون، الذي كان أحد معالجي الإغريق الأسطوريين في طروادة. وقد كان ماخاون ابن أسكليبيوس، إله الطب بنفسه؛ وكان أسكليبيوس قد حصل على أعشاب طبية خاصة من خيرون، الطبيب القنطور الأول ذاته. كما ألّف والد أرسطو ستة كتب عن الطب وواحدًا في الفلسفة الطبيعية، ضاربًا مثالًا لابنه الذكي.

أمكن لمواهب أرسطو الطبيعية الهائلة -التي لاحظها في ما يبدو من اهتموا به من البالغين عندما كان صغيرًا- أن تتطوّر وتزدهر. وقد أمكن، في هذه الظروف، تحقيق قدرته على أن يصبح أبرز فيلسوف وعالم في جيله، وربما في تاريخ العالم، على حدّ قول البعض. وفي غالب الأوقات آنذاك، كما هو الحال الآن، كانت قدرات العديد من الناس تضيق هباءً. إن خلق السعادة يعني في المقام الأول قضاء حياتنا قادرين على القيام بأفضل ما يمكننا القيام به والاستمتاع به.

ومن بين كل مفاهيم أرسطو الرئيسية، والتي يستخدم معظمها في أعماله الفلسفية والعلمية، كان أكثرها إلهامًا هو «القدرة». فوفقًا لأرسطو، كل شيء في الكون له غرض هو موجود من أجله؛ فحتى جماد مثل طاولة له غرض، وهو أن يجلس الناس إليها في مكان ما ويضعون أشياءهم فوقها. لكن الكائنات الحيّة تمتلك قدرة من نوع آخر تسمى ديناميس *dynamis*، وهي تعني أن تتطوّر إلى النسخة الناضجة مما هي عليه: فالحبّة أو الجوزة تمتلك القدرة على التحول إلى نبتة أو شجرة؛ والبيضة -إذا خُصّبت- تمتلك «القدرة» على التحول إلى ديك أو دجاجة. وفي حالة الحيوانات (بما في ذلك البشر)، فإن فكرة أرسطو عن هذه القدرة تنبأ على نحو غريب بمفاهيمنا الحديثة عن التشفير الجيني والحمض النووي، وقد أقرّ علماء الأحياء والجينات في العصر الحديث

بهذا؛ فقرون الحيوان تنتج عن تفاعل الشكل والمادة داخل الحيوان الذي كان دائماً يملك «قدرة» فطرية مبرمجة داخله على إنتاج القرون. وهذه القرون لها غاية محدّدة، وهي دفاع الحيوان عن ذاته.

وترتبط فكرة امتلاك القدرة، عند أرسطو، بواحد من أشهر مبادئه؛ وهو أن كل شيء له أربع علل جوهرية. فالتمثال -على سبيل المثال- له: (1)- علة مادية (الحجارة التي صُنِع منها)، (2)- وعلة فاعلية (النحات الذي ينحته)، (3)- وعلة شكلية (التصميم والشكل الدقيقان للتمثال اللذان ينفذهما النحات)، (4)- وعلة غائية، وهو سبب وهدف وجوده (أن يوضع في معبد ويتلقّى القرايين المقدّمة له مثلاً). والقدرة، لدى البشر، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعلة النهائية، التي تفسّر سبب وهدف وجودك. (1) العلة المادية للبشر: هي المادة العضوية -الدم واللحم والعظام- وهي التي خلقنا منها. (2) العلة الفاعلية: هي الأبوان اللذان أنجباك. (3) العلة الشكلية: هي الحمض النووي الذي يحدّد تكوينك الجيني، ومظهرك، وبنيتك الجسدية. و(4) العلة الوحيدة التي يمكنك التحكم فيها هي العلة الغائية: وهي السبب والهدف من وجودك. وربما يؤدي الالتزام الشامل بتحقيق القدرة البشرية بالكامل، طبقاً للفكر الأرسطي، إلى حل المشكلات التي يواجهها البشر اليوم.

والكلمة التي يستخدمها أرسطو للتعبير عن القدرة وامتلاكها هي كلمة *dynamis*، ومنها تُشتق من كلمة *dynamic* التي تعني ديناميكي. في البداية أطلق المخترع السويدي ألفرد نوبل على اختراعه الجديد الثوري المتفجر اسم «مسحوق نوبل المتفجر»، لكنه كان يفكر في الكلمة اليونانية القديمة عندما غيره إلى ديناميت *dynamite*. ومع الأسف فهذا هو السبب في أن الكلمة مرتبطة بالتدمير المفاجئ بدلاً من التطوّر الذاتي البناء طويل الأمد. فمنذ أوائل أعمال الشعر الإغريقي كانت كلمة *dynamis* تعني القوة، أو القدرة على فعل شيء ما. استخدم الأطباء والعلماء المصطلح

بالفعل لتفسير الحركة والتغير. ولكن لم يحدث حتى عهد أرسطو نقاشٌ ممنهجٌ للمصطلح في ما يتعلّق بالبشر وتجاربهم في الحياة.

يفسّر أرسطو ما يعنيه بكلمة *dynamis* في المجلد التاسع من رسالته المسماة «ما وراء الطبيعة» أو «الميتافيزيقا» *Metaphysics*. يمكن للمرء امتلاك القدرة على التنفّس أو النضج أو المشي. ويمكن للنباتات، والحيوانات، والبشر أداء هذا النوع من القدرة لا إرادياً. لكن، ثمة نوعٌ خاصٌّ وأسمى من القدرة يسميه أرسطو «القدرة المنطقية». فالبشر وحدهم يملكون هذه القدرة، التي لا يمكن تحقيقها من دون فكرٍ واعٍ. فالشخص الذي يعمل طبيباً ماهراً وُلِدَ بالقدرة الفكرية على تعلم المعرفة الطبية. وبمجرد إنهاء تدريبه، يمتلك الطبيب القدرة على معالجة المرضى. لكنه يستطيع أن يقرر ألا يعالج المرضى، أو أن يعالجهم على نحو يضرّهم بدلاً من أن ينفعهم. الفعل الواعي -التفكير- الذي يُطبق عن عمد بهدف شفاء المريض هو وحده ما سيجعل قدرة الطبيب على الشفاء أمراً واقعاً. يحتاج الطبيب إلى أن يقرر مساعدة المريض على أن يتمثّل للشفاء، ويحتاج كذلك إلى أن يفكر ملياً في العلاجات التي يَرَجَحُ أن تحقّق هذا الهدف. يتطلّب الأمر هذه الأشياء الأربعة لكي تكون طبيباً ماهراً: القدرة، والتدريب، والقصد (النّية)، والتفكير المنطقي. وكذلك يتطلّب الأمر الأشياء ذاتها لكي تصبح شخصاً صالحاً وسعيداً.

حتى الجماد يتطلّب في الغالب مجموعة من العناصر ليحقّق غايته، وتساهم في هذا نشاطات مختلفة. يوضح أرسطو هذا بمثال بناء معبد. لكي يحقق المعبد الغاية *telos* المناسبة له كمنى متكامل ومزخرف بالكامل، يلزم وضع أساسات، وتحضير قوالب الحجارة وتوفيقها معاً، ويلزم حفر الأخاديد في الأعمدة ونحت أفاريز الزينة. ولكنّ أيّاً من هذه الأمور لن يؤدي وحده إلى إقامة معبد كامل. فالجمع الفعلي لهيكل المعبد بالكامل، على الأساسات، ومن قوالب الحجارة، والأعمدة المخدّدة

والأجزاء الزخرفية، هو أمر أهم بكثير. ولا يمكن تنفيذ المبنى بالكامل على أرض الواقع إلا عندما تحدث كل من هذه العمليات المنفصلة. وبالمثل، فإن الإنسان يجب أن يتكوّن في رحم المرأة ليولد ثم يأتي دور التغذية، والحماية، والمأوى، والحنان، والتحفيز، والتعليم. ومن أجل أن يصل الطفل إلى قدرته الكاملة، يحتاج إلى تحديد مواهبه وما يجعله سعيدًا (وهو ما ينظر إليه أرسطو على أنه الشيء نفسه)، وتحقيق هذا على أرض الواقع من خلال تدريب متخصص. شعرت هيلين كيلر -التي استخدمت قدرتها الاستثنائية بصفتها مدافعة عن مجتمع العمّوقين- أنها اكتشفت مصدر السعادة الحقيقية، إذ تقول: «السعادة لا تتحقّق من إشباع رغبات الذات، بل من الالتزام بتحقيق هدف ذي قيمة». لكن لو لم يبدل والداها، والأطباء، وكذلك مدرّبتها آن سوليفان، قصارى جهدهم لمساعدتها، كان صمّم وعمى هيلين سيجعلان من المستحيل عليها تمييز وتعزيز فكرها، وعاطفتها، وطاقاتها. ومن ناحية أخرى، في غياب القدرة، لا يمكن لأي قدر من التدريب، أو القصد، أو التفكير المنطقي أن يسفر عن النجاح. لذا لا يوجد ما هو أهم من اكتشاف ما يجيده كل فرد. ومن المحزن أنه من الممكن جدًّا ألا يحدث أبدًا تحقيق قدرة تحتاج لإدراك عقلائي.

في كتابه «جيل من الحيوانات» *Generation of Animals*، يحاول أرسطو تفسير كيف تكتسب المادة الخام، التي يُخلَق منها حيوان جديد، شكلها. يعتقد أرسطو -مخطئًا- أن تلك المادة هي دم الحيض في جسد الأم، وأن المنى الخاص بالذكر يعطيها الشكل المحتمل لها. وليس رأيه واضحًا في ما يتعلّق بالدور المتساوي كمّيًّا الذي يلعبه الذكر والأنثى في الوراثة الجينية. لكن تلك ليست النقطة المهمة. لقد أدرك أرسطو أن كل الكائنات الحيّة في حالة من التطوّر والتغيّر المستمرّ. وكان يرى أن بعض التغيّرات تستغرق شهرًا أو سنوات، رغم أنها بدأت تحدث في الأساس بشكلٍ حتميٍّ بمجرد حدوث الحمل. أدرك أرسطو التأثير المؤجّل

للشكل أو «الشفرة» وهو ما شعر بأنه مُنح للحيوان حديث التكوين في بداية الحمل. وفي ما يتعلّق بالبشر، كان أرسطو يعتقد بأن الفترة التي تمر بين الحمل وبين تحوّل الجنين إلى ذكر ناضج نضجاً جسدياً كاملاً هي على الأقل ثلاثون عاماً؛ وفي ما يتعلّق بالفكر، كان يعتقد بأن الإنسان لا يدرك قدرته الكاملة حتى يكتسب الكثير من الخبرة ويتعلّم العديد من الدروس المختلفة، في عمر التاسعة والأربعين (وأرسطو دقيق بشكل غريب في تحديد هذه السن).

استخدم أرسطو الفكرتين المرتبطتين: القدرة *dynamis* وتحقيق تلك القدرة على أرض الواقع (وهو ما يسميه أرسطو *energeia*) في أعماله التي تتراوح موضوعاتها ما بين الأخلاقيات، والفيزياء، والميتافيزيقا، وعلم النفس، والمعرفة. وفي حالتك المحددة، تعني القدرة مجموعة المواهب، والصفات، والقدرات الفطرية، التي وهبتك إياها الطبيعة. فإذا كنت شخصاً ناضجاً، فإنك وحدك من يمكنه تقدير هذه القدرات حقاً، بناءً على رغباتك وتجاربك، ربما من خلال نقاش مع أصدقاء مخلصين أو مع مستشارين ناصحين. والجرأة على تحديد الأحلام أو الطموحات الجامحة - التي يسميها الآخرون ضرباً من الجنون - هي أمرٌ ضروري؛ فالقليل من الناس هم من يندمون وهم على فراش الموت لأنهم حاولوا تحقيق حلم حياتهم، لكنّ كثيرين بالتأكيد يندمون على عدم المحاولة.

ومن واجبنا جميعاً مساعدة الشباب على التعرف على قدراتهم وتحقيقها على أرض الواقع؛ وربما أن الآباء ومن يشتغلون بالتدريس أو الرعاية يفعلون ذلك الأمر طيلة الوقت. فبعض القدرات تتحقّق بشكل حتمي ولا يوقفها شيء؛ بينما تحتاج قدرات أخرى للظروف المناسبة. يحتاج الإنسان إلى أن يكون في الظروف المناسبة لقدراته. هذا يعني أنه يحتاج لأن يكون في ظروف تسمح لتلك القدرات بنيل الدعم والتصرّف على أساسها بواسطة ظروف وعوامل خارجية. فإذا لم يحصل الصغير

على التغذية، والحنان، والتعليم، فإنه سيعاني من سوء التغذية، والضرر النفسي، والأمية. إننا نعرف الآن أن الجزء «العقلاني» من الدماغ البشري -الفص الجبهي- لا يعمل بشكل كامل حتى منتصف العشرينات من العمر، وهو ما يعني أننا نحتاج للاستمرار في دعم الشباب لمدة طويلة بعد أن يصبحوا بالغين قانونيًا، وغالبًا لسنوات بعد انتهاء مراحل تعليمهم الرسمي. وبعبارة أخرى، يمكن تنشئة البشر ورعايتهم بطرق تسمح لهم بتحقيق كل ما يمتلكون القدرة على فعله، لكن يمكن لقدراتهم أن تتوقف عن النمو أو ألا تتحقق.

إذا اعتقنا مفهوم القدرة لدى أرسطو ضمن واحد من الأطر التي كان يجدها مشوّقة لأقصى درجة -القدرة الفكرية- ستذكر أنه يمكن للقدرة أن تتحقق أو لا تتحقق اعتمادًا على ما إذا كانت الظروف مناسبة أم لا. وعلاوة على ذلك، فإنها لن تتطابق في النوع أو القدر لدى كل إنسان. يتشارك البشر -بصفتهم نوعًا من الكائنات- أنواعًا معينة من القدرات، لكن أرسطو رأى أن ثمة فئات مختلفة من البشر تمتلك أنواعًا ومستويات مختلفة منها. لذا، على سبيل المثال، يكون الأطفال غير قادرين بعد على التفكير المتدبر، لكنهم يتمتعون تمتعًا كاملاً بالقدرة عليه. ويمكننا أن نكون متأكدين من أن رأي أرسطو لم يتغير بشأن أن البشر كأفراد لديهم كذلك قدرات مختلفة؛ وبالفعل يمكننا أن نراه في كتاب «جيل من الحيوانات» يحاول معرفة القدر الذي يحصل عليه كل جنين من أحد الأبوين، والذي يجعل الإنسان المحتمل قدومه للحياة متفردًا عن بقية البشر. ما الذي يجعل أرسطو أشبه بأبيه نيقوماخوس عن الآباء الآخرين في بلدة استاجيرا في شمال اليونان؟ وكم من قدراته تحدّد بواسطة شفرة «النوع الحيوي» التي ستسمح للجنين بأن ينمو ليصبح إنسانًا -من نوع الإنسان العاقل - مثل أي إنسان آخر؟

هل حددت قدراتك الفريدة وحققتها على أرض الواقع؟ هل كنت تتوق لأن تنجز شيئاً ما في حياتك ولم تلق الدعم لتطوير موهبتك أو ميلك الطبيعي؟ هل أردت أن تصبح رسّاماً، أو سياسياً، أو كبير طهارة؟ لم يبدأ أرسطو في العمل حقاً على تحقيق ما يريد حتى بلغ الخمسين من العمر؛ لذا من المؤكد تقريباً أنه لا يزال أمامك الوقت الكافي! لكن التفكير طويل الأمد أمر ضروري في أي مرحلة عمرية. فطبقاً للفكر الأرسطي، السعادة تعني تحديد ما تريد القيام به، ولماذا، ثم وضع وتنفيذ خطة لتحقيقه.

يستهل أرسطو أهم أعماله عن الأخلاق، كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، بالتأكيد على أن كل ما نفعله له هدف إيجابي، وهو ما يسميه «الخير». ففي الطب، الخير هو الصحة؛ وفي بناء السفن، الخير هو السفينة؛ وفي ما يتعلق بميزانية العائلة، الخير هو الازدهار المالي. يمكن لكل فرد أن يحدّد بنفسه الأهداف المفيدة الخيرة التي يودّ تحقيقها، ثم يكتسب المهارات، والظروف، والشركاء الذين يمكنهم جعل تحقيق هذا الهدف ممكناً. وترد أكثر المقولات إيجازاً وبلاغةً عن الحاجة للعثور لذاتك على غاية في الحياة في كتاب «أخلاقيات يوديميان»:

ينبغي على كل من يقدر أن يعيش وفق اختياره الهادف أن يضع أمامه هدفاً ما [skopos] يسعى لتحقيقه من خلال عيشه حياة طيبة - وقد يكون الهدف هو تحقيق الشهرة، أو الوجاهة، أو الثروة، أو العلم - وأن يبقيه أمام ناظريه في كل شيء يفعل. ومن علامات الحماسة بلا شك ألا تضع نظاماً في حياتك في ما يتعلق بأن يكون لك غاية [telos].

حياة بلا تخطيط هي بكل تأكيد حياة لا تستحق أن تُعاش. في كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، يُجري أرسطو مقارنةً مذهشة.

ففي مناقشته لما يجعل الأشياء الطيبة طيبة، يُستخدم أرسطو - كما يفعل في أكثر الاحوال - تشبيهًا مأخوذًا من الفنون البصرية. فيقترح أن المناقشة يمكن أن تبدأ بوصف «الخطوط الرئيسية» لما هو طيب، «برسم لوحة مبدئية و[ملئها] لاحقًا. فإذا وضعت الخطوط الرئيسية للوحة بشكل مناسب، فسيكون تنفيذها وإكمالها بالتفصيل في إمكان أي شخص». وبعض التفاصيل لا يمكن معرفتها إلا بمرور الزمن. يمكننا نقل هذه الصورة إلى عملية التفكير في الأهداف الحياتية. تحتاج الأشياء المهمة حقًا التي نحتاج لتحقيقها فقط إلى أن تكون حاضرة في أذهاننا بشكل مبدئي؛ أما التفاصيل فيمكن ملؤها لاحقًا مع مرور الوقت، تمامًا مثل اللوحة.

في حالتي أردتُ شريكًا في الحياة يحبني وأن ننجب أطفالًا ونربّيهم معًا. لكنني أيضًا أردتُ، بجانب تجنب الملل (دائمًا ما كنت أدرك أن هذا يتطلب مني قدرًا لا بأس به من التحفيز العقلي)، أن أترك العالم مكانًا أفضل مما وجدته عليه. لم يبدأ الجزء الأول من المخطط الرئيسي (الزوج والأولاد) في التحقق بشكل ناجح حتى وصلت إلى منتصف الثلاثينيات من العمر، ويرجع ذلك في الأساس إلى أنني لم أكن أعي كيف أتعرف على شريك حياة له أهداف مماثلة في الحياة، وظللت أواعد رجالًا وسيمين لا يُعتمد عليهم، وأشخاصًا بلا أخلاق. كذلك تطلب الأمر كثيرًا من الوقت للتوصل حتى إلى كيفية إكمال الجزء الثاني من المخطط الرئيسي (فعل شيء مثير ومثير للاهتمام). ولكن بعد ذلك، في أواخر العشرينيات من عمري، ساعدتني مرشدة حكيمة - كانت محاضرة في الأدب الإنجليزي تُدعى مارجو هاينمان - أسدتني أكبر معروف في حياتي خلال محادثة رسمية جدًا؛ إذ قيّمت قدراتي. أوضحت لي مارجو أن مميّزاتي الوحيدة كانت رخصة قيادة بلا مخالفات، ودماغًا تحليليًا، ومهارات تواصل، ومؤهلات دراسية في الحضارتين اليونانية والرومانية.

وَتَعَيَّنَ عَلَيَّ معرفة كيف أساهم في المشروع البشري بتسخير هذه المميزات. وهكذا في سن الحادية والثلاثين، وهي سن متأخرة مقارنةً بمعظم الأكاديميين، حصلت على الدكتوراه، وأول وظيفة جامعية لي، ومجموعة مترابطة على نحو منطقي من الأحلام التي لم تتحقق. قرّرت الاستعانة بالرومان والإغريق بقدر استطاعتي لزيادة «فوائد» التنوير، والترفيه، والتطوّر الاجتماعي الجمعي.

إن أعظم هدية يمكنك منحها لشخص، هي مساعدته في التعرّف على قدراته وتوفير الظروف المناسبة لتطويرها. يوجد عدد كبير من الأطفال حول العالم ممن لن يحققوا إمكاناتهم أبدًا لأنهم فقراء، أو لا يذهبون إلى المدارس، أو يُجبرون على العمل في سن صغيرة. لكن توجد أيضًا أعدادٌ كبيرة من الأطفال، حتى في البلاد الغنية ممن تلقوا التعليم الجيّد، لن يحققوا إمكاناتهم أيضًا. ويرجع هذا إما إلى أنهم يتعرّضون لتعليم مكثّف زائد عن طاقتهم ويقعون تحت ضغط مستمرّ في مرحلة مبكرة للغاية (هل تذكرون القشرة الأمامية من الدماغ التي تظل ناقصة النمو حتى سن الخامسة والعشرين؟) أو لأنه لا يوجد من يساعدهم. كل طفل يجيد القيام بشيء ما، وعادةً ما يستمتع بما يجيد فعله. المتعة تعني أنه بمجرد تمييز الموهبة، يمكن أن تكون دليلًا مفيدًا لأي نوع من العمل أو الوظيفة يمكن اختياره. إن تعريض طفلك للكثير من المحفزات والأنشطة المختلفة في الوقت نفسه الذي تراقب فيه ظهور علامات الاستجابة الحماسية ليس أمرًا صعبًا للغاية. لكن من المدهش أن قلة من الآباء يساعدون أبناءهم على تحديد موهبتهم الطبيعية.

في دوائر معارفي من الأصدقاء وزملاء العمل -الذين يكونون غالبًا من أصحاب الشهادات العلمية الكبيرة، من الفئات الثريّة،- يوجد كثيرون جدًّا من الآباء الذين يفرضون رؤيتهم عن أسلوب الحياة المثالي، أو الوظيفة المثالية، على أبنائهم. أحدهم كان يتخيّل -من دون أي دليل- أن ابنه ذو الثلاثة أعوام مقدّرٌ له أن يصبح من بين أفضل عازفي البيانو في

العالم (بعد عشر سنوات رفض ابنه حتى التدريب على عزف البيانو مرة أخرى). وما كان الصبي يحب القيام به فعلاً - بحسب ما بدا لي - هو الطبخ والتخميم والاستكشاف. واحدة أخرى من معارفي تجاهلت شغف ابنتها بالهندسة وأجبرتها على دراسة مواد أدبية في المدرسة والجامعة؛ فانتهى بها الحال إلى الإحباط والمرارة، لكنها على الأقل تحاول أن تصلح الأمور الآن، إذ أصبحت تعمل في السباكة.

عند وضع خطة، يكون أهم مبدأ هو المتعة. وينظر أرسطو للمتعة باعتبارها أداة رائعة للتحليل العلمي، والاجتماعي، والنفسي من أي نوع. يرجع هذا إلى أنه يؤمن بأن الطبيعة تستخدم المتعة لمساعدة جميع الحيوانات الواعية في أن تعثر على ما تحتاجه لتزدهر وتفعله. تملك الحيوانات طرقاً مختلفة بعض الشيء للاستمتاع؛ فالحمير تحب أكل التبن، بينما تحب الكلاب اصطياد الطرائد من الطيور والثدييات الصغيرة. أما البشر فهم استثنائيون لأنهم يظهرون تنوعاً كبيراً في المتع، وهذا التنوع موزع بين الناس. ما يحبه شخص قد يكرهه آخر.

يقول أرسطو إن الأعمال التي تمنح المتعة هي التي يجب أن نستهدفها جميعاً:

الحياة هي نوع من النشاط، وكل شخص يمارس نشاطاً خاصاً به بناءً على الأشياء، وبواسطة القدرات والمهارات، التي يحبها أكثر من غيرها؛ فعلى سبيل المثال، يستخدم الموسيقي حاسة السمع لسماع الألحان الموسيقية، بينما يستخدم الطالب فكره في حل المشكلات الفلسفية؛ وهكذا. وتؤدي المتعة المستمدة من هذه الأنشطة إلى تحسين تلك الأنشطة، ومن ثمّ تحسّن حياة كل منا، وهو ما يسعى إليه كل إنسان. لذا لدى البشر سبب وجيه للسعي وراء المتعة، إذ إنها تُحسّن حياة كل شخص، وهو أمرٌ مرغوب فيه.

لاحظ أرسطو أن من يستمدّون المتعة من عملهم هم غالبًا الأفضل دائماً في إنجازهم. يقول إن فقط من يستمتعون بالهندسة هم من يصبحون بارعين فيها، والأمر نفسه ينطبق على العمارة وكل الفنون الأخرى.

تتطلب بعض المواهب الفطرية تدريباً أكثر من غيرها. فلا أحد يولد وهو يمتلك معرفةً شاملةً في الهندسة، أو الموسيقى، أو العمارة. فعلى سبيل المثال، في كتابه «الخطابة» *Rhetoric*، يقول أرسطو إن التمثيل المسرحي هو إلى حد كبير موهبة طبيعية ولا يتأثر كثيراً بالتدريب مثل بعض المهن الأخرى. لكن عندما يتعلق الأمر بالقدرة على أن تكون بارعاً في جعل خطبك أو كتاباتك مفعمة بالحياة باقتباس مقولات كتاب سابقين، وحكم ومقولات سابقة، قد يأتي النجاح إما عن طريق الموهبة الطبيعية، أو عن طريق الدراسة الشاقة للأدب (أو كلاهما). وربما يُعتبر هذا المثال الأخير هو الأكثر تمثيلاً لأكثر الوظائف التي يقوم بها الناس اليوم. فقد تكون ذا موهبة فطرية في التواصل وتحليل الحقائق، لكن فقط التدريب الشاق هو ما سيجعلك محامياً عظيماً. ومن المؤكد أنك تحتاج لكل من الموهبة الطبيعية وتطبيق ما تعلمته إذا كنت تريد أن تصبح شخصاً متفرداً - يسميه أرسطو «رجلاً حكيماً» *Sophos* - في مجالك مهما كان متواضعاً. ويضرب أرسطو مثلاً بعازف القيثارة، وتذكروا أنه في القرن الرابع قبل الميلاد، لم يكن عازفو الموسيقى المحترفون يحظون مطلقاً بالاحترام والمكانة الاجتماعية العالية التي يحظون بها اليوم. لكنه مع ذلك يؤكد أن بوسع عازف القيثارة أن يقرّر بمحض إرادته ما إذا كان سيتدرّب أم لا لكي يصبح عازف قيثارة ماهر.

السركمن في معرفة ما تحب القيام به وتمتلك القدرة على إنجازهم، ثم الالتزام به. قد يبدو قول هذا أسهل من فعله. لكنك على الأقل، باعتبارك بشراً وليس شجرة دردار أو غزال، يمكنك أن تختار اختياراً واعياً. يذكر أرسطو كذلك النحاتين الشهيرين بوليكليتوس وفيدياس،

الذين صنعوا تماثيل الإلهة أثينا الشهير لمعبد بارثينون في الأكروبول بأثينا. كان النحاتان قد أصبحا بارزين في مجال محدّد بفضل الموهبة الطبيعية إلى جانب العمل المستمر. لكن أرسطو يقر بأن بعض الناس متعدّدو المواهب بشكل كبير وأن هباتهم الفطرية تتيح لهم أن يجربوا الكثير من النشاطات المختلفة. (ومع الأسف يوجد أيضًا القليل ممن يكادون لا يمتلكون أي موهبة على الإطلاق، أو يفشلون في العثور على ما يناسبهم حقًا القيام به. يقتبس أرسطو قصيدة ملحمة هزلية وهي «المارجيتيس» Margites ليوضح مقصده. يحكي الشاعر في القصيدة عن رجل فقير «لم تجعله الآلهة عاملاً ولا مزارعاً، كما أنه لم يكن حكيماً كذلك». (ومن غير المحتمل أن يكون أي شخص ممن اختاروا أن يقرأوا هذا الكتاب على هذا القدر من الحماسة).

بعض المهن مليئة بالتحديات أو المنافسة، وربما تمرّ أوقات تحتاج فيها لكسب الرزق من عمل لا تستمتع به بسبب وجود من تعولهم. لكن المبدأ العام هو أنك تختار العمل الذي تقوم به، ولذلك فإن فائدة التدريب الذي يتطلّبه هذا -بحسب النشاط الذي يجعلك في غاية السعادة- لا يمكن التشكيك فيها. فإذا كنت مضطراً للعمل في وظيفة تكرهها ولها متطلبات كثيرة، حتى لو كانت لديك عائلة تعولها، فإنك ستُحسّن صنعاً بأن تستعرض على الفور كل الخيارات المتاحة. سيفضل معظم الأطفال أن يكون أحد أبويهم يعمل في متجر محلي وأن يكون متواجداً في المنزل معظم الوقت من أجلهم، على أن يحصلوا على دخل عائلة من الطبقة المتوسطة في أي وقت. لي صديق فيزيائي لامع رفض وظيفة أكاديمية لأنها كانت تعني الانتقال إلى قارة أخرى بعيداً عن طفله. وبدلاً من ذلك، عمل كموظف يرتّب البضائع على أرفف أحد المتاجر الكبرى، وهي وظيفة تتيح له التفكير أثناء القيام بذلك. وعلى أي حال فإن العائلة سعيدة وهو ينشر أبحاثه بصفته باحثاً مستقلاً. يمنحك أرسطو نفسه ذلك الإذن

إذا كان عملك في الحقيقة يجعلك تعاني؛ حيث يقول: «إذا كان شخص ما يجد الكتابة، أو القيام بالحسابات، أمرًا مزعجًا ومثيرًا للسأم، فيمكنه أن يتوقف عن القيام بهما لأن هذا النشاط مؤلم بالنسبة له».

ثمة نزعة مثالية في فكر أرسطو. وكان هذا سببًا جعل الفيلسوف البريطاني توماس مور يكتب ذات مرة قائلاً إن أرسطو هو الفيلسوف الذي «أحبه أكثر من كثيرين آخرين». في كتابه «يوتوبيا» (1516) *Utopia* يقول مور إن مسافره ذا الآراء الراديكالية، رفايل هيثلودايوس، أخذ معه العديد من كتب أرسطو في رحلته الاستكشافية. وقد أعيد مؤخرًا تصنيف أرسطو بوصفه ينتمي لتصنيف المفكر المثالي، لأن أعماله عن الأخلاق والسياسة تفترض أن الهدف من الحياة البشرية هو خلق ظروف يمكن للبشر فيها الازدهار، وتحقيق إمكاناتهم بشكل كامل وأن يكونوا سعداء. كذلك تخيل عالمًا يمكن للآلات فيه أن تتولى معظم الأعمال اليدوية لكي يتفرغ البشر أكثر لحياة التأمل. واليوم، ورغم وجود أجهزة الكمبيوتر، والطاقتين النووية والبخارية، ومحركات الاحتراق الداخلي، والآلات، والروبوتات، فإن الجنس البشري لا يزال بعيدًا تمامًا عن استغلال قدراته الفكرية. يوجد مليارات من البشر ممن لا يمرون بمواقف تتيح لهم تحقيق قدراتهم العقلية من خلال التعليم. والتحديات البيئية والسياسية التي تواجه البشر اليوم أشد من أي وقت مضى، ومع ذلك فإننا لا نقوم على الإطلاق بتغذية ورعاية جميع القوى الفكرية والذهنية التي مُنحت لنا.

وعلى عكس معلمه أفلاطون، الذي يميل أكثر للنخبة، والذي كان يشكك في ذكاء الفقراء والطبقات العاملة، فإن أرسطو يؤكد مرارًا وتكرارًا على أن أفضل الخبراء في ما يخص أي ميدان هم على الأرجح أصحاب المنطق السليم الذين يملكون خبرات تراكمية في ذلك الميدان، مهما كانت مكانتهم الاجتماعية متدنية. وفي كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، يقر بأن من يملكون خبرة عملية مباشرة بأي نشاط ربما

يكونون أكثر فائدة ممن درسوا مبادئه النظرية الأساسية. ويشير أرسطو إلى أنه كان يوجد خبراء تغذية في اليونان القديمة لم يذهبوا أبدًا للسوق أو يمارسوا الطبخ. يقول: «إذا كان شخص ما يعرف أن اللحم الطري يُهضم بسهولة، ولذلك فهو صحي ومفيد، لكنه لا يعرف أي أنواع اللحم طرية، فإنه من غير المحتمل أن يجعلك في حالة صحية جيدة». سيكون الطباخ - وليس دارس علوم التغذية - هو على الأرجح من يعرف الفرق بين لحم الخنزير ولحم الدجاج. وفي كتابه «تاريخ الحيوانات» *history of animals*، يصف أرسطو «الصيادين المخضرمين» الذين رأوا، بل صادوا حتى المخلوقات الغريبة - السوداء التي تشبه العصي، والحمراء التي تشبه الدروع - وهو كان يود - بصفته عالم حيوان - أن يكون قادرًا على تصنيفها، لكنه - للأسف - لا يستطيع ذلك، لأن مشاهداته كانت نادرة للغاية.

والثقة التي شعر بها أرسطو في المنطق السليم العام لدى البشر مكنته من العثور على لغة يمكنه من خلالها التعبير عن نموذج المبدئي للفكرة الحديثة التي تخصّ «الجماهير الذكية»؛ وهي مجموعة من الناس تستخدم ذكاءً موزعًا بشكل عام - بدلًا من التصرف بالأسلوب الأخرق الذي غالبًا ما يرتبط بالغوغاء - للتصرف بأقصى درجة من الفعالية والكفاءة. وهذه الفكرة، التي قدّمها هوارد راينجولد العام 2003 في كتابه «الجماهير الذكية: الثورة الاجتماعية القادمة» *Smart Mobs: The Next Social Revolution*، برزت من ملاحظات للجماعات الحديثة من البشر التي يمكن أن ترسل المعلومات وتلقاها من خلال تحقيق قدرة الذكاء الجمعي. ومن المؤكد أن أرسطو صاغ فكرة كانت هي أصل فكرة الذكاء الجمعي في المجلد الثالث من كتابه «السياسة» *Politics*:

لأنه يمكن للكثرة عندما يجتمعون معًا أن يكونوا أفضل جماعيًا وليس فرديًا - رغم أنهم منفردون ليسوا أشخاصًا صالحين - من أولئك الذين

يكونون جيدين كأفراد، مثلما تكون مآدب العشاء العامة التي يساهم فيها الكثيرون أفضل من تلك التي يتكفل شخص واحد بتجهيزها؛ لأنه عندما يوجد الكثيرون من الناس، يمكن القول إن كل فرد منهم يسهم بما يملك من الفضيلة والحكمة. وعندما يجتمعون -تمامًا مثلما يصبح الكثرة رجلًا واحدًا له أقدام كثيرة وأيادٍ كثيرة وحواسٌ كثيرة- كذلك أيضًا تصبح الكثرة شخصية واحدة في ما يتعلق بالقدرات الفكرية والأخلاقية. ولهذا السبب فإن العامة أفضل في الحكم على الموسيقى وأعمال الشعراء، لأن أناسًا مختلفين يمكنهم الحكم على أجزاء مختلفة من الأداء، فيحكمون على جميع مكوناته.

وببساطة شديدة، هو يقول إن ذكاءنا الجمعي أعظم بكثير من مجموع أجزائه.

ترد بعض أكثر أقوال أرسطو إلهامًا عن القدرة البشرية في كتابه «الميتافيزيقا» *Metaphysics*، الذي يبدأ بالعبارة الشهيرة: «كل البشر يتوقون بالفطرة إلى المعرفة». وبعد ذلك، يُعرّف أرسطو الفلسفة -وهي التعجب وطرح سؤال «لماذا» عن الكون- بأنها أمر مميز للبشر ومثير إلى حد هائل. وجزء من هذه الإثارة يرجع إلى أن الفلسفة ليست نشاطًا مثمرًا على نحو مباشر؛ فهي لا تقود لتحقيق إثراء مادي من أي نوع. يصف أرسطو كيف كون هذا الرأي «من خلال النظر للفلاسفة الأوائل. فمن خلال التساؤل، بدأ البشر الأوائل في الأساس -وهكذا يبدأون الآن- في ممارسة الفلسفة؛ أي التساؤل في المقام الأول بشأن الأمور المثيرة للحيرة على نحو واضح، ثم من خلال التطور التدريجي يطرحون الأسئلة عن الأمور الكبرى كذلك، مثل التغيرات التي تحدث للقمر والشمس والنجوم وأصل الكون». يقول أرسطو إن البشر الأوائل لجأوا للأسطورة لتفسير هذه الأمور (يشير أرسطو إلى أسطورة الخلق التي ذكرها هيسود في قصيدته «ثيوجونيا» أو «أنساب الآلهة» *Theogony*)،

وهكذا كانوا فلاسفة، بطريقة ما. لقد تعجبوا من أسرار الكون، وشعروا بجهلهم، وحاولوا معرفة الإجابات.

يدرك أرسطو أن الفلسفة والعلم ظهرا قبل ميلاده بمائتي عام، وأنه في البداية كانت ممارسة «التساؤل» بشأن الأمور المحيرة نوعاً من التسلية. لا يمكن أن يبدأ هذا بالفعل إلا في مكان وزمان كان لدى الناس فيهما ما يكفي من الطعام والوقت للتفكير الترويجي. كانت الضرورات العملية للحياة قد توفرت بالفعل. ويقول أرسطو إن طرح سؤال «لماذا» هو نزعة فطرية لدى البشر، لكنها نزعة تحتاج إلى وقت، وعلاوة على ذلك، تحتاج إلى إشباع الحاجات المادية التي تخلقها ضغوط البقاء على قيد الحياة.

والكلمة التي يستخدمها أرسطو للتساؤل بشأن العالم هي كلمة *theoria* والتي اشتقت منها كلمة *theory* الإنجليزية، التي تعني «نظرية». ولو أنه لا بد من نقش مقولة واحدة من أعمال أرسطو على شاهد قبره، فينبغي أن تكون هذه المقولة هي: «نحن نملك القدرة على التنظير بشأن العالم». غير أن فكرة أرسطو عن القدرة البشرية على التفكير نادراً ما تناقش حالياً. ونادراً ما نلاحظ هذه الخسارة الكبرى للقدرة والموهبة البشرية، ناهيك عن الندم عليها. وبدلاً من ذلك، احتكر فلاسفة الأخلاق الكاثوليك لزمن طويل فكرة أرسطو الثورية عن القدرة البشرية في نطاق وحيد ضيق؛ وهو النقاش بشأن شرعية الإجهاض.

يقول المفكرون الكاثوليك إن الأجنة لا يجب إجهاضها مطلقاً لأنها تملك على نحو احتمالي الصفات التي سوف تملكها لاحقاً في صورة متطورة. وهكذا أصبحت القدرة محصورة للأبد في المفردات المتعلقة بحروب الإجهاض عام 1973، عندما حكمت المحكمة العليا الأمريكية بقانونية بعض حالات الإجهاض في حكمها التاريخي في قضية «رو ضد ويد» في العام 1973. لكنها أكدت كذلك على أن الدولة لها «مصلحة مهمة وشرعية في حماية احتمال تكوّن حياة بشرية من الأسبوع الرابع

والعشرين من الحمل». كان قرار المحكمة العليا يعني أن فكرة أرسطو عن القدرة قد نوقشت بالتبعية، في ما يتعلّق بالوضع الأخلاقي للجنين، بواسطة خبراء أخلاقيات علم الأحياء، والفلاسفة، وعلماء اللاهوت. وعادة ما يشير أولئك الذين يعارضون الإجهاض إلى فكرة أرسطو، لكنها كذلك تُعدّ جزءًا من أدوات الجدل التي يستخدمها خصومهم، الذين يتّصف الكثيرون منهم بأنهم نسويون، عندما يطالبون بحق المرأة في اختيار ما إذا كانت تريد أن تلد طفلًا أم لا. وهنا يتحوّل الجدل بشأن القدرة إلى الحقوق التنافسية بين إنسان يُحتمل قدومه إلى الحياة، وبين أم تحمل طفلًا في بطنها بالفعل.

ومن المؤكد أن فكرة القدرة ذات صلة بما هو أكبر من علم الأجنة. ففي الواقع، هي قضية سياسية لأنها يمكن أن تساعدنا على التفكير في المستقبل؛ مستقبل الأفراد وكذلك المجتمعات. ويمكن أن يساعدنا امتلاك القدرة على تخيل نسخ مختلفة من المستقبل، ومحاولة جعلها واقعًا (كان أرسطو سيسمّي هذا تحقيقًا لها)، أو بالتأكيد رفض نسخ غير مرغوبة من المستقبل - مثل التلوث البيئي، أو الاحتباس الحراري، أو انقراض أنواع نادرة من الحيوانات. والبشر الذين وصلوا لمرحلة البلوغ يمتلكون القدرة كذلك، كما أنهم قطعوا مسافة أكبر في طريق تطوير هذه القدرة من أجنة في الشهور الثلاثة الأولى من تكوّنها، إلى بشرٍ ناضجين. تلقّى أرسطو نفسه دعمًا مستمرًا لتحقيق إمكاناته في الطفولة وعندما أصبح بالغًا. كان على تواصل مستمر مع البلاط المقدوني، الذي كان الملوك الأثرياء يدعون إليه كبار المبدعين من المخترعين، والعلماء، وبنائي السفن، والفنانين، من أنحاء العالم المعروف يومها. وتلّمذ على يد أفضل فيلسوف في عصره في الأكاديمية في أثينا. وفي الثلاثينات من عمره، عاش على جزيرة لسبوس مدة سنتين، ودرس الأحياء البحرية الخاصة بجزيرة مرجانية عظيمة هناك، وتحدّث مع صديقه ثيوفراستوس

ثيوفراسطوس، الذي كان هو الآخر عالم طبيعة يمتلك خبرة محلية بصفته من مواطني الجزيرة. ولاحقًا، ظل أرسطو على اتصال بجيوش الإسكندر الأكبر وهي تتجه شرقًا، وربما كان يتلقى تقارير منتظمة عن الظواهر الطبيعية والاجتماعية من حفيد شقيقه، كاليستينيس، الذي عبر مضيق الدردنيل مع الملك. استطاع أرسطو أيضًا أن يقارن بين النظم السياسية من خلال تجربة مباشرة؛ حيث عاش في ظل نظامي الديمقراطية والملكية، وكذلك النظام الاستبدادي تحت حكم هرمياس وحكم الأقلية في جزيرة لسبوس. وبعد فتوحات الاسكندر، رأى ما كان آنذاك أكبر نظام سياسي على الإطلاق في يد رجل واحد.

يبدأ المجلد الثامن من كتاب «السياسة» *Politics* لأرسطو بهذا الرأي الحاسم الشهير: «لا يماري أحد في أن المشرع يجب أن يوجه انتباهه قبل كل شيء إلى تعليم النشء؛ لأن إهمال التعليم يضر بالدستور». وما يعنيه هو أن التعليم -على كافة المستويات من الطفولة وحتى البلوغ- له أهمية أساسية في ازدهار المجتمع في ظل أي شكل من أشكال الدستور؛ حتى إنه يجب أن يعلن على الملأ وألا يُترك ليقرّره كل أب على نحو اعتباطي. وبما أن هدف أي دولة مدينة هو أن تضمن أن يعيش مواطنوها حياة طيبة، «فمن الواضح أن التعليم نفسه يجب أن يكون متاحًا للجميع، ويجب أن يكون عامًا وليس شخصيًا». لا يؤمن أرسطو بأن ترك كل أب يضع ترتيبات خاصة لتعليم أبنائه يخدم المجتمع بأفضل صورة ممكنة. وسيكون من الأفضل كثيرًا أن يتلقى كل المواطنين نفس مستوى التعليم بشأن كل الأمور التي يصفها بأنها ذات «أهمية مشتركة».

ليس معنى ذلك أن أرسطو يؤكد على أن ثمة «منهجًا تعليميًا واحدًا يناسب الجميع»؛ فقد شاهد مدرّبين رياضيين يعدّلون أساليبهم التدريبية لتناسب بعض الرياضيين الذين يتدربون معهم. ويقارن أرسطو الأمر بالطب ليوضح أنه على الرغم من أن الراحة والصيام مفيدان في معظم

الأحوال للمصاب بالحمى، فإنهما «قد لا يكونان الأفضل لحالة بعينها». إن الملاحظة التجريبية الدقيقة لمريض معين يمكن أن تعني أن شخصاً لا يمتنح الطب - مثل أحد الأقارب المقربين للمريض - ربما كان لديه معرفة أفضل بأي علاج سيجدي نفعاً؛ إذ يتأمل أرسطو قائلاً إننا جميعاً نعرف أشخاصاً يعالجون أنفسهم، و«يبدو أنهم أفضل أطباء لحالتهم، رغم أنه لا يمكنهم مساعدة أي شخص آخر». وبعض الطلاب يحتاجون معاملة خاصة صُممت بدقة خصيصاً لهم حتى في ظل نظام تعليم شامل. ويخلص أرسطو إلى أنه «من المفترض ألا يفرض أستاذ في الملاكمة الأسلوب التدريبي نفسه على جميع المتدربين لديه». لكنه يظل مقتنعاً بأنه ينبغي أن يكون ثمة نظامٌ مناسبٌ للحكومة العامة للتعليم. ويمكن للآباء الذين يلجأون في عصرنا الحالي على مضض للمدارس الخاصة - بسبب عدم رضاهم عما تقدّمه المدارس الحكومية - أن يجدوا السلوى في إقرار أرسطو أنه «عندما يهمل المجتمع هذا الأمر، فإنهم واجب الفرد أن يساعد أطفاله وأصدقائه على أن يعيشوا حياة طيبة، أو أن يجعل هذا هدفاً له، إن لم يكن يستطيع تنفيذه بالفعل».

لكن ما هو نظام التعليم المثالي الذي يمكن أن تضعه الدولة لتعليم كل المواطنين «الأمور ذات الأهمية المشتركة»؟ لا يحب أرسطو الدولة الوحيدة التي وُضع منهجها في الواقع بحسب القانون، وهي اسبرطة المولعة بالحروب؛ إذ هناك يتلقى كل الأطفال الصغار الأحرار - سواء أكانوا أغنياء أم فقراء - التعليم والتدريب نفسيهما. (وهو يقول في كتابه «السياسة» إن هذه هي إحدى السمات الديمقراطية المتناقضة مع حكم الأقلية المتشدّد في اسبرطة). ولن يكون ثمة متّسع للتعديل الفردي الذي يوصي به أرسطو.

وعلى طرف نقيض، يذكر أرسطو مثلاً يخصّ العمالقة الأسطوريين المعروفين باسم السايكلوب، والذين منهم بوليفيموس، بطل المجلد

التاسع من «الأوديسه» لهوميروس. يعتبر بوليفيموس نموذجًا أوليًا للبدائي الذي يعيش بمفرده ولم يُكوّن حتى العلاقة الأكثر أساسية؛ وهي علاقة الزواج. مع ذلك، لاحظ أرسطو ذو العقلية الاجتماعية أنه يوجد أفراد آخرون من السايكلوب يعيشون على الجزيرة ذاتها. ولدى هؤلاء السايكلوب زوجات وأطفال، لكنهم لم يكونوا في ما بينهم بعد نوعية العلاقات التي من شأنها أن تُنشئ مجتمعًا وتسهّل مشاركة الدولة في التعليم. ولا يمتلك السايكلوب برلمانًا ولا تشريعًا مشتركًا. وكلّ ذكّر هو الملك الأوحّد للكهف الخاصّ به في الجبال، وهو من يضع القوانين التي يتبعها أبناؤه وزوجاته، ولا يهتم بأمر الآخرين.

وفي مجتمعنا، ما الأمور التي من شأنها أن تكون «الأمور ذات الأهمية المشتركة» التي ينبغي على الشباب فهمها؟ بالتأكيد ستكون المشكلات السياسية الاجتماعية والبيئية العاجلة. وسيصرّ أرسطو على أن هذا التعليم ينبغي أن يكون هو نفسه المتاح للجميع، حتى يمكن لكل شخص في المجتمع فهم الأمور والانخراط في حوار بناء مع بقية مواطنيه. لذا فإن التعليم الشامل يعني زيادة احتمالية إتيان الأفراد أصحاب القدرات المناسبة بحلول للمشكلات التي يواجهها الجميع. ويمكن للبشر البارعين حقًا أن يبرزوا في أي مجتمع، وفي أي وقت. ففي الواقع، يُورّع الذكاء عشوائيًا. والفشل في تحديد وتحقيق القدرة الذهنية البشرية يعني أننا نضع أغلالًا حول أقدامنا في خط بداية سباقنا مع الزمن. آلمني أن أدركت في العام 2015 أنه يوجد الكثير من القدرات الذهنية الضائعة. وقد كشف تقرير حكومي إحصائية مفزعة تقول إن 37 بالمائة من البالغين البريطانيين العاملين يعتقدون بأن وظائفهم بلا جدوى وأنهم لا يقدمون أي مساهمة ذات مغزى للعالم.

ومن المؤكّد أن سكان العالم الذين يتحملون المسؤولية بحاجة إلى أن يبادروا ويسعوا من أجل نظام تعليمي يغطّي «الأمور ذات الأهمية

المشتركة» لبقية مواطني العالم. كان أرسطو سيتفق مع الدكتور مارتين لوتر كينج الابن، الذي ألقى في السابع من يناير 1968 - قبل موته بأسابيع قليلة - عظة في كنيسة إيبنزر المعمدانية في أتلانتا، وكان عنوان الخطبة «ما هي قراراتك للعام الجديد؟»، وكان مما قاله فيها:

قلتُ لأولادي: «سأذهب إلى العمل وأفعل كل ما يمكنني فعله لأتقن من تلقيكم تعليمًا جيدًا. لا أريدكم أن تنسوا أنه يوجد الملايين من الأطفال الذين لن يتلقوا ولا يستطيعون أن يتلقوا تعليمًا جيدًا، ولا أريدكم أن تشعروا بأنكم أفضل منهم؛ لأنكم لن تصبحوا أبدًا ما يجب أن تكونوا عليه حتى يصبحوا هم ما يجب أن يكونوا عليه».

لا يمكننا كبشر يعيشون في القرن الحادي والعشرين أن نحقق قدراتنا الأرسطية على نحو كامل على أرض الواقع إلا إذا جعلنا جزءًا من واجبنا الحرص على أن ينال الباقون جميعهم على الكوكب التعليم والدعم اللذين يتيحان لهم تحقيق إمكاناتهم وقدراتهم. لأننا لن نكون حقًا ما يجب أن نكونه حتى يتسنى لجميع البشر أن يكونوا ما يجب أن يكونوه^[8].

الفصل الثالث

القرارات

كثير من الأبحاث الحديثة في مجال اتخاذ القرارات، التي أجري أغلبها علماء نفس وعلماء أعصاب، تركّز على أهمية العدد الهائل من القرارات اليومية التي نتخذها -التي تصل في بعض التقديرات إلى عدة آلاف- بدلاً من التركيز على أهميتها النسبية. في المجتمعات الموسرة، نتعرّض باستمرار لوابل لا يتوقّف من مئات الخيارات بشأن ما نأكله، وما نرتديه، وما نشتره، وما نشاهده على شاشة التلفزيون. وتلك الخيارات لا تتطلّب كثيرًا من التفكير لأن عواقبها بسيطة وزائلة. بيد أن ثمة قرارات ذات أهمية تؤثر على حياتنا، وأحيانًا حياة الآخرين أيضًا، وهي قرارات تستحق استثمارًا جادًا لوقتنا، وتستحق دراستها بإمعان واهتمام.

متى نستقر مع رجل معين أو امرأة، وما إذا كنا سنتزوج أم لا، وما إذا كنا نريد إنجاب أطفال أم لا، ومتى نريد الإنجاب، وأين نعيش، وما إذا كنا سنخوض في علاقة غرامية أو نطلب الطلاق، ولمن سنوصي بأموالنا بعد وفاتنا. وقد تتعلّق قراراتنا بأناس نتحمّل مسؤوليتهم؛ إذ نحتاج إلى اختيار أسماء أطفالنا، والقواعد السلوكية التي سنضعها، وإجراءات تربية الأطفال التي سنتبعها، والمدرسة التي سيلتحقون بها.

وتنطوي بعض المهن على عملية متأصّلة فيها تقتضي اتخاذ قرارات متكرّرة: فالأطباء، والقضاة، والساسة، وحتى سماسرة البورصة، يتحمّل عليهم اتخاذ قرارات يومية لها عواقب غاية في الخطورة، وقد جرى

إعدادهم للقيام بذلك عن طريق تدريبهم على إجراءات اتخاذ القرارات ذات الصلة بمجال اختصاصهم. إلا أن غالبية الناس لم يتعلموا قط التقنيات الأساسية لاتخاذ القرارات.

تجلى توق الناس الشديد للمساعدة في عملية اتخاذ القرار من خلال النجاح العالمي الذي حققه الكتاب الأكثر مبيعاً «التفكير، السريع والبطيء» *Thinking, Fast and Slow* (الصادر العام 2011) لعالم النفس الحائز على جائزة نوبل، دانيال كانيمان. يؤكد كانيمان في كتابه على الاختلافات بين القرارات السريعة والحدسية التي تتخذها طوال الوقت (النظام الأول)، وعملية التفكير المنطقي الأكثر بطئاً (النظام الثاني)، مع التأكيد على أن النظامين غالباً ما يعملان بتعاون وثيق مع بعضهما بعضاً. ومنذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً مضت، قدّم أرسطو أفكاراً تكاد تكون مطابقة لأفكار كانيمان، على الرغم من أنه أولى اهتماماً أكبر بكثير لقدرة الحظ على نسف أفضل الخطط (فلما كان قد فقد كلا والديه في أوائل فترة مراهقته، فقد كان يتحدث من واقع التجربة). كما قدّم أرسطو أيضاً مبدأ توجيهياً إضافياً لا غنى عنه، وهو مبدأ أهمله كانيمان نفسه، وهو: أهمية دراسة «السوابق».

اتُخذَ أحد أهم القرارات في حياة أرسطو عندما كان مراهقاً؛ فبعد وفاة والديه، تبناه صهره بروكسينوس، وقرراً معاً أن المكان المثالي لذلك الشاب فائق الذكاء هو أفضل جامعة في العالم؛ وتلك هي «أكاديمية أفلاطون في أثينا». وبذلك تمكّن أرسطو -ألمع الطلاب الذين تعلموا على يد أفلاطون على الإطلاق- من أن ينهل من كافة فروع المعرفة المتاحة، بالإضافة إلى العديد من فروع المعرفة التي لم يولها أفلاطون اهتماماً كبيراً: العلوم الطبيعية. وأصبح أرسطو أول فيلسوف يصف بأسلوب عملي أفضل طريقة لاتخاذ القرار، وقد فعل ذلك بأسلوب واضح، وشيق، وواقعي من دون مصطلحات معقدة. يتطلب أسلوب

أرسطو التدبّر ملياً في جميع البدائل التي قد تؤدّي أو لا تؤدّي إلى تحقيق أهدافك، ومحاولة توقّع عواقب كل احتمال، ثم اختيار أحد البدائل والتمسك به.

الكلمة اليونانية التي تعبّر عن كامل عملية التدبّر واتخاذ القرار هي «إيبوليا» euboulia: وفعل «التدبّر» بالإنجليزية to deliberate - المشتق من كلمة bouleuesthai - يرتبط بكلمات لاتينية مثل «الإرادة» volition والفعل الإنجليزي «يريد» to will. وكلمة euboulia تشير إلى القدرة على التدبّر من أجل الذات، والقدرة على إدراك التدبّر المفيد والقرارات العقلانية لدى الآخرين. لذا فإن التدبّر يتضمّن أيضاً التماس النصيح من مستشارين مختارين بعناية. وقد ارتبط فهم اليونانيين للتدبّر ارتباطاً وثيقاً بفهم عميق ومتطوّر للحكومة: فلو كان الناس العاديون للغاية يرغبون في ممارسة السلطة التنفيذية بشكل جيّد، فإنهم بحاجة إلى أن يكونوا أكفاء في التدبّر. لذا فإن المصطلح اليوناني «يتدبّر» deliberate مشتق من الجذر نفسه للكلمة التي تعني المجلس الديمقراطي لأهل أثينا، وهو المجلس الذي يجتمع فيه 500 مواطن من جميع الطبقات لتقديم المشورة والتفكير ملياً في السياسات والإجراءات التشريعية قبل الإدلاء بأصواتهم في المجلس. وقد كان جورج واشنطن يفكر في مجلس التداول الأثيني عندما اختتم خطاب توليه الحكم، الذي ألقاه في 30 أبريل العام 1789 بتلخيص دقيق للأغراض من الحكومة كما طرحها أرسطو. قال واشنطن إن الله أنعم على الشعب الأمريكي بـ «فرص للتدبّر بهدوء تام»؛ بحيث يمكنهم العمل معاً من أجل «تعزيز سعادتهم» من خلال «المشاورات المعتدلة، والتدابير الحكيمة التي يجب أن يعتمد عليها نجاح هذه الحكومة».

وكان أرسطو يعتقد بأن عملية صناعة القرار تتسم بالقدر ذاته من الأهمية في كل من القرارات المهمة، مثل مقدار ما ينبغي أن تنفقه

الحكومة على الدفاع، أو القرارات المنزلية اليومية الأقل أهمية، أو كيفية التعامل مع مراهق متمرد.

ومن جميع أعمال أرسطو، وبصفة خاصة من كتابي «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، و«أخلاقيات يوديميان»، يمكننا استخلاص «صيغة» ما لأفضل أنواع التدبّر، وهي مجموعة من الإرشادات أو «القواعد» التي يجب اتباعها كلما كان علينا اتخاذ قرار، بغض النظر عن أهميته. لقد تحدّثت عن «قواعد» التدبّر الأرسطي مع مراهقين في العديد من المدارس الثانوية، ودائمًا وجدت أنهم متجاوبون للغاية مع هذا النوع من الفلسفة الأخلاقية. لكن مهارات التدبّر تحتاج إلى بعض الوقت لكي تتطور وتحسّن؛ فهي تبدأ بتطبيق المنطق السليم بوعي ذاتي، وسرعان ما تزدهر وتحوّل إلى ما يسميه أرسطو «حكمة عملية» *phronesis* إذا جرى تطبيقها يوميًا على مواقف حياتية واقعية. ومن الجدير بالذكر أن الشخصية التاريخية التي امتلكت فضيلة «الحكمة العملية» التي اختصّها أرسطو بالثناء هو بيريكليس، السياسي الآثيني شبه الأسطوري الذي قاد أثينا لعدة عقود في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، والذي انتُخب حاكمًا مرارًا وتكرارًا. حافظ بيريكليس على سجل حافل في اتخاذ القرارات الصائبة باتساق غير عادي، وازدهر الآثينيون في عهده، مما سمح لهم بابتكار أعمال فنية رائعة، من بينها معابد أكروبوليس، والأعمال التراجيدية لسوفوكليس ويوريديس. ولم يشهد تطور بيريكليس بوصفه رجل دولة أي اهتزاز أو تراجع أثناء تقدّمه في اكتساب الحكمة العملية: ولم تتوقّف مسيرته المهنية إلا بوفاته إثر إصابته بالطاعون، وهو مثال كلاسيكي على سوء الحظ العشوائي الذي أدرك أرسطو جيدًا - كما أدرك الفيلسوف البريطاني برنارد ويليامز في كتابه الرائع «الحظ الأخلاقي» *Moral Luck* (الصادر العام 1981) - أن التدبّر لا يمكنه درأه على الإطلاق.

أسهب أرسطو التفكير في الحظ السيئ بأكثر مما فعل معظم الخبراء

المعاصرين. والمشكلة في مسألة سوء الحظ هذه تكمن في عشوائيته الشديدة. ويعني هذا أن الحياة غير عادلة، وأن المصير لا شأن له بتدخل العناية الإلهية. فكثيراً ما ينجح أناس سيئون ومفكرون غير مؤهلين في حين يعاني أناس صالحون يتخذون القرارات بعناية فائقة. فالخطيب المفوه إيسقراط،-الذي كان أحد رموز الفكر البارزين في أثينا حين وصل إليها أرسطو للمرة الأولى للدراسة، عبّر عن الفهم اليوناني الشائع للتأثيرات المتعارضة للحظ والتدبر، مع التأكيد على أن الشجاعة الحقيقية تُمتحن من خلال المناقشات والمداولات داخل المجلس وليس في مواجهة مخاطر الحروب، لأن «ما يحدث في ميدان المعركة يرجع إلى الحظ، لكن ما يتقرّر هنا هو المؤثر على قوتنا الفكرية». وكان أرسطو ليؤيد هذه المقارنة (على الرغم من أنه كان سيُصرّ أيضاً -باستخدام نماذجه التحليلية الأكثر تطوراً- على أن المهارة، شأنها شأن الحظ، تشارك في صنع النجاح في ساحة المعركة). بيد أنه كان سيبيدي تعاطفاً أكبر بكثير مع فلسفة أرتابانيس الفارسي لهيرودوت، الذي يصرّ على أن الأمر يستحقّ «دائماً» التدبّر السليم. فحتى لو فشلت خطة جرى التفكير والتدبر فيها بكفاءة، فمن المهم عند النظر إلى الوراء وتحليل أسباب النتيجة التي تحقّقت، أن ندرك أن الفشل كان بسبب الحظ، وليس بسبب عدم بذل الجهد.

في الكتاب الثامن من «أخلاقيات يوديميان»، يذكر أرسطو أن بعض الناس يتمتّعون بالحظ. وثمة مجالات يكون الحظ فيها أساساً ضرورياً للنجاح (لعب النرد مثلاً واضحاً على ذلك)، ويمكن فيها حتى لأناس حمقى حقاً أن يحققوا النصر. وثمة مجالات أخرى يعتمد فيها النجاح إلى حد كبير على الحظ، على الرغم من أن المهارة ضرورية (ويشير أرسطو في هذا السياق إلى الاستراتيجيات العسكرية والملاحية). لكن كيف نفسر ظاهرة الحظ؟ يقول أرسطو، وهو أول فيلسوف في

تاريخ العالم يُخضع الحظ للتحليل المكثف، إن معظم الناس يعتقدون بأن الحظ وراثي فطري، مثل امتلاك عينين زرقاوين أو سوداوين، في حين يقول آخرون إن الحظ ليس صفة متأصلة، ولكن الرجل المحظوظ -على الرغم من أنه قد يكون معيياً أخلاقياً وفكرياً- هو إنسان يحبه الله. إنه مثل «سفينة رديئة البنيان» لكنها تخوض الرحلة على نحو أفضل من غيرها، وإن لم يكن ذلك راجعاً إلى كفاءتها الذاتية، وإنما إلى وجود ربان بارع يتولّى دفة القيادة. وفي هذه الصورة الربان هو الإنسان المحظوظ.

بيد أن أرسطو لم يكن راضياً عن تلك التفسيرات الشائعة، ودرس احتمال أن يكون ثمة أناس «يستخدمون» الحظ الطيب العشوائي أفضل من غيرهم، وبذلك يسخّرون أي قدرات طبيعية يمتلكونها من أجل تحويل مصادفة طيبة عشوائية -السرنديبية⁽¹⁾ serendipity- إلى نجاح وسعادة في الحياة. فعندما يفوز بعض الناس بثروات طائلة من خلال مسابقة يانصيب وطنية، يبدّد بعضهم كل ما ربحه، ويخسرون أصدقاءهم بالترفع «فوق وضعهم» اجتماعياً، ويرون زيجاتهم وعائلاتهم تنهار قبل أن ينزلقوا إلى فقر أسوأ من الذي كانوا يعيشون فيه قبل ربهم المفاجئ. وهكذا يتبيّن أن ما بدا أنه حظ سعيد استثنائي هو في الحقيقة محنة ومأساة. ومن ناحية أخرى، يستثمر آخرون مثل هذه المكاسب في تعليم أبنائهم، ومكافأة الأهل والأصدقاء المخلصين بشراء منازل لائقة لهم، أو حتى إنشاء مؤسسات خيرية. فعن طريق التدبّر والمنطق، ينجحون في تحويل الحظ السعيد العشوائي إلى ظروف تفضي حقاً إلى سعادة ورخاء وازدهار غير عشوائي، وإنما مُخطّط له بعناية ومُنَفَّذ بإتقان.

(1) السرنديبية Serendipity: تعني وقوع «حادث سعيد» أو «مفاجأة سارة» بالصدفة ومن دون تخطيط أو قصد. ومن الثابت أن السرنديبية لعبت دوراً كبيراً في العديد من الاكتشافات والابتكارات العلمية في العديد من المجالات العلمية، ومنها الكيمياء، والفيزياء الفلكية. (المترجم)

ويشير أرسطو إلى أن الحظ، في العديد من الحالات، ربما كان قابلاً للتفسير؛ ويعرض علينا صورة شديدة التعقيد لإنسان يمتلك بالفطرة صفات معينة؛ مثل رغبة قوية في تحقيق أشياء طيبة في الحياة، أو تحسين الذات، والطاقة والالتزام الضروريين لسعي وراء تحقيق هذه الأهداف (وإن كان ذلك عن طريق «التصرف التلقائي» وليس من خلال التفكير والتدبر). واليوم، يمكن أن نطلق على مثل هؤلاء الأشخاص صفات مثل: المبادرين، المتفائلين، والطموحين. وهذه الصفات فطرية لديهم، وتدفعهم، -من دون أي تفكير من جانبهم، في مسارات حياتية يبدو أن «احتمالات مصادفة الحظ فيها أكبر». وبذلك فهم لا يحتاجون بالضرورة إلى مهارات فكرية متطورة مثل مهارة التدبر. والمثال الذي قدّمه أرسطو على ذلك هو «الأشخاص ذوو المواهب الموسيقية الذين لم يتعلّموا الغناء، وبرغم ذلك لديهم قدرة فطرية على الغناء». وثمة أناس لم ينالوا أي قدر من التأهيل لتحقيق السعادة أو النجاح، وبالتالي لا يمكنهم تدريس الأخلاق لغيرهم؛ إلا أنهم يتصرفون فطرياً مثل علماء أخلاق لديهم وعي ذاتي. تأمل مثال المغني الذي لم يتلقَ أي تدريب على الإطلاق، ومع ذلك فهو يُطرب الجميع بأدائه. وإذا نظرنا إلى الأمر بهذه الطريقة، فإن أخلاقيات الفضيلة والتدبر كمهارات مكتسبة قابلة للتعلّم يمكن أن تساعد الناس على «التعويض عن عدم الإنصاف» الذي جعل بعض الناس يولدون بنزعة فطرية أكبر لفعل الأشياء التي من شأنها أن تنتج السعادة.

إلا أن الحكمة العملية تراكمية؛ أي إن إتقان فن التدبر يحتاج إلى خبرة عملية. إنك بحاجة إلى ممارستها مرارًا وتكرارًا، وتقييم النتائج، قبل أن تصبح شخصًا يتقن التدبر بكفاءة، ناهيك عن أن تكون خبيرًا فيه. ويقول أرسطو إن الأمر ليس كتعلّم الرياضيات، التي يمكن استيعابها من المبادئ الأولية من دون التطبيق عمليًا. لذا فكلما كانت بداية الشبان

مبكرة في محاولة التدبّر بعقلانية، كان ذلك أفضل لهم. ومن المؤكد أن تعلّم إجراءات اتخاذ قرارات أخلاقية هو أمر يجعل العالم مكاناً أفضل للجميع.

ويحتاج الشباب إلى التعلّم لأنه -كما يقول أرسطو محذراً- من الممكن أن يكون التدبر أمراً في غاية الصعوبة. وثمة ظروف يكون من السهل فيها معرفة ما الصواب من الخطأ؛ فالشخص الكيس المهذب بالأساس يعرف بالفطرة الطريقة الصحيحة المنصفة لتوزيع الأموال، أو الطعام، أو الفرص، على كل الناس. لكن الطريقة الدقيقة لفعل ذلك الإجراء الصحيح -بحسب أرسطو- هي «مهمة أصعب من معرفة العلاج الطبي الملائم الذي يؤدي إلى صحّة جيّدة». إن الأخلاق أكثر ميوعة وتعقيداً بكثير حتى من علم الفيسيولوجيا. وبوصفه ابن طبيب، يضيف أرسطو أنه حتى في الطب، يُعدّ «تحقيق الشفاء» عملاً أكثر صعوبة من مجرد معرفة بعض المعلومات عن «العسل، والنبيد، ونبات الخربق، والعلاج بالكّي، والجراحة».

إلا أننا بحاجة أولاً إلى تعريف التدبّر. وبالنسبة إلى أرسطو، التدبّر له معنى محدّد للغاية. التدبّر لا يتعلّق بغاياتنا النهائية؛ فالطبيب لا يفكر في غايته المنشودة، وهي بالتأكيد صحّة مريضه، وإنما يتعلّق التدبر بأفضل «وسيلة» لتحقيق غاياتنا. فالطبيب يتفكّر في الدواء والإجراء العلاجي الذي من شأنه على الأرجح أن يسهم في استعادة الصحة. وبالمثل فإننا نعرف أن السعادة هي غايتنا، ولكننا نتدبّر وسائل تحقيقها؛ أي الأفعال والتصرفات التي يرجّح أنها تضمن السعادة لنا، ولأحبّتنا، وللذين نعيش معهم.

بالنسبة إلى أرسطو، التدبّر هو نشاط مميّز محدّد؛ فثمة أشياء كثيرة لا نتدبّر فيها، مثل قوانين الطبيعة، أو الحقائق الثابتة، أو أي شيء نعرفه معرفة يقينية. وإنما نحن نتدبر فقط في الأمور غير اليقينية، وهذه الأمور

لا تشمل الظواهر غير اليقينية التي ليس لنا سيطرة عليها، مثل الطقس، أو اكتشاف كنز ما مصادفة: نحن نتدبر فقط «في الأشياء التي تقع في نطاق سيطرتنا ويمكن تحقيقها من خلال العمل». كما أننا نتدبر «لكي نتصرف»، ولهذا السبب يحظى التفكير والتدبر بمكانة بارزة في مجالات الأخلاق، والسياسة، والتي تُعنى بـ «فعل» الأشياء.

يتعلق التدبر أيضًا بما سنفعله في المستقبل، وليس بما حدث بالأمس، أو حتى ما فعلناه بالأمس. فقد «ندم» على قرار اتخذناه بالأمس، وقد يندم الطبيب على قرار إعطاء علاج معين تبين أن له تأثيرًا سلبيًا. وكان المثال الذي ضربه أرسطو على ذلك حدثًا ضخمًا هائلًا بقدر ما يستطيعه خياله، إذ قال: «لا أحد «يختار» لو أنه نهب طروادة» وقتل الآلاف من أهلها، ومحا حضارة بأكملها. وما من إنسان -ولا حتى إله- يمكنه التراجع عن حصار طروادة أو عن سكب اللبن؛ «فما حدث لا يمكن منع حدوثه». ويقتبس أرسطو قول شاعر يدعى أجاثون، مصادقًا عليه؛ إذ قال: «الشيء الوحيد الذي لا يمكن فعله، حتى من قبل الله، هو القدرة على التراجع عن ما وقع بالفعل».

يتعلق الأمر بتحمل المسؤولية عن حياتك الشخصية وعدم انتظار أن تأتيك السعادة من دون جهد منك (مثلما تعلّمت النساء منذ وقت سحيق أن تنتظرها في صورة «أمير وسيم» يظهر بصورة إعجازية -من دون بذل أي جهد من جانبهن- ليزودهن بغاية للحياة). ولكي يوضح هذا، يضرب أرسطو المثال بالأشخاص الذين «يرغبون في أشياء يعرفون هم أنفسهم أنها مستحيلة، كأن يصبح المرء ملكًا للناس أجمعين وأن يكون خالدًا». إن التدبر هو ما يسميه أرسطو «خيرًا هادفًا»، وهو شيء «تقع مسؤوليته على عاتقك بالضرورة». وهذا لا يشمل أن تصبح ملكًا على العالم أو أن تتحول إلى إله. وربما كان أرسطو يفكر في تقدّم جيش الإسكندر الأكبر شرقًا عبر أفغانستان عندما أخبر جمهوره في اليونان أنه لا مغزى

من التفكير في «الأوضاع في الهند»، لأنها «ليست في نطاق مسؤولياتنا»، تمامًا كما أننا لسنا مسؤولين عن «تحويل دائرة إلى مربع».

يعترف أرسطو بأن بعض الناس أضعف من أن يتحملوا المسؤولية الكاملة عن الأشياء التي تقع على عاتقهم هم أنفسهم بالضرورة. وبالتالي فمن المستبعد أن يستطيعوا تعلم التدبر جيدًا أو تطبيق سياسات متدبرة ومدروسة بعناية. ولكن خلاصة القول هي أنك: إذا كنت ترغب في تحقيق السعادة، فعليك أن تتحمل مسؤولية أفعالك وتصرفاتك، وبالطبع مسؤولية الإخفاق في الفعل أو التصرف. كتب أرسطو مشددًا على أننا جميعًا نمتلك الإرادة الحرة للتصرف كأناس أخيار أو أشرار، فقال: «الإنسان هو السبب في الأشياء التي يعتمد عليه فعلها أو عدم فعلها، وما يتسبب فيه المرء يعتمد عليه هو نفسه». ويضيف أرسطو قائلاً إن الشخص نفسه «من الواضح أنه يقوم بمحض إرادته بجميع الأفعال التي يقوم بها عن عمد. لذا فمن الواضح أن كلاً من الخير والشر رهن بإرادتنا».

هذا أمر جوهري في ما يتعلق بأخلاقنا: إذ يمضي أرسطو إلى حد القول بأننا «نحكم على شخصية المرء من خلال اختياراته الإرادية المقصودة؛ أي إننا لا نحكم عليه من خلال ما يفعله، ولكن من خلال السبب الذي يفعله لأجله». ولقد صُدم أرسطو بمثال على هذا في مأساة قُتل فيها الملك بيلياس على يد بناته. كان ذلك الملك الأسطوري عجوزًا مُقعداً، وقد أقنعت المشعوذة ميديا بناته بأن السائل الموجود في المنزل لديها له القدرة على تجديد شبابها؛ بل إنها أثبتت ذلك عملياً من خلال تجربته على كبش. فكّرت بنات بيلياس في الأمر في ما بينهنّ، وقررن أن البر بأبيهنّ، إضافة إلى الأدلة العلمية الواضحة، يقتضي منهنّ أن تقطعن بيلياس أشلاءً وتضعن أشلاءً في الرجل. وبالطبع لم ينبج الرجل من فعلتهنّ. لكن لو أنّهنّ تدبرن الأمر بروية، لكن قد تفكرن في الأهداف الشخصية التي تقف وراء أفعال ميديا (فقد أرادت عرش بيلياس لزوجها)، وما كنّ لتأخذن قط بمشورتها.

لذلك يوصي أرسطو بأن يضع المرء أهدافه -التي ينبغي أن تكون صعبة ولكنها قابلة للتحقيق وتتناسب مع قدرات المرء وإمكاناته في الوقت ذاته- بنيات حسنة. وعلى المرء أيضًا أن يتدبّر بمنهجية في الإجراءات المحددة التي من شأنها أن تحقق تلك الأهداف، وعليه أن يقارن بين إجراءات مختلفة ثم يختار أحدها (والمصطلح الذي يستخدمه أرسطو لهذا النوع من الاختيار هو *prohairesis*، وهو يعني شيئًا قبيل «التفضيل»). ثم على المرء أن يعزم على تنفيذ الأفعال والإجراءات التي اختارها. وبهذه الطريقة يكمن تصور أرسطو للسعادة الحقيقية، العميقة، المرضية، والدائمة. ولأن هذه السعادة من صنعك فإنه لا يمكن سلبها منك إلا من خلال الحظ السيئ العشوائي، كالإصابة بالطاعون الأثيني مثلاً. وحتى لو حصل ذلك، فإن الإنجازات التي حققها المرء قبل إصابته بالطاعون ستحظى بالتقدير على الأرجح، وهو ما يعني أيضًا أنه سيموت أكثر سعادة مما لو كان قد عاش حياة بلا هدف وبلا تفكير أو تدبّر.

يرى أرسطو علاقة قوية بين التدبّر وبين الأسباب والنتائج: فنحن نهدف إلى تحقيق غاية ما بقصد ونية حين نكون قد تدبّرنا مليًا في كيفية تحقيقها. وكما لاحظ أرسطو، فإن أولئك الأشخاص الأقل قدرة على التدبّر هم أشخاص سريعي الانفعال، ومتهورين، ولديهم حسّ أقل بالغاية التي يريدون تحقيقها في الحياة. كما أن ثمة فئة كبيرة من الناس يتدبّرون مليًا بكفاءة كافية، لكنهم يفتقرون إلى الانضباط الذاتي اللازم للاستمرار وتنفيذ الإجراءات التي أدّى تفكيرهم وتدبيرهم إلى تبنيها، مؤقتًا.

لقد مررنا جميعًا بالطبع بهذا الموقف: فكم واحد منّا يفكر في فترة من كل عام في تقليل استهلاكه من الطعام والنبذ والالتحاق بصالة الألعاب الرياضية كي يتمتع بصحة أفضل، ولكنه يهجر خطته قبل انقضاء شهر من اتخاذه ذلك القرار؟ وهكذا يكون الواحد منا -أحيانًا- ما يقول عنه

أرسطو «شخصًا جامحًا متفلسفًا لا يلتزم بالقرار الذي اتخذه بعد أن يكون قد تفكّر فيه وتدبّرهُ مليًا». وهذا يعني أن الكثيرين منا -على الأقل في ما يتعلق بالطعام والشراب- أشبه بـ«دولة تشرّع كافة التشريعات المناسبة، ولديها قوانين جيدة، لكنها لا تلتزم قط بقوانينها».

وثمة خطوة تمهيدية تأتي، حتى قبل أن يبدأ في التفكير والتدبّر؛ وهي أن يقرّر المرء ما إذا كان لديه خيار بالفعل أم لا. وقد عبّر جون ديوي -العالم التربوي (الذي كان متأثرًا بشدة بأرسطو)- عن ذلك بقوله: «التحديد الجيد للمشكلة هو نصف الحل». فثمة ظروف لا يكون لديك فيها قدرة على التصرف أو المناورة، كأن تقع أسير حرب على سبيل المثال. وثمة ظروف أخرى يبدو فيها أن لديك خيارًا ولكنك لا تملك ذلك الخيار في الواقع -إذا كانت أولوياتك صحيحة-. يضرب أرسطو هنا مثالًا يجعل المرء يتساءل عما رآه يحدث في البلاط الملكي المقدوني، الذي يجلس فيه ملوك مستبدّون: فإذا اعتقل طاغية ما والديك وأطفالك، وقال لك إنه سيقتلهم إذا لم تفعل شيئًا غير مشروع لصالحه، فقد لا يكون لديك خيار حقًا بشأن ما يجب عليك فعله. لذا فإن أرسطو يعتقد هنا بوضوح بأن العلاقات مع الأحبة أهم من الوازع الأخلاقي. وإنني أجد هذا مبهجًا للغاية؛ فلقد تجاوزت دوري في الصف ذات مرة في إحدى المستشفيات بطريقة كنت سأعتبرها في الأحوال العادية مخالفة للنظام كليًا، لكن ذلك لأن طفلي التي كانت تبلغ من العمر حينها ثمانية عشر شهرًا، كانت في شدة المرض. وما كنت لأقدّم نزاهتي الأخلاقية المعتادة -بمعنى احترام حقوق من يسبقونني في الصف- على صحة وسلامة ابنتي. إنني أشعر بأنه من الشائن أن يتجاوز المرء دوره في الصف، لكن أرسطو يستثني بشكل صريح الأفعال الخاطئة التي تقوم بها من أجل حياة أطفالك من التقييم الأخلاقي «المعتاد». إن فقدان طفل هو عقوبة يقول أرسطو إنها «تفرض عبثًا ثقلًا على الطبيعة البشرية، ولا يستطيع أحد تحملها».

وعندما يتعلّق الأمر باتخاذ القرار بين تقديم الأرواح وبين تقديم الممتلكات، غالبًا ما يختار أصحاب التفكير السليم اختيارات شاذة وغير طبيعية. فعلى سبيل المثال، إذا كنت في رحلة بحرية وهبت عاصفة تهدّد حياتك وحياة مَنْ معك على السفينة، فهل كتّم لتلقون بجميع مقتنياتكم في البحر لإنقاذ حياتكم؟ يُصرّ أرسطو في المجلد الثالث من كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس» على أن «أي إنسان عاقل كان ليفعل ذلك». وما كان سيعجبه قط ما حدث في الثامن من سبتمبر العام 2015 عندما اشتعلت النيران في طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية على مدرج في لاس فيجاس. فحين طُلِبَ من المسافرين إخلاء الطائرة وترك كل حقائبهم من أجل سلامتهم، أهدر الكثيرون من الركاب الوقت في البحث عن حقائب أيديهم وإخراجها من الصناديق العلوية للطائرة. فهذا نموذج لتفكير قدّم الحرص على الممتلكات، على الحرص على الأرواح.

عندما ناقش أرسطو وطلابه مسألة التدبّر العملي في الأمور، كانوا يستندون إلى تقليد عريق وراسخ منذ أمد طويل في أدبيات الحكمة اليونانية. تطوّر هذا التقليد من اليقين القائل بأنه طالما كانت هناك عوامل تعسفية لا يمكن التحكم بها تلعب دورًا فاعلاً -والمقصود هنا هو الحظ- فما من ضمانة لأن يتخذ المرء القرار الصحيح. إلا أنك تستطيع أن تضمن استعدادك لاتخاذ القرار على النحو الذي يزيد إلى أقصى حد من فرص نجاحك وسعادتك. وقد نشر سايمون الإسكافي، «فيلسوف الطاولة»، وصديق سقراط وبريكليس (الذي اكتُشِفَ متجره الفعلي للأحذية في سوق أثينا بكل ما فيه من مسامير النعال وجزء من وعاء مكتوب عليه «سايمون») بحثًا بعنوان «عن التدبّر» *On Deliberation*. وكتب أرسطو نفسه كتابًا بعنوان *Peri Symboulías* («عن التدبّر» أو «تقديم المشورة وتلقّيها» *Giving and Taking Advice*)، والذي يفترض أنه يجسّد ما يقوله عن اتخاذ القرارات في أعماله الباقية لنا. وقد بدأ استخدام مصطلح التدبّر في

الأدب الغربي في «الإلياذة» Iliad؛ حيث يتحدث أخيل عن الاختيار الذي أخبرته والدته عنه بين مصيرين: إما حياة قصيرة ولكن مجيدة، أو حياة طويلة تنتهي في المنزل بسلام في سن الشيخوخة (9: 410 - 29).

إذاً فما هي «قواعد» أرسطو للتدبر؛ سواء تلك التي ناقشها صراحةً أو تلك التي كانت جزءاً من الحكمة اليونانية المتراكمة حول الموضوع، والتي اعتبرها أمراً مفروغاً منه؟ لتتخيل أنك تحاول أن تقرّر ما إذا كنت ستفصل عن شريك حياتك أم لا. لعلك سمعت شائعة عن علاقة غرامية آثمة لهذا الشريك مع شخص آخر. القاعدة الأولى التي يتبعها المتدبر الكفؤ وفقاً لليونانيين القدماء هي «لا تتسرّع في التدبر»؛ فلا مجال للاندفاع في التدبر المتروّي. قد ترغب في ترك شريك حياتك بعد شجار ما، ولكن عادةً ما تبدو الأمور مختلفة بعد مرور أسبوع مثلاً. وفي الواقع، لقد كان ثمة مثل يوناني قديم يقول: «تدبر في الليل» (كما نقول نحن اليوم: فكر في الأمر بترؤ واتخذ القرار لاحقاً). وفي العصر السابق لعصر البريد الإلكتروني، كنا نكتب رسائل حقيقية عند الغضب ونضعها بجوار الباب الأمامي للمنزل، استعداداً لإرسالها في الصباح، لكننا غالباً ما كنا نمزقها حين نستيقظ وندرك بوضوح أننا لم نرغب حقاً في الطلاق، أو الاستقالة، أو الهجرة، على الفور. وقد تسببت شبكة الإنترنت في جعل المراسلات المتعجّلة خطراً أكبر بكثير؛ لذا فمن الأفضل تجنّب البريد الإلكتروني ووسائل التواصل الاجتماعي تماماً في لحظات الغضب. وفي الواقع يقول أرسطو إن السرعة التي يحدث بها التدبر الجاد ليست مهمة بحدّ ذاتها؛ فهو يدرك أن بعض الناس يمكنهم فعل ذلك بسرعة كبيرة، في حين أن آخرين يكونون أيضاً بارعين في اتخاذ القرارات، برغم أنهم يحتاجون إلى مزيد من الوقت.

القاعدة الثانية، هي التحقق من جميع المعلومات؛ فالقرار الصحيح لا يمكن أن ينجم عن معرفة خاطئة. لذا كان يجب على عطيل أن يطرح بعض

الأسئلة الإضافية حول مصدر ذلك المنديل قبل أن يقرّر قتل ديدمونة. كان أرسطو قد درس في أكاديمية أفلاطون؛ حيث كان أحد المواضيع الرئيسية، والمتكررة، هو الفرق بين المعرفة الحقيقية والظن أو الإشاعة. فإشاعة تقول بأن شريك حياتك في علاقة غرامية ليست حقيقية. قد يكون هذا الأمر صعباً: فإحدى صديقاتي، وهي أستاذة أكاديمية أيضاً، كان زوجها مقتنعاً للغاية أن لديها علاقة غرامية إلى درجة أنه استأجر محققاً خاصاً ليلتقط صورة أو فيديو لإثبات ذلك. وكل ما وجده هو أنها ملازمة لجهاز كمبيوتر بدائي كانت تستخدمه لمعالجة نصوص مذكرات المحاضرات. وبالطبع فإن الاستعانة بمحقق هو أمر متطرف ومبالغ فيه، ولكن، ثمة طرق أخرى للتحقق، بما في ذلك سؤال شريكك مباشرة عن الشائعات الخبيثة المتداولة ومراقبة تغيير سرعة تنفّسه.

وعلى صعيد السياسة العالمية، قد يكون للفشل في التحقق من المعلومات عواقب كارثية حقاً. ففي السادس من يوليو العام 2016، نُشِرَ تقرير السير جون تشيلكوت عن سياسة المملكة المتحدة تجاه العراق في الفترة من 2001 إلى 2009، وانتهى التقرير إلى أن «تقديرات خطورة التهديد الذي تشكّله أسلحة الدمار الشامل العراقية» قد عرضتها حكومة توني بليز «بمبالغة غير مبرّرة». والأسوأ من ذلك أن تشيلكوت صرح بأنه كان واضحاً «أن السياسة المتّبعة بشأن العراق قد وُضعت بناءً على بيانات استخباراتية وتقديرات خاطئة لم يتمّ التشكيك فيها، بينما كان لا بد من التشكيك فيها». لذا فقد أسفرت معلومات مغلوطة ومبالغ فيها عن أعداد كبيرة من الوفيات بين البريطانيين والعراقيين. وما كان ذلك ليدهش أرسطو بأي حال.

يرتبط التحقق من المعلومات ارتباطاً وثيقاً بالقاعدة الثالثة، وهي: استشارة خبير والإنصات إليه. لقد قطع الأثينيون مسافات هائلة للحصول على المشورة بشأن الأسطول البحري من بخّارة مخضرمين، وللحصول

على تصاميم لمعابدهم المذهلة من أفضل المعماريين. ولم يكن من الضروري أن يكون هؤلاء الخبراء أثنيين: فالخبرة وحدها هي ما يهم. وكان الأثينيون ليشيدوا بالرئيس أوباما عندما أشار في خطابه بجامعة روتجرز في مايو العام 2016 إلى أن المرء ما كان ليرغب أبدًا في الصعود على متن طائرة يقودها شخص غير متخصص في الطيران. ويقول أرسطو إنك إذا لم تكن متخصصًا في مسألة معينة فعليك استشارة خبير مختص، وللتأكيد على ذلك فقد اقتبس من شاعر الحكمة القديم هزيود قوله:

أفضل إنسان هو الذي يمكن أن يسدي لنفسه مشورة جيدة، بعد النظر في كافة الأمور، وفي المستقبل، وفي غايته. كما أن الإنسان الذي يتبع نصيحة سديدة هو أيضًا رجل صالح. لكن الذي لا يفكر بنفسه ولا يضع في اعتباره نصيحة شخص آخر فهو رجل لا نفع منه على الإطلاق.

ويجب أن يكون المستشار نزيهاً مخلصاً وغير مستفيد من قراراتك (وليس غير مهتم بها). وما كان لعطيل قط أن يعتقد بأن ياجو يمكن أن يقدم له نصيحة صادقة مخلصه. وبطبيعة الحال، لا يمكن لمن يعمل معك أن يكون ناصحاً مخلصاً نزيهاً. بل إن أقرب أصدقائك -وهو الشخص الذي يلجأ إليه معظمنا غريزيًا في أوقات المعاناة العاطفية أو في الأزمات- هو خيار أسوأ؛ فلهذا الصديق أهداف خاصة به. الأصوب هو أن تطلب المشورة من مستشار متخصص في الموضوع الذي يهكم، بدلاً من التصرف بناءً على ثرثرة مع صديق.

والقاعدة الرابعة، هي التشاور أو -على الأقل- النظر للموقف من منظور جميع الأطراف التي ستتأثر به؛ فلن تتأثر أنت وشريكك فقط في حال انفصلتما، بل ستتأثر كذلك أسرَتَيْكما، وأصدقائكما، وزملائكما، وجيرانكما، وأطفالكما بصفة خاصة، في حال كان لديكما أطفال. إنكما

مشتركان معًا في كثير من علاقات الشراكة المختلفة، ويمكن لتداعيات تغيير علاقة واحدة أن تحمل مفاجآت غير سارة ولا متوقّعة.

والقاعدة الخامسة، هي فحص جميع السوابق المعروفة، سواء في حياتك الشخصية أو في الماضي الذي خبرته. ويمكن أن يكون هذا الجزء من التفكير والتدبر مسليًا للغاية، حين تكون القرارات لا أهمية كبيرة لها. فإذا كنت تحاول أن تقرّر ما الذي يمكن أن تقدّمه لشخص ما في عيد مولده، فمن المنطقي تذكّر ما قدّمته له العام الماضي. وإذا كنت تنظم المقاعد لحفل عشاء، فإنك لا تجعل شخصين تعرف أنه لا يطبق، أو لا يستلطف، أحدهما الآخر يجلسان متجاورين. لكن في ما يتعلّق بالأمور الأكثر أهمية، ثمة أشياء أكثر بكثير يمكن معرفتها من الماضي. ما الذي يحدث للبشر عند انتهاء العلاقات؟ ما الذي يحدث لك أنت شخصيًا حين تمر بصدمة عاطفية؟ وكيف يتصرّف شريكك تحت الضغط؟

والقاعدة رقم ستة هي قياس احتمالات تحقّق النتائج المختلفة والتأهب لكل نتيجة تعتقد بأنها محتملة. وقد كشف تحقيق لجنة تشيلكوت على نحو مرعب كيف تجاهلت حكومة توني بليز هذه القاعدة عند خوض الحرب في العراق، حيث جاء في التقرير: «برغم التحذيرات الواضحة، كانت ثمة استهانة بعواقب الغزو، ولم يكن التخطيط والتحضيرات لعراق ما بعد صدام حسين كافية ومناسبة على الإطلاق». وقد لا تكون لقراراتك الشخصية عواقب بهذه الضخامة، لكنها تحتاج حقًا إلى قياس مماثل للنتائج المحتملة. هل أنت واثق بنسبة 99 بالمائة من أن شريكك سوف يتصرّف كشخص مهذب إذا هجرته، ولن يقوم بإيذائك، أو خداعك، أو اختطاف أطفالك؟ إذا لم تكن واثقًا بنسبة 99 بالمائة، فأنت بحاجة إلى التفكير مسبقًا واستشارة محام واتخاذ الاحتياطات اللازمة. تحتاج إلى وضع خطة للتعامل مع أي من العواقب

المرجحة أو المحتملة. ففي أوقات الضغوط، قد يتبين أن وجود خطة مُعدة مسبقاً لمواجهة الحوادث أمر بالغ الأهمية ولا غنى عنه. وإلى جانب النتائج المرجحة والمتوقعة، تتطلب القاعدة السابعة أن تفكر أيضاً في عامل الحظ الأعمى. ضع في اعتبارك جميع الاحتمالات العشوائية التي يمكنك تصورها. ما هي الحوادث غير المتوقعة التي قد تؤثر بشكل كبير في طريقة سير الأمور؟ ماذا لو أصبحت فجأة مريضاً للغاية ولم تعد قادراً على رعاية عائلتك؟ لا يمكن توقع الحظ السيئ تماماً، إلا أن إدراك احتمالاته المشؤومة يعدّ جزءاً من عملية التدبر المثاني.

وعلى هامش الموضوع، جدير بالذكر أن أكثر الخطاب اليوناني القديم حول التفكير والتدبر يتضمن وصية مفادها: «لا تشمل ثم تتدبر». ومن المؤكد أن أرسطو كان ليتفق مع هذا، لأن الرجل المسرف في الشراب والناثر الحائق بسببه، غالباً ما يجسّد بأفعاله نموذجاً لشخص غير قادر على ممارسة أخلاق الفضيلة على الإطلاق. هذا لا يعني أن أرسطو استنكر شرب الخمر؛ بل إنه، على النقيض من ذلك، كان يعتقد أن هذه المتعة يُوصى بها، باعتدال وتوسط. من المؤكد أنه قرأ أعمال هيرودوت، وإنني أتساءل أحياناً عما كان يظنه بشأن حكاية ذلك المؤرخ الشهير للطريقة التي كان الفرس يتخذون بها قرارات جماعية بشأن أمور لها تبعات على الدولة ككل. لقد كانوا يقومون بالتصويت عندما يشملون معاً، ولكن بعد ذلك يراجعون قراراتهم حين يفيقون، وهو أمر في غاية الأهمية. ولم يكونوا يضعون القرار موضع التنفيذ إلا إذا كان القرار هو ذاته في حالة الثمالة وفي حالة اليقظة والتعقل: أي حين يكون القلب والعقل في حالة انسجام تام، أو حين يكون نموذج نوعي التفكير، السريع والبطيء، لدانيال كانيمان متوافقاً ومتسقاً. وإنني أعترف بأنني قد حثت بالتزامي الأرسطي بالاعتدال في الشرب، عن طريق تقليد الفرس أحياناً،

برفقة زوجي، عند اتخاذ قرارات عائلية مهمة. ووفقًا لتجربتي الشخصية، فهذه الطريقة تفلح. لكننا كنا نحرص دائمًا على اتباع قواعد أرسطو للتدبر بانتباه وعناية قبل التصويت في كلتا الحالتين.

وهذا كل شيء؛ إذ إنني حذفت القاعدة رقم تسعة بوصفها بالية ومهجورة، والتي تنصّ على أن العبيد لا يمكنهم ممارسة التدبر المتأني، وكذلك القاعدة رقم عشرة والتي تقول إن «النساء والتدبر لا يجتمعان معًا». يعتقد أرسطو، بكل أسف، أن الجزء المتدبر من عقول النساء «مُعطل»، أو يحتاج إلى «توجيه» من قبل رجل، ويتوقف ذلك على كيفية ترجمة الكلمة التي استخدمها أرسطو (كلمة *akuron*، التي تعني عاجزًا). إلا أن أرسطو ربما كان يمكن إقناعه -حتى في عصره هو نفسه- أنه مخطئ. ولطالما أدرك بعض الإغريق القدماء أنه يمكن للنساء يمكن أن يفكرن ويتدبرن بكفاءة واضحة لا ريب فيها. ففي مسرحية تراجيدية كتبها يوريبيدس باسم «المتضرّعات» *Suppliant Women*، تؤدّي النصيحة العميقة لأيثرا -والدة الملك ثيسبوس ملك أثينا- إلى اتخاذ ثيسبوس القرار الوحيد السليم أخلاقيًا في ظل الظروف المحيطة به؛ وفي مسرحية «أجاممنون» لإسخيلوس، يقال إن الملكة كليتيمينسترا من أرجوس، الفصيحة المفوّهة والذكية على نحو استثنائي، لها «عقل يفكر ويتدبر كعقل الرجال».

وكان لأعمال أرسطو عن التدبر مستقبل طويل باهر. فقد اختار إراسموس التدبر كموضوع في كتابه الأكثر مبيعًا في عصر النهضة «أداجيا» (1500) *Adagia*، وبعد بضعة عقود، نشر مستشار الملكة الإنجليزية فرانسيس بيكون رسالة بعنوان «عن التشاور» *Of Counsel* (1597). وقد بدأت أفكار أرسطو حول اتخاذ القرارات تروج مجددًا في الأوساط الفلسفية الحديثة؛ إذ يطبقها المنظرون السياسيون على عيوب ومزايا عملية اتخاذ القرار الجماعية في الأنظمة الديمقراطية،

وفي تفاعلات الذاتية الأخلاقية للفرد (بطرق تتداخل مع علم النفس المعرفي). وتحاول مجموعة رائعة من الدراسات الفلسفية المعاصرة تعريف المفكر المتدبر المثالي، ولكنها جميعًا -شأنها شأن أعمال عالم النفس دانيال كانيمان- تعود بنا إلى أرسطو، وتركّز على صفة أو عملية سبق أن درسها أرسطو بشيء من التفصيل. فعلى سبيل المثال، جرى تعريف التدبر المتأني الجيد مؤخرًا على أنه تقييم الغايات على أساس معلومات كاملة وصحيحة (من الوارد جدًا أن تتطلب مشورة متخصصة من طرف محايد نزيه). ويعني هذا أحيانًا استخدام السوابق والخبرات لقياس احتمالات وقوع النتائج. ويركز نموذج آخر على استقرار حدس وتقدير الشخص المتدبر.

وأخيرًا، على الرغم من أن التفكير في قواعد التدبر وممارستها يمكن أن يستغرق وقتًا طويلًا، إلا أنك ستستمتع أكثر بالحياة عن طريق عدم القلق كثيرًا. إن حتمية التدبر بكفاءة ببساطة لا تسري حين لا يكون بمقدورك تغيير أي شيء. فإذا كان المريض يعاني من مرض عضال لا شفاء له، فلا جدوى من محاولة الطبيب التفكير والتدبر في كيفية علاجه -وإنما كل ما يستطيع فعله هو كيفية جعل المرض محتملاً أكثر-. ومن الصعب جدًا استيعاب تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، إلا أنها تمنح راحة استثنائية للأفراد الذين يتسمون بحس مفرط بالمسؤولية. فالوقت الذي تقضيه في القلق بشأن أشياء لا يمكنك تغييرها هو وقت مُهدر.

لطالما أقلقت نفسي أكثر من اللازم، في اللحظات الأخيرة، بشأن الأداء الوشيك لطلابي في امتحاناتهم في حين أنني فعلت كل ما بوسعي طيلة أسابيع، وشهور، وسنوات سابقة حرصًا على أن يكونوا جيدي الاطلاع، ومتحفّزين، ومستعدين. ولعلي كنت سأقضي ذلك الوقت السابق لامتحاناتهم على نحو أفضل كثيرًا لو أنني كنت أفكر في كيفية الاستفادة من التدريس لهم في تحسين طريقة تدريسي للجيل القادم من

الطلاب. لقد أهدرت أيضًا شهورًا من حياتي في الشعور بالقلق حيال ما يجب فعله بشأن إدمان شخص أحبه كثيرًا للكحوليات. استغرقت وقتًا طويلًا لأدرك أنه لم يكن في وسعي فعل أي شيء على الإطلاق: كان الأمر بيده هو نفسه.

لا جدوى من محاولة تغيير أي شيء خارج نطاق سيطرتك. فعلى سبيل المثال، من الممكن جدًا أن تمطر السماء في اليوم الذي رُتبت لإقامة حفل زفافك فيه. إلا أن ثمة سببًا يمكنك بها استخدام التفكير الأخلاقي لتقرر ماذا ستفعل إذا أمطرت السماء بالفعل. كان أرسطو ليقتراح ببساطة مكانًا مغلقًا كبديل لالتقاط الصور الفوتوغرافية، ومنصة مليئة بمظلات مليئة بصور حفلات الزفاف، ورذاذ إضافي مثبت للشعر للعروس.

الفصل الرابع

التواصل

كان أرسطو هو أول من أصرَّ على أن الخطابة، مثل المنطق، مهارة محايدة يمكن استخدامها لأغراض الخير أو الشر. وفي الواقع، فإن القدرة على الخطابة ضرورية لأي شخص يسعى لتحقيق السعادة. يقول أرسطو: «من الحماسة أن نعتبر أنه ينبغي للمرء أن يخجل من عجزه عن الدفاع عن نفسه بأطرافه، ولكن لا يخجل من عجزه عن الدفاع عن نفسه بالكلام والمنطق والعقل؛ لأن استخدام الخطاب العقلاني أكثر تمييزًا للإنسان عن غيره من الكائنات من استخدام أطرافه». وقارن أرسطو الشخص المدرب على الخطابة مع شخصيته المفضلة في الأمثلة؛ الطبيب. يستخدم الطبيب البارع كامل ذخيرته من التقنيات الممكنة من أجل شفاء المريض، حتى وإن كان لا يستطيع علاج كل المرضى. وبالمثل، يحتاج الخطيب إلى فهم كامل لجميع الأساليب المتاحة له، ويحتاج إلى استخدامها؛ حتى وإن كان لن ينجح دائمًا في إقناع الجميع. أدرك أرسطو ذلك من خلال تجربة مؤلمة؛ فقَبِلَ وفاته، أدين أرسطو بالزندقة أمام محكمة أريوباجوس من قبل كاهن أثيني يدعى يوريمدون. وكانت التهمة الرئيسة هي أنه يؤمن بمعتقدات تتعارض مع دين الأثينيين. ويبدو أنه مثل أمام المحكمة بنفسه؛ حيث تحدّث بعض المصادر القديمة عن الدفاع الذي كتبه وألقاه بنفسه، ممارسًا مهارات الخطابة التي طالما

كتب عنها بفصاحة وبلاغة. غير أن تعصّب خصومه جعل هذا الخطاب -برغم روعته وبلاغته- غير كافٍ لتبرئته.

ومع ذلك فقد أحدث كتاب «الخطابة» *Rhetoric* لأرسطو ثورة في دراسة فن الإقناع الشفوي؛ لأنه كان يركّز على ما يجعل الخطاب مؤثراً وفعالاً -وهو جوهر وصميم الأسلوب الجدلي- وليس على كيفية اكتساب السلطة في الدولة المدينة من خلال كون المرء متحدثاً، لبقاً، بارعاً. يفتح أرسطو أطروحته في الكتاب بعبارة لا بد أنها بدت تنطوي على تهديد للكثير من الرجال المثقفين في عصره: فالخطابة مهارة يمكن تعلّمها، ويمكن لأي شخص على الإطلاق أن يتعلّمها. فجميع الناس «يحاولون تفنيد الحجج أو تأييدها، من أجل الدفاع عن أنفسهم، أو اتهام الآخرين». وغالبية الناس يفعلون هذا طوال الوقت، في المنزل أو في العمل، من دون أن يفكروا بوعي في تلك العملية، بعد أن أصبحوا على دراية بالأساليب الجدلية من خلال العادة ومن خلال سماع الآخرين وهم يستخدمونها. لكن بما أنه من الواضح أنها عملية يمكن تعلّمها، فمن الواضح أيضاً «أنه يمكن اختزالها في صورة نظام محدّد».

يعتقد أرسطو أنه ينبغي ألا تُدرّس الخطابة كمهارة تحت عنوان الاستعداد لمهنة سياسية، وإنما ينبغي أن تُدرّس ببساطة بوصفها قدرة على المجادلة في أي سياق اجتماعي أو سياسي أو غير ذلك. وقد تعلّم طلابه الخطابة كي يتمكنوا من التعبير عن آرائهم في أي محفل فكري مهما كان. وإنه لمن المثير للانتباه أنه يتساءل لماذا لا يهتم أحد بإبهاج الجمهور عند تدريس الهندسة مثلاً. ولمَ لا؟ إن معلمي أي مادة دراسية -حتى لو كان محتواها كلّ موضوعياً ومعتمداً على الحقائق، كما هو الحال في الهندسة- سيكونون أكثر تأثيراً لو أنهم درسوا الخطابة. وكذلك الحال بالنسبة إلى أي إنسان في واقع الأمر.

ولو أنك قمت بتطبيق القواعد الرئيسية لأرسطو الواردة في كتابه «الخطابة» على أي موقف كان، سواء أكان ذلك في العمل أو في التفاوض

على الأعمال المنزلية، فسوف تساعدك تلك القواعد على تحقيق النجاح. وأحد أسباب ذلك هو ببساطة أن الطريقة التي نتجادل بها في ما بيننا مستمدة أساساً، وعلى مر القرون، من كتاب «الخطابة» لأرسطو. ولا يرجع ذلك فحسب إلى أن كتابه قد تمت دراسته بعناية، وإنما يرجع أيضاً إلى حقيقة أن جميع الخطباء المفوّهين القدماء الآخرين - مثل شيشرون وكيستيليان - والذين أثرت أعمالهم أيضاً في كتاب الخطب والمعلمين التربويين قد تشبعوا بأفكار أرسطو ووصاياه.

وأحد الأسباب الأخرى هو أن نظرية أرسطو عن الإقناع قد تطوّرت على نحو متكامل مع بقية أعماله. إن العواطف والأفكار تلعب دوراً مهماً في أخلاقيات الفضيلة لأرسطو؛ ولكنها تعتبر أيضاً جزءاً لا يتجزأ من وصاياه المتعلقة بالإقناع. ويحتوي كتابه «الخطابة» على بعض من ملاحظاته التجريبية الأكثر إثارة للاهتمام حول الإدراك من خلال الكلام؛ أي كيفية استيعاب الناس للمعلومات المنقولة بالكلمات. ونظريته بأكملها قائمة على العلاقة بين المحاور وجمهوره، وكيف أن العواطف واللغة تخلقان تلك العلاقة.

كان اليونانيون يدرسون الخطب والخطابة طيلة قرون حين كتب أرسطو كتابه «الخطابة»، وكانوا قد كتبوا كتيّبات حول حيل الخطابة وأساليبها. لكن الخطابة اكتسبت سمعة سيئة؛ إذ كان يُنظر إليها على أنها موهبة مشبوهة تمكّن السياسيين عديمي الضمير من جعل الحجج الفاسدة تبدو جيدة، فيقنعون المواطنين باتخاذ قرارات جماعية غير أخلاقية أو مدمرة بلا سند من دليل. وفي محاورات أفلاطون، ثمة اختلاف هيكلي كبير بين الفلاسفة، الذين يبحثون عن الحقيقة، والخطباء السفسطائيين، الذين لا يهتمون سوى بالتأثير في آراء الناس.

غير أن أرسطو لا ينخدع بالحيل الخطابية؛ فهو يعرض أمثلة على كيفية قيام المتحدّثين «بتحوير» الكلام إيجابياً أو سلبياً: فمن يُعدّ إرهابياً

في نظر أحدهم يُعتبر مناضلاً من أجل الحرية في نظر آخر. والمثال الذي استخدمه أرسطو مفاده أنه يمكنك أن تدعو أورستيس -الذي قتل والدته كليتيمينسترا انتقاماً لقتلها والده- إما «منتقم لأبيه»، أو «قاتل أمه»؛ ويعتمد ذلك على ما إذا كنت تريد أن يتعاطف جمهورك معه أو يزدرونه. ويذكر أرسطو أيضًا أن «اللصوص» في أيامه بدأوا «يرفعون من شأن أنفسهم» بوصف أنفسهم بأنهم «ناقلون». ويشير أرسطو إلى مثال الشاعر سيمونيدس، الذي طُلب منه كتابة قصيدة احتفالاً بفوز متسابق في إحدى المسابقات الرياضية لسباق البغال، فرفض سيمونيدس ذلك، معتقداً أنه من المستحيل كتابة قصيدة -وهي أسلوب شعري راق أصيل- في مثل هذا الحيوان المهين. ولكن عندما عرض عليه صاحب الفكرة ما يكفي من المال، قرر «رفع شأن» البغال، وكتب يقول: «تحية لبنات العاديات!» وقد كان سيمونيدس ليصبح طبيباً بارعاً في تحويل تشخيصه للأمراض. ويمكن استخدام الإقناع لتحقيق غايات نبيلة. فقد ذهب أرسطو، في أواخر الثلاثينات من عمره، للعيش على مرتفعات مملكة أسوس وأترنيوس الشاهقة في آسيا الصغرى، وتعليم حاكمها هرمياس الفلسفة. ويبدو أنه تم تعيينه مستشاراً رسمياً للدولة، وأنه أقنع هرمياس بأنه بحاجة إلى نظام حكم أكثر ديمقراطية. ولكن في ذلك الحين، كان أرسطو يدرك تمامًا، بعد أن عاش عشرين عامًا في أثينا الديمقراطية، أن الخطابات والأسلوب البلاغي للمحامين والساسة غالبًا ما تروق للحشود سريعة التأثر، أو المتعصبة، أو الجاهلة.

إنه ينتقد الكتيبات السابقة في فن الخطابة (والتي لم يتبق منها شيء) لأنها كانت أكثر اهتمامًا بأبعاد فن الخطابة الدخيلة على الموضوع الحقيقي: فهي تنصح بتشتيت انتباه الجمهور عن الأدلة المهمة، والتشهير بالخصوم والمنافسين والاستخفاف بهم، وتأجيج مشاعر مثل الشفقة عبر الحيل، بما في ذلك أن تعرض أطفالك الصغار وهم يكون في المحاكم.

والخطابة من هذا النوع ناجحة، ليس لأن المتحدث يعرض حجة أفضل، وإنما لأنه يرضي ذوق الجمهور بالإثارة أو التكلف.

ومع ذلك، يرى أرسطو أن التخلي عن دراسة الخطابة أشبه بالتخلص من جوهرة ثمينة مع المياه القذرة التي استخدمتها في تنظيف الجوهرة من الطين. ويرى أرسطو الخطابة ببساطة على أنها مثل حقيبة أدوات تتيح لك مناقشة الحقائق ذات الصلة بالمسألة التي تتناولها بأكثر الأساليب إقناعاً، مما يتيح للجمهور تكوين أحكام منطقية معقولة. والحجة الأكثر إقناعاً دائماً ما تكون هي الحجة التي تركز على دليل راسخ، وهو ما أسماه أرسطو «القياس المنطقي» *enthymeme*.

تنبع غالبية القياسات المنطقية الناجحة من المعتقدات التي يؤمن بها جمهور المخاطبين بالفعل. ففي مقابلة عمل على سبيل المثال، ستكون هذه القياسات هي أن من يجرون المقابلة يريدون اختيار المرشح الذي يتمتع بأفضل مؤهلات للوظيفة، وأن الطرفين متفقان على معايير تلك المؤهلات. ففي حالة إجراء مقابلة لشغل وظيفة سائق سيارة أجرة، يفترض القياس المنطقي امتلاك السائق رخصة قيادة سارية، ونظافة سجله الجنائي، والتحقق من عمل السائق لعدة سنوات من دون مشكلات لدى شركة سيارات أجرة أخرى. يتلخص كل شيء في إثبات مقبول وفقاً لمعتقدات مسلم بها بوجه عام *endoxa*. ففي عملية الإقناع، تُعتبر الأدلة القابلة للتوثيق هي أكثر العناصر إقناعاً على الإطلاق.

عادة ما تجري مناقشة كتاب «الخطابة» لأرسطو جنباً إلى جنب مع كتابه «فن الشعر»، ولكنه في واقع الأمر أكثر صلة بأعماله الستة عن المنطق، التي جمعها فلاسفة قداماء لاحقون معاً تحت اسم «الأورجانون» (التي تعني «الأداة» أو «الآلة»؛ أي أداة الفكر أو آله). وكان «الأورجانون» هو أساس التطور التاريخي للفلسفة، والعلوم، والرياضيات. لم يكن أرسطو راضياً عن استخدام الحجج؛ فقد كان يرى أن الأسباب التي نستخدمها

لدعم أو تفنيد النظريات هي أسباب معقدة وتتطلب تحليلاً هي ذاتها. وقد رأى أن ثمة حاجة إلى علم لا يدرس «المحتوى» -أي النباتات في علم النبات، أو السلوك الإنساني في الأخلاق- وإنما يدرس الشكل الذي تتخذه الحجج التي نستخدمها عندما نُعْمِلُ العقل. وقد كان أرسطو رائداً في هذا المجال، وكان يعرف ذلك جيداً؛ إذ كتب يقول: «في حالة الخطابة، كان هناك العديد من الكتابات القديمة التي يمكن الاعتماد عليها، ولكن في حالة المنطق، لم يكن لدينا أي شيء نقوله على الإطلاق إلى أن قضيت الكثير من الوقت في عملية بحث شاقة».

وأبسط أشكال الحجج، وأهمها في الوقت نفسه، هي ببساطة عبارات أو «مقدمات منطقية». فمن خلال وضع عبارتين معاً، يمكننا استنتاج أو استنباط عبارة ثالثة تشكّل استنتاجاً أو حقيقة. يشبه ذلك القياس المنطقي الخطابي، ولكنه يسمى «الاستدلال» *sylogism* (وهي كلمة يونانية تعني «عملية جمع الحجج معاً»). وإليك مثال على الاستدلال الناجح:

المقدمة الأولى: كل الفلاسفة بشر.

المقدمة الثانية: أرسطو فيلسوف.

الاستنتاج: إذاً، أرسطو إنسان.

كان أرسطو أول مفكّر يرى أن هذا التفكير يمكن كتابته في صيغة عامة: جميع الفلاسفة (س) بشر (ص). أرسطو (ع) فيلسوف (س). إذاً، أرسطو (ع) إنسان (ص).

وبمجرد أن عرّف أرسطو فكرة الاستدلال، رأى أن أكثر الاستدلالات تقع في فئات معيّنة، بحسب الشكل الذي تتخذه المقدمات والصفات المُعدّلة؛ على سبيل المثال: «كل الفلاسفة» أم «بعض الفلاسفة». بل ويمكن أن يكون المُعدّل سالباً -مثل «ليس الفلاسفة»- حيث أدرك أرسطو أن الاستدلالات المنطقية الأكثر تعقيداً بقليل تتضمن عبارات سلبية:

المقدمة الأولى: أرسطو وثيوفراسطوس ليسا معًا في اليسيوم اليوم.
المقدمة الثانية: ثيوفراسطوس في اليسيوم اليوم.
النتيجة: إذا، أرسطو ليس في اليسيوم اليوم.
فإذا كانت المقدمتان صحيحتين، فمن المؤكد أن الاستنتاج صحيح.
إذا كانت المقدمات صحيحة، يمكن استخلاص استنتاج سليم ومفيد.
إلا أن مشكلة المنطق الشكلي تكمن في التفاصيل؛ إذ يمكن لمعظم
الأطفال في سن السابعة اكتشاف استنتاج خاطئ وغير منطقي، كما في ما
يلي:

المقدمة الأولى: جميع البريطانيين بشر.
المقدمة الثانية: بعض البشر يحبون الموز.
الاستنتاج: إذا، كل البريطانيين يحبون الموز.

إذا كان بعض البشر فقط يحبون الموز، فلا يمكننا أن نفترض أن
كل البريطانيين يحبونه. الاستنتاج لا يصح: إنه استدلال لا يتفق مع
المقدمات، وسوف نحتاج إلى المزيد من المعلومات لكي نتوصل إلى
هذا الاستنتاج. إلا أن معظم الأطفال سوف يستغرقون وقتًا أطول بكثير
ليتعلّموا التشكّك في مقدمة منطقية تطرح عليهم:

المقدمة الأولى: أرسطو فيلسوف.
المقدمة الثانية: جميع الفلاسفة متحذلقون.
الاستنتاج: إذا، أرسطو متحذلق.

المقدمة الأولى هنا لا جدال فيها. والاستنتاج يستخلص منطقيًا من
المقدمات إذا كنت تقبلها. وتكمن المشكلة هنا في المقدمة الثانية.
فالفلاسفة، والساسة، والمحامون المتمرسون جميعهم يعلمون جيدًا
أن الموضوع المثالي لإخفاء تناقض منطقي أو وجهة نظر مغرضة هو
المقدمة الثانية. دائمًا ما تكون نقطة الضعف هي منتصف الاستدلال، لأن

المستمع إذا قبل المقدمة الأولى، يتبنى إطارًا عقليًا يجعله يعتبرك جديرًا بالتصديق، ويجعله هو نفسه أكثر استعدادًا لقبول المقدمة الثانية. وأكثر الحجج التي تعتمد على تحيز عنصري أو غير ذلك من أشكال التمييز المسبق تتضمن عبارة خاطئة -غالبًا ما تكون عبارة عن تعميم- في المقدمة الثانية: كل الشعب الأيرلندي كسول؛ كل ذوي الشعر الأحمر حاذي الطباع؛ لا تستطيع أي امرأة أن تترك سيارة.

لي زميلة، ولنسمها سوزان، متخصصة في علم الآثار، وكانت تتشاجر طوال الوقت مع زوجها، وهو فيلسوف. ومثل سبوك في مسلسل «ستار تريك»، كان ذلك الزوج يستطيع دائمًا إيجاد ثغرات في استنتاجاتها، ويقول إنها غير منطقية. كان يقول إن جميع استنتاجاتها لا تتفق مع المقدمات. لكنها لم تكن تدرك في ذلك الوقت أنه يخفي تناقضه المنطقي هو نفسه -وهو التعميم غير الصحيح- في المقدمة الثانية:

مقدمته الأولى: سوزان تتلقى علاجًا نفسيًا.

مقدمته الثانية: يلجأ الناس إلى العلاج النفسي لأنهم غير مؤهلين نفسيًا.

استنتاجه: إذًا، سوزان غير مؤهلة نفسيًا.

وبمجرد أن قرأت سوزان جميع أعمال أرسطو في المنطق من خلال موجز وافٍ لهذه الأعمال في موسوعة فلسفية واستوعبتها جيدًا، لم يعد بمقدور زوجها أن يفلت بتلك المقدمة الثانية الخاطئة المدرجة خلسة. لقد كانت في السابق تقضي كل وقتها في محاولة إثبات أنها استثناء من مقدمته الثانية، بدلًا من دحضها برمتها. وقد أصبحت قادرة، من خلال تعلم قواعد وضع المقدمات المنطقية، على إعادة صوغ استدلاله المنطقي كما يلي:

المقدمة الأولى: سوزان تتلقى علاجًا نفسيًا.

المقدمة الثانية: بالتماس العلاج النفسي، يثبت الناس ذكاءهم وقدرتهم النفسية.
الاستنتاج: إذا، سوزان تتمتع بالذكاء والقدرة النفسية.

لا يزال الزوجان معًا وقد أصبحا أكثر سعادة إلى حد ما! إن تدريب صغارنا على استخدام المنطق البسيط -ولا سيما على التشكك في المقدمات بدلًا من التركيز فقط على استخلاص الاستنتاجات المنطقية- من شأنه أن يمنحهم سلاحًا لا نظير له، ويمكنهم استخدامه للدفاع عن أنفسهم ليس فقط في العلاقات المهمة، ولكن أيضًا ضد الأشخاص عديمي الضمير، وبصفة خاصة الساسة المتعصبين الذين يرغبون في استغلال سذاجتهم.

استخدم الرئيس جورج دابليو بوش مثالًا على المقدمات الخاطئة حين كان يدافع عن إدخال إصلاحات تعليمية أدت إلى زيادة كبيرة في الدور الذي تلعبه الاختبارات في الصفوف الدراسية من الثالث إلى الثامن، وذلك بموجب قانون مساعدة جميع الأطفال للعام 2001. قال بوش:

المقدمة الأولى: كثيرًا ما يخفق الأطفال في أساسيات القراءة والكتابة والحساب في المدارس.

المقدمة الثانية: كل من يعارض زيادة الاختبارات زيادة كبيرة ليس مهتمًا بمساءلة المدارس عن إخفاقها في تعليم القراءة والكتابة والحساب.

الاستنتاج: زيادة الاختبارات زيادة كبيرة هي وحدها التي يمكنها تحسين القدرة على القراءة والكتابة والحساب في المدارس.

عبّرت المقدمة الأولى عن حقيقة واقعة تلقى القبول على نطاق واسع.

لكن المقدمة الثانية لم تكن صحيحة؛ فقد كان خصوم بوش مهتمين للغاية في الواقع بجعل المدارس أكثر تحملاً للمسؤولية عن أداؤها، وكانوا قد أعدوا مقترحات مختلفة عديدة للإصلاحات، لكنها لم تشتمل على زيادة الاختبارات. وهذا يعني أن النتيجة التي توصل إليها بوش كانت خاطئة. فهو لم يثبت بأي حال من الأحوال أن الطريقة الوحيدة لتحسين القدرة على القراءة والكتابة والحساب هي زيادة الاختبارات. وكثيراً ما استخدم بوش هذا التحريف لآراء المعارضة في مقدمته الثانية عند الدفاع عن مقترحاته أمام الجمهور.

ولنأخذ الاستدلال الخاطي الذي قام عليه دعم الجمهور لغزو العراق العام 2003، والذي استخدمه كل من الرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بليز:

المقدمة الأولى: تخبرنا تقارير الاستخبارات أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل.

المقدمة الثانية: لن نكذب عليكم، أو نشوّه الحقائق، أو نبالغ في الأدلة.

الاستنتاج: إذاً، لا بد لنا من غزو العراق ونزع سلاح صدام حسين.

استُخدمت هنا اللغة العاطفية من قبل الزعيمين لتشتيت الانتباه بعيداً عن الغموض الذي يغطي تفاصيل «الأدلة» في المقدمة الأولى، واللجوء إلى نزاهتهما الأخلاقية في المقدمة الثانية. أصر بليز على أن برنامج أسلحة الدمار الشامل العراقي كان «نشطاً، ودقيقاً، ومتنامياً»، في حين قال بوش إن الغزو كان ضرورياً قبل أن «يهدّد صدام الحضارة». وقد نتج العديد من الحوادث التاريخية المأساوية الأخرى عن فشل النخبين في رؤية بطلان مثل هذا الاستدلال المنطقي الخاطي.

لكن ما الذي تحاول تحقيقه من خلال الخطابة؟ ثمة ثلاثة عناصر لعملية الخطابة: المخاطب؛ والجمهور، و«النص»؛ أي الكلمات التي ستقلها للجمهور من خلال رسالة، أو بريد إلكتروني، أو خطبة، أو محاضرة. يقسم أرسطو «النصوص» إلى ثلاث فئات أساسية. أولاً: هناك الخطب، مثل الخطب التي يلقيها المحامون في المحاكم، والتي تصف أشياء حدثت بالفعل، ومن ثم تكون في «صيغة الزمن الماضي»، مثل: لقد استحدث سقراط آلهة جديدة، كما قال خصومه في خطبة الادعاء. ثانياً، هناك خطب تستخدم الزمن المضارع، وهي التي تناقش الناس أو تحتفي بهم أو بالمؤسسات في الزمن الحاضر؛ وخير مثال على هذا النوع من الخطب هو الخطبة التي تلقى في حفل زفاف ثناءً على الزوجين الجديدين، مثل: أرسطو وزوجته بيثياس يُحبان علم الحيوان، لذا فثمة توافق مثالي بينهما. ولكن، ثالثاً، هناك خطب حول المستقبل يحاول فيها الناس تقرير ما يجب القيام به. هذه الخطب، المصممة لإقناع المخاطبين بسلوكيات معينة، هي في زمن المستقبل وبصيغة شرطية: «فليب، يا صاحب الجلالة، إذا أعدت بناء مدينتي الحبيبة استاجيرا، فسنعود أصدقاء مرة أخرى». ويرتبط هذا النوع من الخطب بمفهوم أرسطو عن التدبر المتأني. ويهتم أرسطو كثيراً بهذا الخطاب «المتدبر» مقارنةً بالنوعين الآخرين، لأن له القدرة على تغيير مجرى التاريخ، ولو على نطاق صغير، ويمكن أن يؤثر بقوة على ما يحدث في العلاقات، وفي الحياة المهنية، وفي السياسة. فمهارة القدرة على طرح خطاب «متدبر» مقنع تساعد صاحبها. والجميل في الأمر هو أنه يمكن تعلم هذه المهارة. يتكوّن كتاب «الخطابة» *Rhetoric* لأرسطو من ثلاثة مجلدات طويلة وساحرة. ولقد حاولتُ هنا أن أكتف أكثر «القواعد» التي وضعها أهمية من أجل التواصل الفعال في بضع صفحات. من واقع تجربتي الشخصية، بصفتي أكاديمية، فإن الحالة التي يكون للتواصل الفعّال فيها

أكبر الأثر على حياة الناس هي حالة التقدّم لوظيفة. فعادة ما يكون لدينا في جامعات اليوم 200 من المتقدمين حتى لشغل وظيفة تدريس مؤقتة براتب متدنٍ. وقد يكون من المستحيل تقريباً الوصول إلى قائمة مختصرة بأكثر المتقدمين كفاءة، ومن الأكثر صعوبة أن يتمكن المرء من إقناع لجنة الاختيار خلال خمس وعشرين دقيقة بأنه أفضل من الأشخاص الخمسة الآخرين الذين ستجرب مقابلتهم. ولا يختلف طلب وظيفة أكاديمية عن أي طلب آخر إلا في تفاصيل المحتوى، ومن ثم فإن ما يلي سيكون وثيق الصلة بأي طلب وظيفة من أي نوع آخر. ولنفترض أننا سنسأل أرسطو عما يجب كتابته في خطاب التقديم، وعن كيفية الاستعداد للمقابلة. وفقاً لأرسطو، يتطلّب التواصل الفعال ثلاثة عناصر هي: الجمهور، والإيجاز، والوضوح.

قبل أن تبدأ الكتابة، تعرّف على جمهورك قدر استطاعتك: أعضاء لجنة التعيين، وأي شخص آخر (مثل رئيس شؤون العاملين أو الموارد البشرية) الذي من المرجّح أن يقرأ طلبك. ليس من الصعب عادة معرفة من سيشارك في عملية التعيين؛ فكثير من شركات القطاع العام ملزمة بنشر الأسماء، وفي معظم المهن ينتشر الخبر. من الضروري أن تجعل جمهورك - أي الأشخاص الذين سيضعون القائمة المختصرة - يشعرون بأنك قمت ببحث جاد لمعرفة الشركة التي تتقدّم للعمل فيها، وأنك تحترمها وتقديرها، وأنك تفهم طبيعة العمل فيها. يرى أرسطو أن الخطابة هي عملية عاطفية في المقام الأول: فأنت تريد أن تجعل المتلقين يشعرون بالرضا عن أنفسهم، ويرغبون في لقائك أو رؤيتك مرة أخرى. وتكمن البراعة في أن تفعل هذا من دون أن تهين نفسك باللجوء إلى الإطراء المتملّق. ومن البديهي أن تحاول تجنّب أي نغمة سلبية: فعندما يشير مقدّمو الطلبات في خطاب التقديم إلى أنهم يكرهون وظيفتهم الحالية وسئموا من رؤسائهم، فإن الخطاب يُلقى مباشرة في سلة المهملات. قد

تكون هذه العبارات صحيحة، بل ولها ما يبررها، ولكن الترويج لنفسك بوصفك شخصًا مكتئبًا وحزينًا وميلاً للنفور والنزاعات يبدو أمرًا سخيًا. لذا فإن «معرفة الجمهور» أمر بالغ الأهمية، سواء في خطاب التقدّم للوظيفة أو بعد تحديد موعد المقابلة الشخصية. لي صديق عُرِضَ عليه وظيفة تنافسية كان قد تقدّم لها في مجال الأعمال لأنه كان الشخص الوحيد بين من تَمَّتْ مقابلتهم الذي تعرف على الميول السياسية لأقوى أعضاء لجنة المقابلة، وعرف أن عضوًا آخر كان مهووسًا بفاجنر. وفي الأوساط الأكاديمية، من المهم مطالعة منشورات كل واحد من أعضاء لجنة المقابلة؛ فهذا يمكنك من توجيه الحوار إلى اتجاهات تعرف أنها تثير اهتمامهم، كما يسمح لك بمعرفة المجالات التي فيها أقل عدد من المدرّسين بالكلية، ما يجعلك قادرًا على أن ترسم صورة بالكلمات للمحاضرات التي يمكنك تقديمها لسد العجز، وهو ما ييسّر بتخفيف عبء العمل عليهم. ولكن حتى في خطاب التقدّم للوظيفة، يجب أن تكون ثمة جملة أو اثنتان توضحان أنك فكرت في ما يمكن أن يفعله الموظف الجديد لاستكمال مهارات هيئة التدريس.

إن التفكير في الجمهور، وتصميم خطاب التقديم الخاص بك لخلق الاستجابة العاطفية المطلوبة، أمر يتطلب جهدًا ووقتًا. والأمر نفسه ينطبق على تعديل أسلوبك ليتناسب على نحو مثالي مع أسلوب جمهورك. لقد قرأت طلبات توظيف مصطنعة ومتكلفة إلى حدّ مضحك تبدأ بعبارة مثل «السادة أصحاب الفخامة»، لكنني قرأت أيضًا خطابات يبدو منها أن كاتبها يكاد يكون غير مبالي على نحو مهين: («مرحبًا يا أساتذة!»). وثمة وسط أرسطي بسيط ووقور وغير متكلف بين هذين النقيضين: (مثل «السادة أعضاء لجنة الاختيار المحترمين»)، غير أنه يجب صوغ كلّ خطاب ليناسب المتلقين أفرادًا. من الأسهل والأسرع جدًّا بالطبع أن تطبع عدة نسخ من الخطاب وترسلها إلى جميع الشركات التي تتقدّم

إليها، لكنها لن تحظى بالقبول الذي يوصلك إلى الكثير من القوائم القصيرة للمرشحين لشغل الوظيفة.

القاعدة الثانية من قواعد أرسطو الجوهرية للخطابة هي الإيجاز. فعندما يتعلق الأمر بإقناع الآخرين، دائماً ما يكون الأقل أكثر. أما الخطب الوحيدة التي يكون للطول فيها قيمة بذاته فليست هي الخطب المعنية بالمطالبة بإجراءات مستقبلية، وإنما هي خطب صيغت لأغراض أخرى. فالخطاب الذي يكون الإسهاب فيه مرغوباً لذاته هو الخطاب الذي يهدف للترفيه (فإذا جرى استخدامك لإلقاء خطاب بعد العشاء لمدة نصف ساعة ولم تتحدث سوى لمدة عشر دقائق فحسب، فسيكون من حق جمهورك التذمر). والخطاب الآخر الذي يمكن الإسهاب فيه هو خطاب التأبين في جنازة؛ فهو يصف حوادث وقعت في حياة المتوفى تدل على مناقبه. فإذا كان قصيراً للغاية، فقد يعني عدم التقدير للمتوفى. لكن إذا كنت تحاول إقناع شخص ما بفعل شيء ما في المستقبل، ولكنه عاجل، مثل أن تُعرض عليك وظيفة؛ فالإيجاز ضروري. ومع ذكر التفاصيل في السيرة الذاتية، يمكنني القول إنه إذا طال خطاب التقديم لأكثر من صفحة واحدة أو صفحتين على الأكثر مقاس A4 بحجم خط قدره 12 نقطة، فأنت بحاجة إلى إعادة التفكير في الحجج التي تسوقها في ذلك الخطاب.

وفقاً لأرسطو، ثمة عنصران فحسب في ما يتعلق بنجاح الإقناع باتخاذ الإجراءات المستقبلية. وأي شيء آخر لا لزوم له سوف ينتقص من رسالتك أو يجعلها غامضة. العنصر الأول هو بيان ما تريده (على سبيل المثال، أن تكون لك فرصة إثبات جدارتك في الوظيفة المعنية). والعنصر الثاني هو الأدلة التي تثبت أنك المرشح الأفضل للوظيفة. وفي خطب الإقناع الأطول من طلب الوظيفة، مثل خطاب في البرلمان يقترح سن قانون جديد، قد يصبح من الضروري أن تلخص ما قلته بالفعل في

خاتمة موجزة. لقد اكتشف أرسطو بالفعل أنه ثمة حدود عامة لمقدار المعلومات التي يمكن لأي إنسان استيعابها وتذكرها إذا استمر الأداء الخطابي - سواء أكان مسموعاً أو مقروءاً- لأكثر من خمس دقائق. ولكن عندما يستغرق الأمر أقل من خمس دقائق في الاستماع أو القراءة، يمكن الاستغناء عن الخاتمة. ففي خطاب تقدّم للوظيفة مكّون من صفحة واحدة، ليست هناك حاجة للخاتمة.

في هذا النوع من الخطابات، يتطلّب بيان ما تريده، ولماذا، جملتان بالضبط لا أكثر: «أود التقدّم بطلب للحصول على وظيفة محاضر في علم الطيف الترددي (مرجع الوظيفة: F3400) في قسم الموسيقى بكلية سان وينسيسلاس كوليدج، المعلن عنها في دورية ديلي إديوكيتور في السادس عشر من أبريل 2016. إنني أعمل حالياً في وظيفة لمدة محددة في جامعة بوسثليوث، التي كنت أسعد بالعمل فيها، لكنني أطلع إلى الفوز بوظيفة دائمة في كلية أكبر وأكثر شهرة على مستوى العالم». يعرض الجزء المتبقي من الرسالة بإيجاز الأدلة التي تؤكّد أنك المرشح المثالي. ويجب أن تندرج هذه الأدلة تحت عدد محدود من العناوين، بعضها يتعلّق بك في الماضي والحاضر، والبعض الآخر يتعلّق بنظرتك في المستقبل. أنت تمتلك بالفعل المؤهلات المناسبة، والإنجازات السابقة، والخبرة، والتوجّه الذهني الإيجابي. أنت تؤمن بأنك وجهّة العمل ستكونان مناسبين لبعضكما للغاية في المستقبل. اذكر أهم دليل في كل فئة من هذه الفئات، وستكون قد كتبت بالفعل خطاباً أفضل من خطابات 75% من المرشحين المنافسين على الأقل.

الصفة الثالثة الحاسمة في أي صيغة للخطابة هي الوضوح. فإذا لم يفهم الناس قضيتك، فسوف تفشل في إقناعهم. إذا كنت تتقدّم لوظيفة فأنت بحاجة إلى أن توضح سبب كونك مؤهلاً جيّداً لها، وما الذي ستفعله إن حزت عليها. إن عدد ملفات المحاضرين الطامحين التي لا

تذكر متى، وأين، وبأي نتيجة بالضبط اجتازوا امتحاناتهم النهائية أو نالوا درجة الدكتوراه في الماضي، ولا ما يفعلونه بالتحديد في الوقت الحالي، ناهيك عن المساهمة التي سيقدمونها للقسم في المستقبل، ليعث على الدهشة حقاً. فإذا كنت تقرأ مائتي طلب وظيفة، فإن اضطرارك للبحث عن مثل هذه المعلومات ولو لدقيقة واحدة فقط يعد سبباً كافياً لتجاهل الطلب على الفور.

إن الناس ليسوا أغبياء، وسوف تضع لجنة الاختيار يدها على اللبس أو الغموض في خطابك بسهولة. وكلاهما يجعل المتحدث أو الكاتب يبدو مراوغاً، ويجعل المستمع أو القارئ منزعجاً أو عصيباً. لذا فإن نصيحة أرسطو هي أن تكون محدداً: ففي خطابك للتقدم للوظيفة، لا تقل: «سوف أتقدم بطلب للحصول على منحة بحثية لمشروعي البحثي حول الآلهة اليونانية بعد عدة أشهر»، ولكن قل: «سوف أتقدم بطلب للحصول على منحة بحثية لمشروعي البحثي حول مراكز عبادة أبولو في جزر سيكلادس بنهاية السنة الأولى لي في الوظيفة». أو قل: «سوف أستخدم الأرباح المتوقعة من منافذ بورتسموث لإنشاء فروع جديدة من محلات تجزئة بيترز بلمسول في الضواحي الشرقية لمانشستر الكبرى؛ في شهر سبتمبر من العام المقبل». ثم كن مستعداً لتشرح ما الذي سيتضمنه هذا المشروع بالضبط والطرق التي ستحصل بها على التمويل له.

يوضح أرسطو أيضاً التأثير المنفر لأشكال التعبير الغامضة والمحيرة على جمهورك. وكان المثال المحدد الذي استخدمه هو هيراقليطس، الذي ربما كان أكثر فلاسفة اليونانيين القدماء غموضاً على الإطلاق. يقتبس أرسطو جملة من هيراقليطس ترتيب كلماتها يجعل من المستحيل تمامًا التأكد من معناها: «على الرغم من هذا فإن وجود السبب إلى الأبد يجعل البشر في حالة من الشك». ليس من الواضح هنا ما إذا كان الموجود إلى الأبد هو السبب، أم إن البشر هم الذين في حالة شك إلى

الأبد. تحتاج الجملة حاجة ماسة إما إلى علامات ترقيم، أو إلى تغيير ترتيب الكلمات، وهو ما من شأنه أن يوضح أي جزء من الجملة الذي يرتبط به الظرف «إلى الأبد».

لذا، دعنا نفترض أن هذا الخطاب الذي لا تشوبه شائبة، مقترناً بالسيرة الذاتية المنظمة جيداً، جعلك تصل إلى مرحلة إجراء مقابلة شخصية. عند هذه النقطة، يظهر عرضك الجسدي لنفسك ولحجَّتكَ في دائرة الضوء، ويرى أرسطو أن العنصر الرابع المهم للخطابة الفعالة هو الإلقاء. كتب ثيوفراسطوس، صديق أرسطو المقرب، رسالة كاملة عن الإلقاء. وتوحي القصصات الباقية منها أنهما تشاركا في الاهتمام الشديد بالموضوع، وكانا يناقشان أساليب إلقاء الخطباء في أثينا. والكلمة اليونانية القديمة التي تعني الإلقاء هي كلمة *hypokrisis*، وهي الكلمة المستخدمة للتعبير عما يفعله الممثلون على خشبة المسرح عندما يؤدّون أدوارهم؛ وفي اللغة الإنجليزية، تم تحريف المصطلح نفسه إلى كلمة تعني الحساسية الأخلاقية المتكلفة، وهي كلمة رياء *hypocrisy*. لكن فكرة تمثيل دور، تكون مفيدة عند الاستعداد لإلقاء خطاب. ذات مرة، وجَّهت المحكمة تهمة مبرّرة إلى صديقة فاتنة لي بأنها تستخدم جهاز تليفزيون غير ملوّن (أبيض وأسود) من دون ترخيص. ارتدت فستاناً رثاً، وانتعلت حذاءً مسطحاً، ولقّت شعرها في هيئة كعكة حقيرة، وغمغمت قائلة للقاضي إنها عالمة نبات ومدرّسة، ولم تكن تفهم القانون المتعلّق بترخيص أجهزة التلفزيون. اعتذرت بصورة حماسية، وخرجت من المحكمة بأدنى غرامة ممكنة وبمنظرة شفقة صادقة.

ما نوع الشخصية التي ترغب في أن تُظهِرها في مقابلة العمل؟ قد تكون موظفاً كسولاً جداً، ومستغلاً ومستهتراً، وإذا تم تعيينك فستستغل زملاءك. لكنك لا تريد أن يصل هذا الانطباع إلى أصحاب العمل المحتملين. يحتوي الفصل الافتتاحي من المجلّد الثاني من كتاب

«الخطابة» لأرسطو على هذه العبارة الواضحة: لكي يفوز المتحدث بقناعة المستمعين، لا بد له أن: (1) يجعل شخصيته تبدو ملائمة، و(2) يضع مستمعيه - أصحاب القرار - في الإطار العقلي الصحيح. أما بالنسبة لشخصيته، فيجب أن يجعل جمهوره يشعر بأنه يمتلك حسًا جيدًا، وفضيلة أخلاقية، ونية طيبة صادقة. إذا كنت تتدرب على المذهب الأرسطي، فإنك كنت ستعمل بالطبع على اكتساب هذه الصفات كعادات أصيلة، ولا بد أن تكون المشكلات التي تواجهها في توصيل ذلك إلى من يجرون معك المقابلة أقل.

لكن أرسطو يوضح أيضًا بمزيد من التفصيل، صورة الشخص المحبوب بصفة عامة. وهؤلاء أناس نعرف أنهم لا يتطفلون على الآخرين، وإنما يكسبون رزقهم بكدهم وعملهم الشاق. فحتى لو كان نجاحك في الماضي ناتجًا عن وسائل غير أخلاقية، مثل مداينة رؤسائك، أو الغش في امتحاناتك، فإن الإشارة إلى بعض الجهود الحقيقية المبذولة في ماضيك، دائمًا ما يرضي الزملاء المحتملين الذين يثنون على الأرجح تحت وطأة أعباء أعمالهم.

ويوسّع أرسطو تعريفه للأشخاص المحبوبين عمومًا، فيقول: «هم أولئك الذين نحبّ العيش معهم، أو قضاء الوقت معهم؛ مثل أولئك الذين يتمتعون بمزاج جيد، وغير مولعين بانتقاد أخطائنا، وليسوا شرسين أو محبين للخصام». ويعدّ المرح، والابتهاج، والألفة، صفات لا تقدّر بثمن. كما أنّ روح الفكاهة أمرًا ضروريًا أيضًا: فلا بد أن تكون قادرًا على تقبّل الدعابات الموجهة إليك، تمامًا كما تحتاج إلى توجيهها، وعليك إلقاء الدعابات بدوق رفيع: «فنحن نحب الأشخاص البارعين في إلقاء النكات وفي تلقّيها». وبرغم ذلك، لو أن الذي يُجري المقابلة معك فعل شيئًا غير مهنيّ على الإطلاق كأن يلقي نكتة يسخر فيها منك، فإن المقابلة ليست هي اللحظة المناسبة لردّها، حتى ولو ألقيتها بأكبر قدر من البراعة

والذوق. وإحدى النصائح الأرسطية المفيدة هي أن تستجيب للهجمات العدوانية الساخرة برزانة ووقار وجدية. فالسخرية والاستهزاء يتلاشيان أمام التعبير الصادق عن المشاعر والآراء. يعرف أرسطو أن السخرية يمكن أن تخفي شعورًا بالازدراء في كثير من الأحيان، ويمكنك تحويل الهجمات الساخرة الموجهة ضدك لتصبح في صالحك.

ليس صحيحًا أن جميع المحاورين يحسمون أمرك في أول دقيقتين من المقابلة. فالأشخاص المخضرمون في إجراء المقابلات الشخصية يعرفون أنه عند نحو الدقيقة السابعة عشرة تقريبًا، ينسى بعض المرشحين «الدور» الذي يلعبونه، لا سيما أولئك الذين يشعرون بثقة مفرطة، حيث يبدأون في الشعور بالارتياح ويسمحون لأنفسهم بقدر كبير من الحديث عن الذات. لكن ثمة عوامل أكثر سطحية يمكن أن تؤثر على استجابات المحاورين لك. يعرف أرسطو جيدًا أن الانطباعات الأولى مهمة؛ ففي أعماله عن الأخلاق، يتناول الملابس والهندام الشخصي. يحتاج الإنسان المميز إلى تحقيق الوسط المناسب بين الإسراف المنفر في الاهتمام بالأزياء من جهة، وبين ظهوره كما لو كان لا يهتم بمظهره على الإطلاق من جهة أخرى. يعلّق أرسطو ببراعة قائلاً إن رثاء الهيئة المفرطة هي بحدّ ذاتها شكل من أشكال التباهي والخيلاء. وفي مجال عملي، اعتاد الكثيرون من الزملاء أن يُظهروا تجاهلاً تامًا لمظهرهم، من أجل الإبقاء بأن عقولهم مشغولة بما هو أهم وأسمى. وكان ذلك يتجاوز ملابسهم ويمتدّ أيضًا إلى عدم استخدام مزيل رائحة العرق، أو ملمّع للأحذية، ناهيك عن خدمات أطباء الأسنان، ومصفّفي الشعر، أو التنظيف الجاف للملابس. ولحسن الحظ فإن الأمور تحسّنت بين جيل الشباب. وأفضل نصيحة في هذا الصدد هي نصيحة ثابتة دائمًا، لكل من النساء والرجال: لم يخفق أحد قط في الفوز بالوظيفة لأنه يرتدي حلة داكنة بسيطة لكنها مهندمة مع قميص أبيض نظيف، أو فستان لائق لمكان العمل، وحذاء

بسيط لكنه نظيف لامع وداكن. الأمر يستحق شراء ملابس جيدة التفصيل. ويمكنك استئجار مثل هذه الملابس إذا كنت لا تستطيع شراءها. ويشتمل الانطباع الأول على ما هو أكثر من مظهرك المادي. فمن المفيد أن تتواصل بصريًا، تبعًا، مع كل شخص في الغرفة، وأن تحافظ على تلك العلاقة البصرية مع كل واحد منهم، لا سيما عندما يحين دوره في طرح السؤال. قال ثيوفراسطوس، زميل أرسطو، في كتابه «عن الإلقاء» *On Delivery* إن المتحدث الذي يخفق في النظر إلى جمهوره يترك انطباعًا سيئًا مثل ممثل أدار ظهره للجمهور. وتحمل إجاباتك الأولى قدرًا كبيرًا من الأهمية: فأرسطو يؤكد أن استهلال أي أداء خطابي - سواء أكان الجمهور سيقراه أو سيستمع إليه - يوفر فرصة لا نظير لها للفت انتباه مستمعيك وجذب اهتمامهم أو تنفيرهم. ويخبرنا أن الممثل التراجيدي الأكثر شهرة في عصره، وهو ثيودوروس، كان يصّر على إعادة كتابة جميع المسرحيات الكلاسيكية للتأكد من أن الشخصية التي يمثلها هي التي تلقي الكلمة الافتتاحية، وذلك ببساطة لأن هذه هي أفضل لحظة في المسرحية لإنشاء رابطة مع الجمهور.

وفي ثنايا نصائح أرسطو بشأن الخطاب المقنع، ثمة الكثير من الملاحظات المفيدة الأخرى. أولًا، إن استهلال مقابلتك أو خطابك هو اللحظة التي يرجح أن تحظى فيها باهتمام الجميع، ولكن عقولهم يمكن أن تشرد بعد فترة وجيزة. لذا، عليك أن تحافظ على تركيزك الشخصي كمؤدّ، والأهم من ذلك أن تستطيع جذب اهتمام مستمعيك «لأن الانتباه يتراجع في كل اللحظات الأخرى عما كان عليه في البداية». وقد ثبت أن أرسطو كان على حق من خلال العديد من التجارب التي أجراها علماء الإدراك في سياقات تربوية. فقد أظهرت دراسات متكررة حول قدرة الإنسان على التركيز في المحاضرات أن الجميع تقريبًا يتوقف عن التركيز ما بين خمس دقائق إلى خمس وعشرين دقيقة بعد بدء المحاضرة.

لذا، فإن القاعدة الذهبية هي تغيير المسار، أو تقديم نوع مختلف تمامًا من المعلومات في الدقيقة السابعة عشرة تقريبًا، وفي محاضرة مدتها خمسون دقيقة، افعل ذلك مرة أخرى عند الدقيقة الخامسة والثلاثين. والفيت الانتباه إلى تغيير الموضوع بحزم. يستشهد أرسطو بالفيلسوف بروديكوس، الذي كان يقول «متى بدأ جمهوره يغفو»: «سأقول لكم شيئًا أغرب وأعجب من أي شيء سمعتموه من قبل!». ومن ثمَّ كان يتحف جمهوره بمقتطف مجاني من أكثر خطابه شهرة، خطاب كانت رسوم الاستماع إليه في مناسبات أخرى كان يؤدِّيه فيها كاملاً هي مبلغًا كبيرًا قدره خمسون دراهمًا.

وأخيرًا، يرى أرسطو أن التشبيهات لا تقدَّر بثمن في مساعدتك على إقناع جمهورك. فتشبيه مختار بعناية يكون أكثر فائدة بكثير في الإقناع من أي زخرفة بلاغية أخرى، مثل استخدام كلمات غير معتادة. يقول أرسطو: «لكن أعظم شيء على الإطلاق هو أن تكون بارعًا في استخدام الاستعارات. فهي الشيء الوحيد الذي لا يمكن تعلُّمه من الآخرين؛ وهي أيضًا علامة على الموهبة الفطرية، لأن الاستعارة الجيدة توحى بإدراك غريزي لأوجه التشابه بين أشياء مختلفة». يتحدث أرسطو هنا تحديدًا عن الاستعارة، لكنني أستخدم كلمة «التشبيه» لأن أرسطو لا يظن أن ثمة اختلافًا وظيفيًا بين التشبيه («كانت أشعة الشمس عند الفجر مثل أصابع وردية») والاستعارة («طلعت الشمس وردية الأصابع»): فهو يجعل المستمع يتخيل طلوع شمس الصباح الباكر وأشعتها مثل يد لها أصابع وردية. لقد كان أرسطو مهتمًا في المقام الأول بالدور الإدراكي لمثل تلك المقارنات، وكان يعتقد محققًا بأنها تسرِّع عملية التعلُّم. فنظرًا لأن المستمعين يحتاجون إلى تأمل أوجه الشبه بين الشئيين اللذين تجري مقارنتهما (لماذا أشعة الشمس تشبه الأصابع؟)، فإنهم يشاركون بنشاط في عملية تعلم شيء جديد عن مظهر كلٍّ من الشمس واليدين.

إن القدرة على رسم أوجه تشابه بيانية ومبتكرة، بدلاً من إعادة استخدام التشبيهات القديمة البالية المبتذلة، هي أحد الأشياء القليلة للغاية التي يعتقد أرسطو بأنها موهبة فطرية لا يمكن تعلّمها. وهناك بالطبع بعض الأشخاص الذين اشتهروا باستخدامهم البارع للمقارنات والتشبيهات. كان ونستون تشرشل أحد هؤلاء، وقد استخدم الصور التشبيهية لزيادة كراهية مستمعيه لعدوهم: «ذلك الوغد ابن آوى، موسوليني، الذي جعل إيطاليا كلّها تابعة لإمبراطورية هتلر، كي ينجو بسلطانه، يظهر المرح وهو يعوي إلى جانب النمر الألماني، ليس فقط لإشباع شهيته - وهو أمر يمكن تفهّمه - وإنما طلباً للنصر أيضاً». وكذلك اشتهرت المؤلفة دوروثي باركر بتشبيهاتها اللاذعة والمسلية: «قدر قليل من الذوق السيئ يشبه رشّة لطيفة من الفلفل الحار». «كان صوته ودوداً كصلصلة الصفيح». وقد ساعدت الصور التي استخدمها الرجل الذي أورثته دوروثي ملكتها تلك، وهو الدكتور مارتن لوثر كينج جونيور، في تحقيق أفضل ما يمكن للخطابة أن تحقّقه، وهو تغيير مجرى التاريخ إلى الأفضل. فقد كان خطابه التاريخي الملحمي «لديّ حلم» I have a dream غنياً بالصور المرئية من خلال استخدامه للاستعارات والتشبيهات، وكان الكثير منها يستحضر عظمة المشهد الأمريكي؛ إذ يقول فيه: «بهذا الإيمان، سوف نتمكّن من أن نقتطع من جبل اليأس حجراً من الأمل». لكن بعض الصور تُعرض من خلال الاقتباس: «لا يمكن أن نكون راضين طالما الزنجي في ميسيسيبي لا يستطيع التصويت، وطالما الزنجي في نيويورك يعتقد أنه لا يملك شيئاً يصوّت من أجله. كلا، كلا، نحن لسنا راضين، ولن نكون راضين حتى تتدفّق العدالة كالماء المنهمر، ويفيض البرّ كتيّار هادر». وكما كان يعلم الكثيرون من أتباعه المطلعين على الكتاب المقدس، فقد كان كينج هنا يشير إلى نبي العهد القديم، الذي كانت رؤيته للمستقبل قد وفّرت الكثير

من السلوى للأمريكيين من أصول أفريقية، فقد جاء في سفر عاموس 5: 24: «وَلْيَجْرِ الْحَقُّ كَالْمِيَاهِ، وَالْبِرُّ كَنَهْرٍ دَائِمٍ». وقد كان من دهاء باراك أوباما أن يقتبس من كينج، نقلًا عن سفر عاموس، في العام 2007، عندما أعلن ترشّحه لرئاسة الولايات المتحدة قائلاً: «لقد رحبنا بالمهاجرين الوافدين إلى شواطئنا، ومددنا السكك الحديدية إلى الغرب، وأرسلنا رجالًا إلى سطح القمر، وأجبنا دعوة كينج بالسماح للعدالة بأن تتدفق مثل الماء المنهمر، والبرُّ مثل تيار هادر. لقد فعلنا هذا من قبل». وبذلك جعل صورة الزخم الأولي الذي لا يقاوم للعدالة في مواجهة العنصرية يلعب دورًا مزدوجًا؛ فقد جعل أفكارًا مجردة مثل «العدالة» تمسّ الأعماق وتتخذ صورة مادية، ولكنه أيضًا دعا جمهوره إلى استحضار صورة كينج في أذهانهم وهو يتحدث أمام النصب التذكاري للنكولن، وإلى مقارنة التغييرات التي يقترح أوباما الآن إقرارها بوصفه رئيسًا بتلك التي أحدثتها حركة الحقوق المدنية في ستينيات القرن العشرين.

ويبدو أن أرسطو كان فخورًا بنفسه بسبب تشبيهاته المبهرة هو نفسه؛ فقد كان يعلم أنه يتمتع فطريًا بالقدرة على ما نسميه «التفكير الأفقي» أو «التفكير خارج الصندوق». لقد نجح مرارًا وتكرارًا في توضيح مفهوم صعب من خلال استخدام تشبيه من مجال مختلف تمامًا. ففي كتابه العام «تشجيع الفلسفة»، قارن بين التأمل في طبيعة الكون وبين ما يفعله المتفرجون في المسرح أو في ساحة المسابقات الرياضية. ومن أجل توضيح الإمكانيات التعليمية للتراجيديا، يقول إن التعلّم من خلال مشاهدة تجسيد المعاناة يشبه التعلّم من خلال النظر إلى رسم تخطيطي لشكل بدائي وقبيح من أشكال الحياة. ويشبه المساواة في مسائل العدالة بميزان الخيط المرن الذي يستخدمه البنّاءون الذين رأهم يعملون في لسبوس. ويشبه المعلم الجيد الذي يكيّف المنهج الدراسي لجعله ملائمًا لكل

تلميذ على حدة بمدرّب الملاكمة الذي يدرّب جميع المتدربين على الرياضة نفسها، لكنه يُعدّل برنامج التمرين ليناسب مواهبهم الفردية. ويشبّه الرجل الذي يرفض الانخراط مع إخوانه المواطنين ويختار حياة العزلة بقطعة معزولة في لعبة الداما.

وتأتي بعض مقارنات أرسطو الأكثر فائدة في أعماله الأخلاقية مع الحوادث الأسطورية الشهيرة المروية في قصائد هوميروس. فعندما يؤكد أن الدولة يجب عليها المشاركة في تحديد المناهج التي يدرسها الأطفال، يذكرنا بأن تحديد المرء بمفرده ما يجب أن يتعلّمه أطفاله يشبه سباقًا وحشيًا لمسوخ السايكلوب على السيطرة على الكهوف. وفي ما يتعلّق بأهمية التفكير طويل الأجل وعدم الاستسلام للإلحاح أي رغبة جامعة، مثل تهديد استقرار أسرتك عن طريق ارتكاب الزنا، فإنه يقترح أن نتخيل نظرة أهل طروادة إلى هيلين طروادة. قد يكون وجودها شيئًا ترغب فيه بشدة، لكنه سيّدّم مدينتك إذا لم ترفضه.

وأخيرًا، فإن ملاحظة أرسطو التي قد تكون هي الأكثر قدرة على تغيير قدرتك الشخصية على الإقناع هي أن الفارق بين الكتابة المؤثّرة والخطابة المؤثّرة أقل بكثير مما يفترضه الناس عادة. يقول أرسطو: «بصفة عامة، كل ما تكتبه يجب أن يكون سهل القراءة أو سهل النطق، وهما الشيء نفسه». فمن المعروف أن القراءة الصامتة في أيام أرسطو كانت هي الاستثناء وليست القاعدة. لقد كان أغلب الناس يستخدمون أصواتهم في القراءة، كما يفعل الأطفال اليوم وهم يتعلّمون القراءة، لكن هذا لا يقلّل من أهمية نصيحته. فإذا كانت الجملة لا تنساب على اللسان، فإنها لن تنساب أيضًا إلى الجزء الإدراكي من دماغ القارئ. وطول الجملة أمر بالغ الأهمية هنا؛ فكما يقول أرسطو، إذا كانت قصيرة جدًا، فإنها تنفّر القارئ. قد تكون جملة، مؤلّفة من كلمتين، فعالة أحيانًا، لكنها يجب أن

تُستخدم مرة واحدة فقط أو اثنتين في كامل النص أو العرض تقديمي. والجمل الطويلة جدًا أسوأ، لأن القارئ أو المستمع لن يستطيع متابعة المعنى. وربما كان من الأفضل حينها ألا تتحدّث على الإطلاق. لذا، حين تكتب خطاب طلب وظيفة، اقرأه بصوت مرتفع قبل أن ترسله؛ فقد ينتهي الأمر بأحد أعضاء لجنة الاختيار إلى قراءة جزء من خطابك بصوت مرتفع على الآخرين، أو (وهو الأسوأ)، يقتبس منه على مسامعك أثناء المقابلة.

الفصل الخامس

معرفة الذات

حتى لو كنّا نشعر بالرضا عن حياتنا المهنية والشخصية، عادةً ما تأتي نقطة نشعر فيها بأنه يمكننا تقديم ما هو أفضل. فربما تسببت تجربة شاقّة، مثل طلاق أو خصومة شديدة، في جعلنا نشعر بالذنب على نحو غامض، ونساءل عن مقدار المسؤولية الشخصية التي يجب أن نتحمّلها عن بؤس الآخرين. ربما تسبّب إنجاب الطفل الأول في جعلنا نرتقي أخلاقياً، لأن الأنانية والأبوة لا يجتمعان. أو ربما التقينا شخصاً نرغب في محاكاة سلوكياته وإسهاماته في سعادة البشرية، وبالتالي نعمل على تغيير سلوكياتنا نحو الأفضل. تقدّم لنا فئات الفضائل والرذائل لأرسطو معرفة الذات، على نحو يسمح لنا باكتشاف أفضل وأسوأ سماتنا الشخصية. فتقييم الذات الذي يتبعه عمل من أجل زيادة فضائلك وتقليل رذائلك لن يجعل الآخرين من حولك أكثر سعادة فحسب، بل سيزيد أيضاً من سعادتك أنت نفسك.

تتعلّق أكثر نصائح أرسطو الموسّعة بالصفات الطيبة التي ينمّيها الشخص السعيد - أي الفضائل - وأوجه القصور المناظرة لها. والعلاقة بين السعادة وبين هذه الصفات الطيبة علاقة محورية في كامل نظريته الأخلاقية. وكما ذكرنا من قبل، فإن أرسطو يعتبر أنه من البديهي أن الأفراد الذين يفتقرون إلى الفضائل الأساسية لا يمكنهم أبداً تحقيق السعادة: «لا يمكن لأحد أن يقول إن شخصاً ما ينعم بسعادة مثلى،

وهو لا يملك أقل قدر من الشجاعة، أو التحكّم في الذات، أو اللياقة، أو الإحساس، وإنما هو يخاف من الذباب الذي يحوم حوله، ولا يتورّع عن ارتكاب أكثر الأفعال قبحًا وشناعة ليُشبع رغبة في الأكل أو الشرب، ويخون أعزّ أصدقائه من أجل درهم من مال.

كان أرسطو يؤمن بأن رفاهية البشر تتطلب العدالة، والشجاعة، وضبط النفس؛ وهي نوعية «الفضائل» التي جعلت الفلاسفة يسمّون نظامه الأخلاقي الشامل «أخلاقيات الفضيلة». والاسمان اللذان استخدمهما أرسطو لوصف «الصفات الطيبة» (aretai) و«الصفات الخبيثة» (kakiai) هما اسمان أساسيان ودارجان في الاستخدام اليومي في اللغة اليونانية القديمة، من دون ارتباطات أخلاقية محدّدة. والترجمة التقليدية لهاتين الكلمتين بوصفهما «فضائل» و«رذائل» لها دلالات منفردة إلى حدّ ما. فمصطلح «الفضيلة» له دلالة تشير إلى التزمّت، ومصطلح «الرذيلة» -المرتبط بالشرّ والخبث- يستدعي للذهن تجارة المخدرات والدعارة، وهو مصطلح محتمل بمعانٍ أكثر بكثير في الإنجليزية من الكلمة المناظرة له في اليونانية *kakia*.

وقد يبدو مصطلح «أخلاقيات الفضيلة» نفسه مصطنعًا ومتكلفًا ومبالغًا فيه. ولكن بدلًا من أن تقرّر ممارسة «العدالة»، قل لنفسك إنك قرّرت أن تكون منصفًا مع الجميع، وأن تضطلع بمسؤولياتك بينما تساعد الناس -وأنت نفسك من بينهم- على تحقيق إمكاناتهم البشرية. وبدلًا من «ممارسة الشجاعة»، فكّر في مواجهة الأشياء التي تخاف منها وفي تدريب نفسك على أن تكون أقل خوفًا. وبدلًا من التعهد بـ«ضبط النفس»، اكتشف ما هو «الوسط الذهبي» أو المستوى المناسب من الاستجابة للمشاعر القوية، والتفاعلات والرغبات الشخصية (وهو ما يستلزمه «ضبط النفس» عند أرسطو).

وتشكّل كتابات أرسطو عن الفضائل والرذائل المقابلة لها في كتابي

«أخلاق يوديميان» و«الأخلاق إلى نيقوماخوس» دليل إرشادات عملي في الأخلاق. إن «الفضائل»، أو «الطرق إلى السعادة»، ليست صفات للشخصية بقدر ما هي عادات يمكن تعلّمها من خلال الممارسة. وبعد ممارستها بشكل متكرّر، تصبح راسخة ومتأصلة للغاية، مثل ردود أفعالنا اللاواعية عندما نفقد سيارة مثلاً، إلى درجة أنها قد تبدو بالفعل (للآخرين، على الأقل) صفة دائمة (hexis) لشخصيتك. تستغرق هذه العملية العمر بأكمله، ولكنّ كثيرين من الناس يحققون التحسّن فيها في منتصف العمر، حين يصبح التحكّم في بعض أشد رغباتهم ضراوة أمراً أكثر سهولة. ويمكن لجميع الناس تقريباً أن يتحسّنوا أخلاقياً لو أنهم أرادوا ذلك. فكما يقول أرسطو، نحن لسنا مثل الحجارة، التي لا يمكن «تدريبها» على التحرك صعوداً في الهواء من تلقاء نفسها؛ فلو أنك أفلتت الحجارة من يدك، فإنها دائماً ستسقط أرضاً. وهو يرى أن أي فضيلة يمكن «تعلّمها» كأى مهارة أخرى، مثل العزف على قيثارة، أو البناء. فإذا كنت تعزف على القيثارة بشكل سيئ، أو تبني جدراناً تنهار بسرعة، ولا تبذل أي جهد من أجل التحسّن، فمن الواضح أنك تستحقّ سمعة سيئة في العزف على القيثارة أو في أعمال البناء. يقول أرسطو: «والشيء نفسه إذا ينطبق على الفضائل. فمن خلال المشاركة في المعاملات مع إخواننا من البشر يصبح البعض منا منصفاً والبعض الآخر جائراً؛ ومن خلال التصرف في المواقف الخطيرة وتنمية عادة الخوف أو الثقة، نصبح شجعاناً أو جبناء. وينطبق الأمر نفسه أيضاً على تصرفاتنا في ما يتعلق بشهواتنا الجسدية وغضبنا؛ فبعض الناس يضبطون أنفسهم ويكونون لطفاء، والبعض الآخر يصبحون متهكّين وسريعي الغضب».

ربما كان ذلك أوضح ما يكون في حالة الشجاعة؛ فالكثيرون منا يعانون من حالات رهاب أو ذعر، نتغلّب عليها من خلال التعرّض المتكرّر للأشياء أو التجارب المخيفة. لقد هاجمني كلب حين كنت

طفلة صغيرة، ولسنوات عديدة كنت أبذل جهدًا هائلًا لتجنّب الكلاب من أي نوع. وكان أرسطو ليقول لي ألا أقسو كثيرًا على نفسي في هذا الشأن. فمثل رجل ذكره أرسطو وكان يخشى على نحو مَرَضِي من ابن عرس، أصبت بحالة الخوف نتيجة الصدمة. غير أن الصدمة تعادل المرض؛ وبالتالي يمكن علاجها. وفقط بعد أن أقنعتني زوجي أخيرًا بأخذ جرو، والتعامل معه بشكل يومي (وافقت على مضض في البداية)، اكتسبت بعد بضع سنوات ثقة تامة (تقريبًا) في التعامل مع جميع أنواع الكلاب تقريبًا (على الرغم من أنني احتفظت بصرامتي في الإصرار على إبعادهم عن الأطفال الصغار). وفي مثال أكثر تعقيدًا، دمر صديق لي جميع علاقاته المبكرة مع النساء من خلال عدم قدرته على التعبير عن الغضب أو السخط لعدة أشهر، إلى أن كان ينفجر فجأة وينهي العلاقة تمامًا (أو كانت شريكاته تشعرن بعدم صدقه العاطفي وتنهين العلاقة أولًا). وفقط في أوائل الثلاثينات من عمره، ومن خلال إلزام نفسه بأن يكون واضحًا بشأن مشاعره تجاه أم أطفاله، تمكّن من التفاوض بشأن المشكلات بمجرد ظهورها وليس بعد فوات الأوان بشهور.

لا يولد البشر بالمهارات التي تتطلبها فضائل أرسطو، والتي تشمل على مزيج من العقل، والعاطفة، والتفاعل الاجتماعي، ولكنهم يولدون بدلًا من ذلك بالقدرة على اكتساب وتنمية هذه المهارات. ويمكن فهم «أخلاقيات الفضيلة» لأرسطو على أنها سجلٌ بعدة مناقشات أجراها أثناء مشيه بصحبة جميع طلابه - سواء بصفته معلم الإسكندر الأكبر في مقدونيا، أو لاحقًا في مدرسة الليسيوم في أثينا - حول الطريقة التي تكون بها شخصًا لطيفًا وأخلاقيًا. وعلى الرغم من أن فلسفته الأخلاقية قابلة للتطبيق بالنسبة لأي واحد منا، فعندما كان يبدو أنه يفكر في نوع معين من الطلاب، فقد كان هؤلاء الطلاب (حتميًا ربما) ذكور، وأثرياء، ومقدّر لهم الظهور وتوًّا مكانة عامة. وأحيانًا، كان هذا يصبح واضحًا

على نحو مفاجئ وهزلي، كما يحدث مثلاً حين يناقش أرسطو الهبات والتبرعات المطلوب تقديمها من الأغنياء في دول مدن معينة؛ فمعظم الناس لن يكونوا مطالبين قط بالاختيار بين تمويل فرقة مسرحية في المسرح الوطني، أو سفينة حربية، أو مأدبة عامة. ولكن النقطة المهمة هي أن هؤلاء الشباب المميزين لا عذر لهم في عدم السعي وراء التمتع بكل الفضائل. وإذا نجحوا في ذلك، فسوف يستحقون وسام أرسطو النهائي؛ وهو أن يُعتقد بأنهم أناس أصبحوا يتمتعون بأرواح العظماء (أي أن يكونوا *megalopsychos*، وهي كلمة مكونة من المقطع اليوناني الذي يعني «كبيراً» أو «عظيماً»، إضافة إلى الكلمة اليونانية التي تعني «الروح» أو «النفس»). وأقرب كلمة إنجليزية لها تأتي أيضاً من اللاتينية، وهي كلمة *magnanimity* التي تعني «السماحة» أو «النبل» أو «كرم الأخلاق». ويمكنني أن أتخيل أرسطو وأستمع إليه وهو يصف الهيئة والسيرة المناسبة لصاحب الروح العظيمة أمام مجموعة طلاب من المراهقين المقدونيين المشاكسين: «مشية بطيئة، وصوت عميق، وحديث متأن متروّ؛ إذ إن التحدّث بنبرة صاخبة والمشي بسرعة يدلان على مزاج متوترّ وعصبي».

يتمثل الطريق إلى السعادة في الاضطلاع بمشروع الحياة المتمثل في أن يصبح المرء رجلاً ذا روح عظيمة أو امرأة ذات روح عظيمة؛ أي أن يكون سميحاً، نبيلاً، كريم الخلق. فقد لا يكون لديك المال اللازم لتجهيز سفينة حربية، وقد لا تريد المشي ببطء أو التحدّث بصوت منخفض عميق، كما ينادي أرسطو. ولكن هذا النوع من السماحة والنبل -أو الحالة الذهنية للإنسان السعيد حقاً- هو العلامة الدالة على نوع الإنسان الذي يتطلّع إليه البشر جميعاً تقريباً: فهو إنسان لا يعبت مع الخطر حباً في الخطر ذاته، ولكنه مستعدّ في الوقت نفسه للتضحية ولو بحياته من أجل قضية نبيلة. وهو يفضل تقديم المساعدة للآخرين على طلب المساعدة لنفسه. وهو

لا يخضع أبدًا للأثرياء أو الأقوياء، ودائمًا ما يكون مهذبًا حتى مع البسطاء رقيقى الحال. وهو «صريح في الحب وفي البغض على السواء»، لأن من يحتاج إلى إخفاء مشاعره الحقيقية هو فقط الشخص الذي يخشى ما يظنه الناس فيه. لكنه يتجنب النميمة لأنها عادةً ما تكون سلبية. وهو نادرًا ما ينتقد الآخرين، حتى ولو كانوا أعداءه، إلا في السياق المناسب للنقد (مثل دعوى قضائية)، لكنه يتجنب أيضًا الثناء المفرط. وباختصار، فإن كون المرء سمحًا نبيلًا كريم الأخلاق يعني أن يكون شجاعًا بهدوء، ومكتفيًا بذاته، وغير مترلف، ومهذب، وحذر، ورصين، وصريح: ومثل هذا الشخص هو قدوة يمكن للجميع الاحتذاء بها بحماسة وصدق وإخلاص. وكون هذه الكلمات قد كُتبت منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنًا من الزمان لا يجعلها أقل إلهامًا بأي حال من الأحوال.

والخطوة التالية هي مراجعة جميع صفات وفصائل أرسطو من منظور التحليل الذاتي. تقدم قائمة أرسطو التأمل الذاتي لكل شخص قادر على أن يكون صادقًا مع نفسه. وكما يقول أحد النقوش على معبد أبولو: «اعرف نفسك» (*gnothi seauton*): وقد كان سقراط، معلم أفلاطون، مولعًا أيضًا باقتباس هذا القول. لكن إذا كنت لا «تعرف نفسك»، أو لم تكن مستعدًا للاعتراف بأنك بخيل، أو مولع بالنميمة الخبيثة، على سبيل المثال، فربما كان من الأفضل أن تتوقف عن القراءة عند هذا الحد. إن الأخلاق الأرسطية تتطلب منك أن تخبر نفسك بحقائق ذاتك لأن تلك الأخلاق لا تطلق الأحكام ومن المفترض أن تكون مفيدة. ليس واجبك هنا هو أن تُدين نفسك بقسوة، أو أن تنخرط في لوم الذات، أو عقاب الذات، أو كراهية الذات.

عند أرسطو، سمات الشخصية والعواطف جميعها تقريبًا مقبولة، بل هي ضرورية في الواقع من أجل نفسية صحيحة متزنة، بشرط أن تكون هذه السمات والعواطف موجودة بالمقادير الصحيحة. ويطلق أرسطو

على المقدار الصحيح اسم المقدار «المتوسط» أو «الوسط»، أو *meson*. وفي الواقع، لم يستخدم أرسطو قط مصطلح «الوسط الذهبي»؛ بل ظهر هذا المصطلح في اللغة الإنجليزية عندما ارتبط بمبدأه الفلسفي الخاص بـ«الوسط» الصحي من السمات والرغبات النفسية بمقطع في قصيدة للشاعر اللاتيني هوراس (10، 2). يقول هوراس إن الأشخاص الذين يقدّرون «الوسط الذهبي» - *aurea mediocritas* باللاتينية - لا يخشون الاضطراب إلى العيش لا في قصر مهيب ولا في كوخ ضيق. ولكن لا يهم حقاً ما إذا كنا سنصف هذا «الوسط بين نقيضين» بأنه ذهبي أم لا.

إن الشهوة الجنسية، بما أن البشر يصنّفون من الحيوانات، هي شهوة جيدة إذا كانت باعتدال. ومن ناحية أخرى، فإن ممارسة الشهوة الجنسية بإفراط أو بقدر أقل من اللازم تؤدي إلى التعاسة. والغضب مهم للشخصية السليمة، والشخص الذي لا يشعر بالغضب أبداً لن يفعل دائماً الشيء الصحيح، وبالتالي لن يحقق السعادة. غير أن الغضب المفرط أيضاً يعتبر عيباً أو قصوراً؛ أي إنه يعتبر رذيلة. الأمر دائماً يتعلّق بالقدر المناسب في الوقت المناسب. وبالطبع فإن أرسطو لم يتكرّر المثل اليوناني القديم الآخر المنقوش على معبد دلفي: «لا تفرط في أي شيء»، ولكنه كان أول مفكّر يضع نظاماً أخلاقياً مفضلاً للعيش وفقاً للمبدأ.

ويُعدّ أحد أكثر المجالات صعوبة في الأخلاق هي الصلة بين قضايا الحسد، والغضب، والرغبة في الانتقام. وهذه القضايا الثلاث هي قضايا محورية في حبكة «الإلياذة» *Iliad*، وهو الكتاب المفضّل لدى الإسكندر الأكبر؛ إذ كان يصطحبه معه في كل مكان في حملاته الحربية، وناقشه باستفاضة مع معلمه أرسطو. في هذه الملحمة، كان أهم ملوك اليونان من حيث المكانة، أجاممنون، يحسد أخيل، لأن أخيل هو أعظم محارب يوناني. أهان أجاممنون أخيل على الملأ، وأيضاً استولى على خليلته المحبوبة بريسييس. غضب أخيل بشدة، واشتد غضبه حين قتل هيكتور

الطروادي باتروكلس، صديق أخيل المقرّب، في المعركة. وقد انتقم أخيل من أجاممنون بتلقّي تعويض واستعادة حبيبته بريسيس، ثم روى عطشه للانتقام من هيكتور بقتله في نزال فردي، ومثل بجثته، وكذلك أعدم اثني عشر شاباً طروادياً بريئاً بالتضحية بهم في محرقة باتروكلوس. لقد كان هذا إفراطاً مبالغاً فيه.

كتب أرسطو ببراعة شديدة عن هذه الدوافع المظلمة الثلاثة: الحسد، والغضب والانتقام. وقد كان هو نفسه هدفاً للحسد أثناء حياته وبعدها. فعلى الرغم من كونه أفضل فلاسفة جيله بفارق كبير، فحين توفّي أفلاطون العام 348 قبل الميلاد، تم تجاوزه في قيادة الأكاديمية التي درس فيها طيلة عقدين من الزمان. لقد وجد الأكاديميون الآخرون أن نبوغ أرسطو الذي لا يهدأ يضرّ عليهم تحمله، واختاروا فيلسوفاً مملاً يدعى سيبوسيوس بدلاً منه. ولاحقاً، حسدوه على الإعجاب والدعم اللذين تلقّاهما - من دون أن يحتاج في ما يبدو إلى أن يحطّ من قدر نفسه أو يهين كرامته - من ملكي كل من أسوس في آسيا الصغرى، التي عمل فيها بالتدريس لمدة عامين، وفي مقدونيا. وكما قال فيلسوف أرسطي كتب لاحقاً تاريخاً للفلسفة، فإن الرجل العظيم أثار الكثير من الحسد ببساطة «بسبب صداقاته مع الملوك، والتفوّق المطلق لكتاباته». لقد كان الإغريق بارعين في الصدق بشأن المشاعر التي غالباً ما تتعرّض للنقد في يومنا هذا. فلا يجد الجميع في الأخلاق المسيحية الكثير من المساعدة في ما يتعلّق بالتعامل مع أي من الرذائل الأرسطية. فالحسد على سبيل المثال خطيئة قاتلة، والمسيحي الصالح من المفترض أن «يدير الخدّ الآخر» لمن لطمه على الأول، بدلاً من الثأر لنفسه إذا تعرّض لاعتداء جائر. لكن حتى لو لم يكن الحسد جزءاً رئيسياً من شخصيتنا، فإنه جزء لا مفر منه.

ليس هنالك إنسان لم يحسد أصحاب الثروة الأكبر، أو المظهر

الأفضل، أو الحظ الأوفر في الحب. فإذا كان ثمة شيء نرغب فيه بشدة، ولكن لا يمكننا ضمان تحقيقه مهما بذلنا من جهد - مثل صحة أفضل، أو طفل جديد، أو تقدير مهني، أو شهرة - فقد يكون من الصعب جدًا علينا أن نتحمّل رؤية الآخرين يحوزون هذا الشيء. اعتبرت المحلّلة النفسية ميلاني كلاين أن الحسد هو إحدى القوى الدافعة الأساسية في جميع حيواتنا، خاصّة في العلاقات بين الإخوة، وغيرها من العلاقات الاجتماعية. إننا لا يسعنا إلا أن نحسد أولئك الذين يبدو أنهم نالوا من النعم أكثر مما حصلنا عليه. ويمكن أن يكون هذا استجابة صحيّة من منظور ما؛ إذ يحفزنا على معالجة الظلم من أي نوع. فيمكن التعبير عن هذا الحسد في العمل من خلال تدشين حملات لتشريع يضمن المساواة في الأجور بغض النظر عن الجنس. ويمكن التعبير عنه في السياسة برفض النظام الاجتماعي الذي يسمح بوجود فجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء.

لكن الحسد على هبة طبيعية بحثة، مثل هبات أرسطو الفكرية، مدمر للسعادة؛ فهو يمكن أن يطغى على كل شخصية الحاسد ويؤدّي إلى الهوس. ويمكن أن يؤدّي إلى اعتداءات جائرة تمامًا على من نوجّه له هذا الحسد؛ وفي العالم الحديث، غالبًا ما تتخذ أشكال الحسد هذه صورة مضايقات خبيثة بغیضة أو هجمات إلكترونية. وفي الحالات المتطرّفة، يمكن أن يؤدّي الحسد إلى حرمان المجتمع بأسره من أعمال عبقرية إذا تسبّب في إعاقة التقدّم المهني لشخص موهوب.

وقد تجسّد التأثير السام للحسد على نحو درامي رائع في مسرحية «أماديوس» *Amadeus* لبيرت شافر في العام 1979، والتي تم تعديلها لتصبح سيناريو فيلم ميلوش فورمان الحائز على عدة جوائز أوسكار في العام 1984. يکن الموسيقي المتواضع ساليري حسدًا شديدًا هوسيًا بسبب السهولة التي ينتج بها منافسه الأصغر سنًا، موتسارت، روائع

مذهلة. يحاول سالييري تدمير الحياة المهنية لموتسارت بكل وسيلة ممكنة، ويغتابه ويطعن فيه عند الإمبراطور. ويخطّط سالييري لسرقة مقطوعة «قداس الموتى» *Requiem* الرائعة التي لا مثيل لها ونسبتها إلى نفسه. وعلى فراش الموت، يعترف سالييري بأنه سمّم موتسارت بالفعل. ولا يعني هذا أن موتسارت لم يكمل المقطوعة فحسب، بل يعني أيضًا أن العالم ربما يكون قد حُرِمَ من عشرات الأعمال الرائعة التي كان يمكن لموتسارت أن يقدّمها لو عاش عمرًا أطول؛ إذ مات وهو في منتصف الثلاثينات من عمره.

وعلى الرغم من أن مكيدة سالييري القاتلة من نسج الخيال (لأنه في الواقع كان يبدو صديقًا حميمًا لموتسارت، واعتنى بابنه حين صار يتيمًا بموت والده)، فإن النجاح العالمي للفيلم يُظهر إلى أي مدى يعتبر تجسيد الحسد كقوة هوسية مسألة شائعة عبر الثقافات. وقد كان المصدر الذي استقى منه شافير القصة هو مسرحية تراجيدية من العام 1832 للمؤلف الروسي ألكسندر بوشكين. وفي النصّ الذي كتبه بوشكين، يتمّ التعبير عن تحليل سالييري لحسده الوحشي القاتل بوضوح شديد؛ إذ يقول: «سأقولها. / أنا حسود. أنا أحسد؛ بشدّة، / أنا الآن أحسد بعمق». إنه ببساطة لا يستطيع قبول الظلم الطبيعي للمجتمع البشري، الذي يولد فيه بعض الناس أكثر قدرة أو موهبة من غيرهم:

أين، أين الحق؟ حين تأتي الهبة السماوية المقدّسة،
العبقريّة الخالدة، ليس على سبيل المكافأة
على الحب المحموم، والرفض الكامل للذات،
ولا العمل، ولا الجهد، ولا التضرّعات،
وإنما تلقي بضيائها على رأس مجنون،
على جبهة هلفوت كسول بليد... موتسارت، موتسارت!

يوصي أرسطو بأن تسأل نفسك عما إذا كنت تحسد شخصاً ما لأنه نال نصيباً جائزاً من المزايا الاجتماعية، أو لأنه وُلِدَ بهبات فطرية أكثر مما لديك. في الحالة الأولى، يمكن أن يحفزك حسدك على السعي لتحقيق العدالة والمساواة، ولكن في الحالة الثانية، فكّر كيف أن الهبات الفطرية لهذا الشخص تعزز في الحقيقة حياتك أنت نفسك. فلو أن زملاء أرسطو الأكاديميين قد اختاروه رئيساً لهم، لكان قد حقق مكانة كبيرة لمؤسستهم، بدلاً من أن يرحل عنها، ويؤسس في الوقت المناسب جامعته الخاصة المنافسة لهم في أثينا، الليسيوم. كانت سمعتهم هم أنفسهم، وهي سمعة متواضعة في يومنا هذا، ستتعزيز من خلال السماح لهم بممارسة الفلسفة في «تياره» الجارف، كما تبين لاحقاً. وبوصفهم هم أنفسهم فلاسفة، فلربما حتى كانوا قد تعلموا الاستمتاع برفقته، بدلاً من ازدرائه.

كذلك كان الغضب يبهز أرسطو. و«الوسط» هنا هو اللطف، أو الهدوء، أو الرفق. ويعلّق أرسطو على ذلك بأنه لا توجد في الواقع كلمة في اليونانية معناها الدقيق هو اللطف المفرط، ويقترح مصطلح «الافتقار للحماسة»؛ ويمكننا أن نستخدم مصطلح الفتور أو اللامبالاة. ويقول أرسطو إن هذا خطأ، و«أولئك الذين لا يغضبون من أشياء يكون من الصواب أن يغضبوا منها يعتبرون حمقى، وكذلك أولئك الذين لا يغضبون بالطريقة المناسبة، وفي الوقت المناسب، وللمدة الزمنية المناسبة، ومع الأشخاص المناسبين. فإذا كنت لا تشعر بالظلم أو الإساءة أو تغضب منهما، ولا تغضب أبداً، سواء لنفسك أو نيابة عن أصدقائك حين يكونون ضحايا الظلم، فهذه علامة على خلل في الأخلاق. سوف يظن الناس أنك لا تحترم نفسك، وأنتك غير قادر على الدفاع عن أي شيء. ويضيف أرسطو قائلاً إن الغضب يكون أحياناً فاضلاً ومشروعاً.

هناك العديد من أسباب الغضب، وبالطبع يقدم لنا الأدب اليوناني القديم مئات الأمثلة على ذلك، من غضب ميديا على زوجها الزاني، إلى

غضب المحارب العظيم أياكس حين حُرِم من أسلحة أخيل الرائعة بعد مقتل أخيل. ولكن إذا كنت تعاني من نوبات غضب شديدة طوال الوقت، فربما كان من الملائم أن ندعوك نَزَقًا عَنِيفًا. وقد يغضب الشخص التزق على الأشخاص غير المناسبين (مثل الوالد الذي ينفس عن ضغوط العمل بالانفجار في أطفاله بدلًا من التحدّث عنها مع رئيسه). وقد يغضب لأسباب خاطئة (لديّ جارة لم يتحدّث إليها زوجها لمدة أسبوعين كاملين لمجرد أنها أغلقت السيارة المستأجرة والمفاتيح في داخلها بطريق الخطأ في عطلة عائلية). وقد يغضب بعنف أكبر مما يتطلّبه الأمر، أو يطيح بالأشياء بسرعة أكبر مما ينبغي، أو يظلّ غاضبًا لفترة أطول مما يجب، حتى بعد تقديم اعتذار وتعويض مناسبين. ويعتقد أرسطو بأن الفئة الأخيرة هي الأكثر إشكالية. إن أفضل شكل من أشكال الغضب هو غضب الشخص الذي يتغيّر مزاجه بسرعة، الذي يعبر عن غضبه صراحة ويرد الإساءة بمثلهما، ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد. لكن الأشخاص الذين يعانون من الشعور بالمرارة، والحقّد، والتجهم بطبيعتهم يمثلون مشكلة خطيرة: «يظلّون غاضبين لفترة طويلة، لأنهم يكتبون غضبهم بداخلهم». فإذا لم تُظهر غضبك عندما تشعر به، فسوف «تتّن تحت وطأة الشعور بالاستياء». وبما أن غضبك مخفي بداخلك، فلن يحاول أحد استرضاءك، «ويستغرق الأمر وقتًا طويلًا ليهضم المرء غضبه بداخله. والشعور بالمرارة هو أكثر أشكال المزاج السيئ إزعاجًا للإنسان نفسه ولأقرب أصدقائه على حدٍ سواء». لذا، احرص على أن تفرّغ غضبك لنفسك وللشخص المسيء، واطرح أسباب غضبك بوضوح، وانسه وامنّ قدمًا بعد تنقية الأجواء. يجد الكثيرون منا أن هذا أمر عسير، ولا يبدأون في التحسّن في هذا النوع من الصدق العاطفي سوى في منتصف العمر. غير أن أرسطو يعلم مدى صعوبة التكيّف مع الغضب أثناء محاولة عيش «حياة طيبة»؛ إذ يقول: «ليس من السهل أن نحدّد بأي طريقة، ومع

من، وعلى أي أساس، وإلى متى، ينبغي أن يكون المرء غاضبًا، وإلى أي مدى يحقّ للمرء أن يصل بغضبه، وأين بدأ الخطأ.

في تقييمي الشخصي لذاتي، اكتشفت أنه على الرغم من أنه لا الغضب ولا الحسد يؤرقاني، فإنني أميل بطبعي إلى الانتقام. لقد كان عليّ خلال السنوات القليلة الماضية أن أتعامل مع هذا الأمر إلى حدّ ما، من خلال التعلّم من أرسطو، الذي اقتبست منه دوروثي باركر وهو يتحدث عن هذا الأمر قوله: «العيش الطيب هو أفضل انتقام». ارتق فوق قذارة الحسد والغيبة الخبيثة وكن سعيدًا! تجاهل منتقديك الذين ينتقصون منك؛ فإذا كنت تبذل قصارى جهدك، فلن يكون انتقادك بنية طيبة. وسيصل الإنسان صاحب الروح العظيمة حقًا إلى نقطة السكينة والطمأنينة حيث «لا يحمل عنده ضغينة، لأنه ليس من علامات عظمة الروح أن تتذكّر الأشياء البغيضة التي فعلها الناس - لا سيما إساءاتهم إليك - بل أن تتغاضى عنها». ومن ناحية أخرى، يعتقد أرسطو بأن ثمة وقتًا ومكانًا ليس فقط للمشاعر الانتقامية، مثل الغضب، ولكن أيضًا للأفعال الانتقامية. وكما هو متوقّع من شخص قضى الكثير من الوقت في الأجواء السياسية المحيطة بالملك فيليب ملك مقدونيا، فإن آراء أرسطو المتبصرة بشأن الانتقام صريحة، وعميقة، ومفيدة. ففي المجلد الرابع من كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، يزعم أرسطو أنه حتى المشاعر الانتقامية قد تكون فاضلة وعقلانية.

لا يستبعد أرسطو تمامًا متعة الانتقام. كما أنه يدرك أن الانتقام غالبًا ما يتعلّق باسترداد شرفنا أو مكانتنا إذا تعرضنا للإهانة. لي صديقة مقربة حرصت على أن يراها الناس في حفل في مكان العمل بثوب جديد مع رجل وسيم، وبهذا تجعل زوجها السابق، الذي عاملها بشكل سيئ، يحترمها ويشعر بالألم لفقدانها. تقول إن تلك كانت واحدة من أسعد لحظات حياتها، وأنها سهّلت عليها المضي قدمًا والسعي وراء السعادة

في علاقة جديدة. لكن وجهة نظر أرسطو هي أن الرغبة في الانتقام من المرجح أن تكون فضيلة وبالتالي تؤدي بك إلى السعادة فقط إذا كان ثمة خطأ يمكن تصحيحه عن طريق الانتقام. وتصحيح الخطأ من شأنه أن يمنع وقوع خطأ مشابه في المستقبل، على الأقل من جانب الشخص نفسه.

وعندما نتحدث عن تصحيح الأخطاء، تصبح المسألة متشابكة مع القانون بطبيعة الحال. ففي حالات الجرائم الخطيرة، مثل التشهير، أو السرقة، أو الاعتداء، أو الاغتصاب، أو القتل، يحق للضحايا وأحبائهم أن تكون لديهم مشاعر انتقامية يتم إشباعها عن طريق رؤية الجاني يُعاقب بالقانون. هذا هو الفكر الذي تقوم عليه حملات حقوق الضحايا، وحقوق أقارب ضحايا القتل في الضغط من أجل عقوبة الإعدام، في الولايات المتحدة الأمريكية. لكن ما يهم أرسطو هو الإهانات اليومية التي تشكل خطأ واضحًا، على الرغم من أنها لا تمثل جرائم.

في المجلد الثاني من كتابه «الخطابة» *Rhetoric*، يعرف أرسطو غضب الانتقام المشروع والفاضل على نحو محدد للغاية بأنه «رغبة مصحوبة بالألم في انتقام واضح من أجل إهانة واضحة من أناس ليس لهم الحق في إهانة المرء أو إهانة أصدقائه». والأشخاص الذين يهينون المرء أو يهينون أصدقاءه من دون أي مبرر عادة ما يكون دافعهم هو الحسد (وكذلك مزعجو الإنترنت الذين يهاجمون المشاهير الأغنياء، أو الجميلين، أو الناجحين). وإذا أساءوا إليك وجرحوك على الملأ، فلا بأس بأن ترغب في الانتقام منهم على الملأ أيضًا.

فما الذي يقصده أرسطو بكلمة «إهانة»؟ يقول أرسطو إن الإهانة يمكن أن تأخذ ثلاثة أشكال: الازدراء، والحقد، والوقاحة. وهو يعطي مثالين على ما يسميه الازدراء، أو عدم الاحترام. والمثال الأول منهما سيلقى صدى لدى كل شخص تعامل مع شخص يستخدم «الدعابة»

للتهرّب من مواجهة جدّية ما تقوله. يقول أرسطو عن هؤلاء: «أولئك الذين يردّون بدعابة ساخرة حين نتحدّث معهم بجدية». والفيلم السينمائي الذي يوضح هذه النقطة الأرسطية إلى حد الكمال هو فيلم باتريس ليكونتي الذي يحمل عنوان «سخرية» (1996) *Ridicule*، الذي يردّ فيه الأرسطراطيون الفرنسيون بنكات ساخرة على المطالبات الجادة اليائسة للفلاحين المحليين لتجفيف المستنقعات التي تسبّب في إصابة أطفالهم بأمراض حادة. وقد اشتكت أستاذة جامعية أعرفها إلى قسم شؤون العاملين في مؤسستها لأن أحد زملائها كان دائماً ما يلقي بنكات متحيّزة ضد المرأة بشأن عدم قدرة النساء على فتح الأبواب لأنفسهنّ. وكان رد هذا الشخص عند استدعائه للمساءلة والتفسير أن زميلته لا يمكنها أن «تحمّل مزحة». والمثال الثاني الذي يعطيه أرسطو على الازدراء هو «أولئك الذين يعاملوننا بطريقة أقل جودة مما يعاملون به أي شخص آخر؛ إنها علامة أخرى على الازدراء أنهم يعتقدون بأننا لا نستحق ما يستحقّه أي شخص آخر». ويقع التمرّ، والاضطهاد، والتمييز ضمن هذه الفئة. وسوف يوافقنا أي والد تعرّض طفله للتمرّ على أن الغضب مشروع تماماً، بل فاضل في الواقع، في مثل هذه الظروف، تماماً مثل الرغبة في رؤية الخطأ يجري تصحيحه.

وبعد الازدراء، الفئة الثانية من الإهانة لدى أرسطو هي الحقد. والمثال الذي يقدّمه أرسطو هو «منع شخص آخر من تحقيق رغباته»، عندما لا يكون دافعك الحصول على ما تريده لنفسك. بل دافعك الوحيد هو إعاقة ضحيتك. يمكنني التفكير في العديد من الأمثلة على هذا النوع من السلوك في حياتي المهنية. يبذل بعض الناس جهوداً هائلة واستثنائية فقط لعرقلة الحياة المهنية لشخص يكرهونه، على الرغم من أنه ليس في مجال منافسة معهم. في الأوساط الأكاديمية، «مراجعة الأقران» هي أن يكتب الباحثون تقارير مجهولة المصدر عن المقالات والأبحاث التي كتبها

باحثون آخرون، في محاولة لإضفاء الشرعية على الهجمات الحقودة. وقد تؤثر مراجعة سيئة سلباً على الحياة المهنية لشخص آخر، لا سيما إذا تم رفض المقالة أو البحث نتيجة لها. وفي كثير من الأحيان، تُكتب مراجعات سلبية غير منصفة من دون مبرر على الإطلاق. كما أن النظام يحمي المراجعين الحاقدين من الاضطرار إلى تبرير رأيهم المذكور. وفي الحياة الشخصية، تقترف نساء مثل «جولين» في أغنية دوللي بارتون هذا النوع من الأفعال الحاقدة. فضمير «الأنثى» في تلك الأغنية هو صوت امرأة أقل جمالاً تحب رجلاً. وهي تتوسل إلى جولين قائلة: «أرجوك لا تأخذه لمجرد أنك تستطيعين ذلك». وقد شاركت صديقة لي ذات مرة منزلاً مع امرأة رائعة الجمال تغري أزواج النساء الأخريات عادةً، ليس لأنها تريدهم، أو لأن لديها أي رغبة أو نية للبقاء معهم، بل لأنها كانت على علاقة سيئة بأمرها، وكانت تستمتع بحقدٍ بمنع أي امرأة متزوجة من الشعور بالسعادة.

والفتة الثالثة والأخيرة من فئات الإهانة عند أرسطو هي الوقاحة. وهو يُعرّف هذا على أنه «فعل أشياء، أو التصرف بطرق وقول أشياء تُشعر الضحية بالخجل والعار على الرغم من أن هذا لن يفيد المرء ذاته على نحو مباشر، ولن يعوّضه عن أي إساءة حدثت قبل ذلك، ولكن فقط من أجل المتعة التي ينطوي عليها ذلك». ويقول أرسطو إن المتعة هنا ناتجة عن مشاعر التفوق على الآخرين، والتي يستمدّها الشخص الوقح من خلال السخرية منهم أو إساءة معاملتهم. إن إهانة شخص آخر ببساطة، والسخرية منه، سواء في وجهه أو من خلف ظهره، يجعل الشخص الوقح يشعر - مؤقتاً - بشعور أفضل تجاه نفسه. يُظهر أرسطو فطنة نفسية ملحوظة من خلال فهمه أن الأشخاص الذين يحتاجون إلى توجيه نقد سلبي للآخرين تكون لديهم على الدوام مشكلة في احترام أنفسهم. إن أي نوع من الإهانة يستخدم فيه الضحك للتحقير يعبر عنها شخص

ما يثير الشكوك حول مدى توافق حسّ الدعابة مع محاولة المرء أن يكون أفضل نسخة ممكنة من ذاته. إن الناس عموماً يسعدهم الضحك، ويستمتعون بإضحاك الآخرين كذلك؛ فحسّ الدعابة هو أداة مفيدة على نحو استثنائي في جميع أنواع المواقف الاجتماعية، حيث يجعل من الأسهل كثيراً تحمل الأوقات الصعبة، ويقلّص التفاخر، ويخلق روابط إنسانية رغم الاختلافات السياسية. فالضحك يعتبر شيئاً جيداً ولا توجد حدود لدوره في حياة الشخص الذي يحاول ممارسة الفضيلة. إن الأمر كله مرجعه إلى النية أو القصد. فالأشخاص الذين ينوون تحويل كل شيء -بما في ذلك الأمور الجدية- إلى مزحة، لا يهتمون بـ«حدود ما هو مناسب»، أو بتجنّب «إنزال الألم بالشخص الذي يتهكمون عليه». وعلى طرف نقيص، ثمة أناس لا يمكن إضحاحهم مطلقاً، وغير قادرين هم أنفسهم على أن يكونوا مرحين: «ومن الصواب أن يُنظر إليهم على أنهم أفضاظ، غلاظ، كئيبيون». أما الوسط الذهبي فهو استخدام الدعابة شريطة ألا تكون غير لائقة أو مؤذية. ويقول أرسطو إن هذا النوع من الدعابة البهيجة لا يبدو مصطنعاً أو متكلفاً، وإنما ينبع من شخصية ذات حسّ دعابة جيّد.

وثمة قاعدة عامة واحدة: لا تُلقِ سوى بالنكات التي تكون أنت نفسك مستعداً لتقبّل أن تُقال عنك أو أمامك. تخيل امرأة شابة من خلفية مسيحية صارمة تكون نسوبتها عرضة لأي نوع من السخرية من أفراد عائلتها الحميمة، في حين أن معتقدات والدها الدينية مقدّسة؛ حيث لا يمكن أن يزعجه أحد بشأنها من دون أن يتعرّض للانتقام منه. عندما يتعلّق الأمر بالضحك، من المهم أن تكون قادراً على تلقّي مثل ما تعطيه. أو «عامل الناس كما تحب أن يعاملوك»، كما أكّدت العانس المائة الأكثر رقة في رواية تشارلز كينجسلي، «أطفال الماء» (1863) *The Water Babies*.
في المجلد الثاني من كتابه «أخلاقيات يوديميان»، يقدّم أرسطو

جدولاً مفيداً يوضح صفات شخصية مختلفة. وهو يوضح في كل حالة «الفضيلة» التي تتكوّن من خلال امتلاك كل صفة بالقدر المناسب، إلى جانب الرذيلتين المرتبطتين بكل فضيلة على كلا الطرفين، أي ما إذا كانت الصفة موجودة بإفراط أو غائبة. ولعل أرسطو أجلس الإسكندر الأكبر حين كان شاباً إلى جوار أقرانه في ميزا -وهي الكلية التي بناها الملك فيليب لأرسطو في وادٍ جميل من وديان مقدونيا- لإكمال الجدول كنوع من اختبارات الشخصية؛ أو تدريب على تقييم الذات. ويمكنك استخدام الجدول كقائمة مرجعية بنفسك، أو مع صديق أهل للثقة يمكنك الاعتماد عليه في أن يكون صادقاً معك، أي إنه لا يحاول تسجيل نقاط، ولا أن يطلق عليك أحكاماً مسبقة:

جدول الفضائل والرذائل

مجال الفعل أو الشعور	إفراط	توسط	نقص
الخوف والثقة بالنفس	الطّيش	الشجاعة	الجبن
المتعة والألم	الشهوة المفرطة	الاعتدال	البلاهة
الكسب والإنفاق (في حدود صغرى)	التبذير	السخاء	عدم السخاء
الكسب والإنفاق (في حدود كبرى)	السّوقية	العظمة	النذالة
الشرف والفضّة (في حدود كبرى)	الخيلاء والغرور	الشّهامة	الجبن
الشرف والفضّة (في حدود صغرى)	الطمّوح	الطمّوح المعقول	انعدام الطموح
الغضب	شدة الانفعال	الصبر	الخواء

مجال الفعل أو الشعور	إفراط	توسط	نقص
التعبير عن النفس	التشدق	الصدق	التواضع
المحادثة	التهريج	الظرف	الإضجار
السلوك الاجتماعي	فرط المجاملة	المودة	المشاكسة
مشاعر الخجل	الاستحياء	التواضع	قلة الحياء
مشاعر الاستياء والسخط	الحسد	الاستياء المحق	السرور الخبيث

جدول الفضائل والرذائل لدى أرسطو

والفضيلة التي يوليها أرسطو أقصى درجات الشدة العاطفية واللغة البليغة المنمقة هي فضيلة الكرم. والرذيلتان المرتبطتان بها هما الإسراف أو تبذير المال من جهة، والخسة أو البخل من جهة أخرى. ومن الواضح لي ولأفراد عائلتي في أي اتجاه أخطئ فيه شخصيًا في هذا الصدد. لقد وُصفت كثيرًا بأنني «مفرطة في الكرم» أو «سخاء في غير محله»، وهو ما كان أرسطو يسميه «تبذير» المال؛ أي إهداره على نحو غير مسؤول وغير متناسب مع إمكانيات المرء. وهذا من شأنه أن يهدد قدرتك ليس فقط على الاكتفاء الذاتي اقتصاديًا، والعناية بنفسك، ولكن أيضًا على العناية بأناس آخرين يعتمدون عليك. وقد يكون القديس فرنسيس الأسيزي قد فعل شيئًا نبيلًا بإعطاء متسول متشرد عباءته الوحيدة، لكنه بعد فعله هذا أصيب بالمرض، وبالتالي خاطر بأن لا يكون مفيدًا لأحد آخر من بعد ذلك.

والمثال الأكثر شهرة على «السخاء في غير موضعه» في ثقافتنا هو الشخصية الرئيسية في مسرحية شكسبير المتأخرة «تيمون الأثيني»

Timon of Athens، والتي تستند إلى قصة يونانية قديمة كان أرسطو يعرفها حتمًا. كان تيمون رجلًا نبيلًا ثريًا يتسم بالسخاء المفرط: فهو يسدّد ديون أصدقائه التي سُجنوا بسببها، ويساعد رجلًا فقيرًا على الزواج من المرأة الأكثر ثراءً التي يحبّها، ويقيم حفلات عشاء فاخرة على نفقته. وهذا الكرم المفرط يؤدّي حتمًا إلى الإفلاس. بعدها يشعر تيمون بخيبة أمل بائسة بسبب امتناع «أصدقائه» المفترضين عن مساعدته وقد بات الآن يواجه أوقاتًا عصيبة، وينسحب إلى كهف ليعيش فيه حياة ناسك تملأه المرارة ويغض البشر. توضح المسرحية تمامًا أن المشكلة لا تكمن في الكرم ذاته، وهو دافع نبيل ينطوي على الإيثار، ولكن يمكن استغلاله بسهولة من جانب أصدقاء زائفين لا يردّون بالمثل عندما تكون أنت في حاجة إليهم.

يهاجم أرسطو بشدة الخسة المالية على نحو يؤكّد لي أنه كان يفكر في شخص معيّن أثناء كتابته عن هذا الأمر. فهل كان والده نيقوماخوس، الذي كان طبيبًا من الطبقة الوسطى في مدينة استاجيرا اليونانية الواقعة في الشمال الشرقي، يعطيه مصروف جيب يقدر بربع ما كان يحصل عليه زملاؤه في المدرسة؟ أم هل كان فيليب الثاني -برغم تشييده للتماثيل الرائعة، وإقامته لحفلات الشراب الأسطورية- شحيح اليد عندما يتعلق الأمر بموظفيه؟

يستخدم أرسطو بعض الكلمات الاصطلاحية المهيئة للمرادف اليوناني القديم لكلمة Scrooge التي كان يستخدمها تشارلز ديكنز، والتي تعني «بخيل»، ومن بين هذه الكلمات: *pheidolos* (شحيح)، و *glischros* (لزوج)؛ وهي تعني أنه لا يمكن أخذ المال من هذا الشخص)، و *kimbix* (دنيء). وأفضل الكلمات التي استخدمها هي كلمة *kuminopristes*، والتي تعني حرفيًا «شخص يقسم حتى بذرة الكمون إلى نصفين»؛ ويذكرني هذا بالبخيل الشهير الذي يضرب به المثل، الذي

يجقّف كيس الشاي ليعيد استخدامه مرة بعد مرة. ولعلنا لن نعرف أبدًا هوية الشخص الذي كان يقسم بذور الكمون، غير أن وجهات نظره البلاغية المختلفة حول فضيلة الكرم تظلّ سارية.

وتمثّل السياسة بلا شك إحدى زوايا التعامل مع الأثرياء ثراءً فاحشًا. فأرسطو لا يعتبر الثروة شيئًا مميّزًا؛ بل هي شيء يمكننا استخدامه، مثل الأشياء الأخرى التي نمتلكها، ويمكن استخدامها على نحو جيّد أو سيّئ. ويقول أرسطو بوضوح لا لبس فيه إن استخدام الثروة على نحو جيّد ينطوي على الكرم. إن فاحشي الثراء الذين لا يعطون أبدًا لمن هم أقلّ منهم حظًا وثروة لا يمكن أن يكونوا سعداء أبدًا، لأنهم يعيشون برذيلة الخسّة والدناءة وليس بفضيلة الكرم. والإنسان الكريم يهتم أيضًا بـ«إعطاء المستفيدين المناسبين» في الوقت المناسب، ويقضي وقتًا أطول في التفكير في هذا السؤال وليس في القلق بشأن اكتساب الثروة. ويتقبّل أرسطو فكرة أن الرجل الفاضل يجب أن يكون على يقين من أن أمواله تأتي من مصادر مشروعة وأخلاقية. لكن بما أن الرجل الكريم لا يحترم الثروة في حدّ ذاتها، فمن غير المرجّح أن يفكر في محاولة اكتسابها من مصادر غير أخلاقية. والكرماء لا يطلبون عادةً خدمات من الآخرين: فالشخص «الذي يمنح الهبات لا يتقبّلها بسهولة».

يقول أرسطو إن الكرم مرتبط بموارد الفرد؛ فنحن لا نقيّم سخاء الهدية بحسب قيمتها المادية، ولكن بحسب نيّة المانح وطباعه وشخصيته. والشخص الكريم يفكر بجديّة في مقدار ما لديه وما هي النسبة التي يمكنه التصدّق بها من دون الإضرار بسعادته أو رفاهيته هو أو من يعول. وفي المكافئ الفلسفي للقصة التوراتية عن الفلّس الذي تصدّقت به الأرملة، التي رواها يسوع في إنجيلي مرقس ولوقا، يخبرنا أرسطو أنه «يمكن إذاً أن يكون المتصدّق بمبلغ أصغر هو الأكثر كرمًا»، إذا كان يتصدّق من «مال أقلّ».

ويأخذ المبدأ القائل بأن المتعة يمكن أن تكون فاضلة شكلاً مثيراً للاهتمام في حالة الكرم. فالشخص الكريم الذي يعطي بسخاء، للأشخاص المناسبين وفي الوقت المناسب، يعطي «بسرور، أو في جميع الأحوال من دون ألم». أما إذا كان الناس يتصدّقون بدافع آخر (تبادر إلى الذهن سيناريوات الإكراه العاطفي أو التسلط على شخص آخر)، فمن الواضح أنهم ليسوا من الكرماء على الإطلاق. وكذلك ليس الكريم من يشعر بالألم عندما يتصدّق من ماله، فهذا الشخص لن يتصدّق إذا ظنَّ أن أحداً لن يتحدّث عن مدى شحّه وبخله. ومع ذلك، يؤكّد أرسطو أن الشخص الكريم حقاً عرضة دائماً لرذيلة التصدّق بأمواله على نحو غير مسؤول، إلى حدّ أن يُفقّر نفسه فعلياً ليصير أكثر فقراً من أولئك الذين يتصدّق عليهم، «لأنه من علامات الكرم الحقيقي ألا يهتم المرء بأمر نفسه».

لقد فكّر أرسطو ملياً في الخسّة المالية وأسبابها. وعن ذلك يقول: «يشتهر الرجال الذين ورثوا ثروة بأنهم أكثر كرمًا من أولئك الذين صنعوا ثرواتهم بأنفسهم، لأنهم لم يعرفوا أبداً معنى الحرمان». ولست على يقين من أنني أتفق مع أرسطو هنا. لقد عرفت رجال أعمال عصاميين يتبرّعون بكل ما يمتلكون تقريباً من أجل قضايا خيرة، كما عرفت بالتأكيد أكثر من شخص بخيل على نحو مرّضي على الرغم من أنه وُلِدَ في الثراء والبجوحة. غير أن منطق أرسطو هنا مثير للاهتمام أيضاً؛ فهو يفترض أن معاناة المرء من الفقر تجعله أكثر بخلًا وتقتيرًا (وعلى عكس بعض الفلاسفة القدامى الآخرين الذين كانوا يظنّون بأن الحرمان الجسدي يمكن أن يعزّز الحياة الروحية للإنسان، فليس لدى أرسطو أي شيء إيجابي يقوله عن الفقر). والأرجح أنه كان يفكر في آراء طائفة ما، زاهدة متنسّكة، عندما علّق قائلاً إنه من الصعب على الإنسان الكريم أن يظل ثرياً، لأنه لا يجيد كسب المال أو الاحتفاظ به، «في حين أنه ينفق المال

ببذخ، ولا يقدر الثروة لذاتها وإنما يقدرها كوسيلة للعتاء. ومن ثمّ يلوم الناس الثروة، لأن الرجال الأكثر جدارة هم الأقل ثراءً. لكن هذا أمر طبيعي تمامًا في واقع الأمر: فالمرء لا يسعه كسب المال - مثل أي أشياء أخرى - من دون بذل جهد للحصول عليه. ويعتقد أرسطو كذلك بأن الرجال العصاميين يميلون إلى اللؤم والخسة لأن «كل إنسان يكون مغرمًا بشدة بالشيء الذي صنعه بنفسه: وحتى الأدباء والشعراء دليل يوضح هذا».

يعتقد أرسطو بأن من الأفضل أن نميل نحو الإفراط في الكرم عن النقيض، لأن هذا أمر «يمكن علاجه بسهولة، إذا تقدم الإنسان في العمر أو أصابه الفقر». ولما كان الشخص الذي ينفق الكثير على الآخرين هو شخص كريم، فمن الممكن إصلاحه بحيث يعطي ماله فقط في الحالات المناسبة. والشخص المفرط في الكرم «أحمق، ولكنه ليس شريرًا أو حقيرًا». أما البخيل اللئيم فهو لا يفيد أحدًا على الإطلاق، ولا حتى نفسه، لأنه لا يمكن إصلاحه ولا يمكنه ممارسة فضيلة الكرم. وهذا الشخص لن يعيش أبدًا حياة طيبة ولن ينال السعادة الحقيقية. ويأسف أرسطو لحقيقة أن عددًا أكبر من البشر أكثر ميلًا بطبيعتهم للبخل والجشع من ميلهم للكرم، ويبدو أن هذا الجشع يتخذ أشكالًا متنوعة.

بعض الناس يبخلون بالمال لأنهم كبار في السن أو يعانون من ضعف من نوع آخر، وهو أمر يمكن التسامح معه والتغاضي عنه. وثمة آخرون يضخّون بكل وازع أخلاقي من أجل «الأخذ من كل المصادر، وبكل الأشكال الممكنة؛ ومثل هؤلاء هم الذين يمتنون الحرف المهينة، وحراس بيوت الدعارة، وجميع من هم على هذه الشاكلة، والمرابين الصغار الذين يقرضون مبالغ ضئيلة من المال بمعدلات فائدة عالية». وفي زمننا هذا، كان أرسطو ليصبح هو أول من يهاجم المرابين الجشعين وشركات بطاقات الائتمان التي تشجع الناس على إنفاق أكثر من دخلهم

ومراكمة الديون على أنفسهم، والاضطرار بعد ذلك إلى سدادها بأسعار فائدة مهولة.

وثمة مجموعة ثالثة تراكم الثروة على نطاق هائل؛ ويذكر أرسطو هنا «الأمراء الذين ينهبون المدن ويسرقون المعابد». وبالطبع، كان فيليب الثاني قد نال نصيبه من أعمال نهب المدن والجمع البدائي للمال بحلول الوقت الذي ذهب فيه أرسطو إلى مقدونيا لتعليم الإسكندر الأكبر، لكن الملك المقدوني كان، على الأقل، حريصًا على الالتزام بالمعايير الأساسية للتقوى وتجنب تدنيس المقدسات. ومع ذلك، كان سيصبح من الرائع والملمهم أن يكون المرء في نزهة حول الكلية الملكية في مدينة ميذا بينما كان أرسطو يخبر الإسكندر أن مثل هؤلاء الأمراء مدانون بما هو أكثر من مجرد البخل والدناءة؛ فهم أشرار تمامًا. ويكاد أرسطو يضعهم في فئة مختلفة تمامًا عن المجرمين الصغار، «المقامر، والسارق، وقاطع الطريق» جميعهم يتسمون بالدناءة بالتأكيد. إنهم يظهرون «جشعًا دينيًا»، ولكي يحققوا الأرباح، لا يبالون بتلقي الانتقاد واللم. ويرى أرسطو أن المقامر يستحق التوبيخ بأكثر مما يستحقه اللص قاطع الطريق، الذي ينهب أشخاصًا لا تربطه بهم علاقة على الأقل، في حين أن المقامر «يتربح من جيوب أصدقائه، الذين ينبغي أن يعطيهم لا أن يأخذ منهم». فالأصدقاء لم يخلقوا لكي يُستغلوا ماليًا. وإذا أخذت المال منهم، ولو كان ذلك في لعبة، فقد لا يكونون أصدقاءك لفترة أطول.

ويرى أرسطو أن الطموح هو أصعب صفة شخصية يمكن تقويمها وترويضها على الإطلاق. وفي الواقع، فإن كل ما ما يتعلق بالطموح سيكون عرضة للنقد: إذ يبدو الطموح عنصرًا غامضًا على نحو فريد من عناصر الشخصية. فالتناس يتلقون الثناء إذا كانوا يمتلكونه وإذا كانوا يفتقرون إليه على حد سواء: ففي بعض الأحيان، «نشني على الشخص الطموح باعتباره رجلًا كاملاً ومحبًا لمكارم الأشياء، أو نشني

على الشخص غير الطموح باعتباره متواضعًا ومعتدلًا». ولكن في أحيان أخرى، تنتقد الناس لكونهم طموحين أكثر مما ينبغي أو لأنهم غير طموحين بما فيه الكفاية. يقول أرسطو: «نحن نلوم الإنسان لكونه طموحًا إذا كان يسعى إلى التقدير بأكثر مما يستحق، أو يسعى لنيله من مصادر خاطئة؛ ونلومه لكونه غير طموح إذا كان لا يبالي مطلقًا بنيل التقدير لكن على أساس سليم ولائق». وما يعنيه أرسطو بـ«الطموح» هو الرغبة في نيل التقدير والتكريم العام، وليس الرغبة الأكثر تحديدًا والتي تستحق الثناء المتمثلة في تحقيق إمكاناتك لذاتها. إن الرغبة في تحقيق إمكاناتك، وتنمية موهبتك الفطرية إلى أقصى حدٍّ ممكن لتصبح أفضل عازف كمان، أو أفضل لاعب كرة قدم، أو أفضل والدٍ مربٍّ، أو أفضل بستاني، أو أفضل عالم، هي رغبة يجب تشجيعها بحفاوة والثناء عليها وتنميتها لدى الجميع. والأمر يتطلب ناقدًا يملأه الحسد إلى حدٍّ غير معقول لكي يعترض على أن يكون شخص آخر بارعًا في ما يفعله.

والجزء الصعب في الأمر هو مراقبة رغبات المرء في نيل التقدير والمزايا. ونحن كمجتمع نستمتع بشكل جماعي بإسباغ الشهرة، والجوائز، ومكافآت التميز على الأشخاص الناجحين. فهناك الجوائز الأدبية، وجوائز الأوسكار، والمسابقات الرياضية، وجوائز نوبل، وأوسمة الفروسية، وغلاف مجلة «تايم». وليس ثمة خطأ متأصل في الاستمتاع بتجربة فوز المرء بمثل هذه الجوائز والأوسمة. وإنما تنبع المشكلة عندما يصبح التعطش إلى الشهرة هو الرغبة المهيمنة والسائدة وليس أن تكون بارعًا في ما تفعله لذاته. ويمكن أن يحدث هذا بسهولة. فالشهرة قد تكون مبركة، ويدمن عليها المرء، لا سيما في مجال السياسة؛ حيث تتحالف الشهرة مع السلطة الفعلية. وقد أدرك اليونانيون القدماء ذلك جيدًا: فمسرحية أرسطو المفضلة، وهي مسرحية «أوديبوس تيرانوس» أو «أوديب ملكًا» *Oedipus Tyrannus* لسوفوكليس، تصوّر

قائدًا عمل في وقت من الأوقات لصالح الناس، ولكنه بعد ذلك -إلى جانب تمتعه بالسلطة- سمح للرغبة في أن يعتبروه القائد الأكثر ذكاءً ومقدرةً في العالم أن تتسرّب إلى رأسه. وأحد أفضل الأمثلة في الثقافة الحديثة هو ويلي ستارك، وهو غريم البطل في رواية روبرت بن وارن الفائزة بجائزة بوليتزر، والتي تحمل عنوان «كل رجال الملك» *All the King's Men* (1946)، والتي تحوّلت إلى فيلمين رائعين في العامين 1949 و2006.

تتطوّر شخصية ستارك ليصبح حاكمًا نرجسيًا وفاسدًا لولاية في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، يستمتع بالمجد الذي يحظى به بوصفه بطلاً كـ«رجل ضئيل»، والإشادة التي يتلقاها بسبب خطبه المثيرة. لكن رواية وارن تؤكد على أن ويلي بدأ حياته كمحام هاديٍّ وصادقٍ في منطقة زراعية، وفقط عندما تركّزت عليه الأضواء، تلاشى كل تواضعه أمام طموحه لتصدّر عناوين الأخبار. لقد حلّ طموحه السلبي -أي الرغبة في المجد- محل طموحه الإيجابي، الذي كان متمثلاً في قيادة رفاهه من المواطنين وتمثيلهم بشكلٍ عادلٍ. وقد أصبحت الرغبة في ما نسميه الآن «الشهرة» تمثل اليوم مشكلةً حياتيةً أكبر مما كانت عليه في اليونان القديمة. فثمة بالفعل العديد من الأشخاص الذين يفتقرون إلى أي موهبة، وبرغم ذلك يتوقون لتحقيق الشهرة من خلال برامج تلفزيون «الواقع» ووسائل التواصل الاجتماعي، ومجلات الإشاعات. ولعل أرسطو كان سينظر إلى مدمني الشهرة هؤلاء على أنهم يسعون إلى «التقدير بأكثر من القدر المناسب، أو من مصادر خاطئة».

من المهم أن نتذكّر أنه يمكن استخدام «التواضع» كعصا لقهر الأشخاص، لا سيما النساء، اللاتي تعرّضن تاريخيًا لانتقادات أقسى بكثير من الرجال بسبب الطموح، كما كانت الحال بالنسبة لهيلاري كلينتون في الانتخابات الرئاسية الأمريكية العام 2016. ودائمًا ما يكون

السؤال هو ما إذا كان الشخص الطموح قد فقد رؤيته لأهدافه الأصلية واستبدل بها الرغبة في أقصى قدر من الشهرة والدعاية للذات.

إن معايير أرسطو صارمة ومنهكة بالتأكيد، لكنه متعاطفٌ مع النضال من أجل تحديد «الوسط» المناسب والالتزام به. وهو يدمج العديد من الملاحظات المشجعة حول المواقف شديدة الصعوبة في مناقشاته للفضائل والرذائل المرتبطة بها. فعلى سبيل المثال، يؤكد أرسطو، بشكل واضح إلى حدٍّ لافت، أن تجارب الإساءة في الطفولة يمكن أن تجعل من الصعب على المرء أن يفعل الشيء الصحيح؛ ويستشهد برجل كان يُحاكم بتهمة ضرب والده. قال المتهم في خطاب دفاعه: «حسنًا، اعتاد والدي أن يضرب والده، ووالده كان يضرب والده، و(بإشارة إلى ولده الصغير)، وكذلك سيضربني ابني هنا عندما يكبر؛ هذا من عادات عائلتنا». فقد يجد الطفل الذي نشأ في ثقافة عائلية مليئة بالعنف (حتى لو أدهشنا أن المثال الذي استخدمه أرسطو يتضمّن أبناءً بالغين يضربون آباءهم، وليس آباء يضربون أطفالهم الصغار) أنه من المستحيل عليه أن يضبط نفسه عندما يتكرّر الموقف نفسه عبر الأجيال. يدرك الأطباء النفسيون جيدًا أن الانتحار يسري في بعض العائلات ومن ضمن أسباب ذلك أن السوابق تجعل هذا الاختيار يبدو استجابة «طبيعية» نسبيًا حتى للتعاسة المؤقتة.

ويرى أرسطو أن الأوان لا يفوت أبدًا وأنه يمكنك أن تغيّر رأيك في أي وقت. فإذا اكتشفت معلومات جديدة، أو كانت لديك استجابة عاطفية تشير إلى أنك قمت بتقدير موقف ما بشكل خاطئ، فقم بتغيير موقفك الذهني أو أفعالك، وإن كان ذلك في وقت متأخر من اليوم. لقد مرّ كل إنسان بمواقف تسببت فيها معلومات جديدة أو استجابة عاطفية في تغيير رأيه. كان لي صديق يعمل في مجال الأعمال التجارية وكان لديه صديق شاب يرعاه. وقد قيل له مرارًا وتكرارًا إن صديقه كان يتنمّر

على إحدى المساعدات. ولأن صديقي لم يسبق له أن رأى هذا الجانب من شخصية صديقه الشاب، ولأنه استثمر الكثير من الوقت والجهد في صداقته به ورعايته له، فقد رفض لعدة أشهر أن يأخذ هذه الادعاءات على محمل الجد. ولم تزل الغشاوة عن عينه سوى عندما أرسلت إليه رسائل البريد الإلكتروني التي تؤكد التهمة. وبعدها بوقت قصير، فقد الشاب الرعاية التي كان يحظى بها.

يعرف أرسطو جيدًا مدى صعوبة الالتزام بطريق الفضيلة في مواجهة عاطفة قوية أو رغبة شديدة؛ فهو واقعي في ما يتعلق بالعواطف. وقد انتقد بشدة فكرة سقراط القائلة إن الناس لا يحيدون عن مسارهم أو يزّلون أو يرتكبون الأخطاء إذا كانت جميع المعلومات اللازمة متاحة لهم. ويصرّ أرسطو على أن ثمة أسبابًا عديدة وراء زلل الأفراد الأكثر التزامًا بأخلاقيات الفضيلة، لذا يجب علينا أن نكون أكثر تعاطفًا مع الجميع. فيمكن للحماسة، والرغبة، والجنون، وتهديدات أخرى موجّهة لضبط الذات أن تصيب أي شخص وتقوّض إدراكه الفكري للمواقف. وبوصفه ابن طبيب، يقول أرسطو إن «الغضب، والرغبة الجنسية، وبعض المشاعر الأخرى، تغيّر في الواقع من حالة الجسد، وفي بعض الحالات تسبّب الجنون. لذا من الواضح أننا لا بد أن نعتبر أن الأشخاص الذين فقدوا السيطرة على أعصابهم ليسوا أكثر معرفة من النائمين، أو المجانين، أو السُّكاري»؛ فثمة فجوة بين ما يقولونه، ويفكرون فيه، ويفعلونه، «تمامًا كما لو كانوا ممثلين يؤدّون أدوارهم».

كذلك يرى أرسطو أن فقدان السيطرة على النفس على نحو عرضي ومؤقت يمكن تفهمه والتسامح معه إذا كان بسبب ضغط نفسي شديد ناتج عن الألم، أو النشوة، أو هزلية موقف ما. ففي مسرحية عن فيلوكتائيس من تأليف ثيودكتيس، تلدغ فيلوكتائيس أفعى وتسبّب اللدغة في إعاقته، ويبدو واضحًا أنه يصرخ من الألم؛ والصراخ في مثل هذا الموقف أمر

يمكن تفهّمه بالطبع، كما يقول أرسطو. ولو أنك مثلاً اكتشفت أن والدك مارس الجنس مع ابنتك (أي مع حفيدته)، وأنجبت منه طفلاً، كما حدث مع الملك سرسيون، فسيكون من المدهش حقاً ألا تتأبك نوبة انفجار عاطفي. وفي المثال الأخير الذي يضربه أرسطو على فقدان السيطرة المقبول على النفس، يقول إننا إذا حاولنا كبح دافع قوي للضحك، فإن «ضحكنا سينفجر في النهاية في صورة قهقهة صاخبة كبيرة، كما حدث مع أكرينوفانتوس». ومع الأسف، نحن لا نعرف بالضبط سبب مرح أكرينوفانتوس الصاخب، لكننا جميعاً عشنا مواقف انفجرنا فيها ضاحكين في مناسبات غير ملائمة على الإطلاق. ففي جنازة أحد أقارب زوجي، كان الابتذال والتنميق في خطبة القسّ عند محرقة الجثث سبباً في أن كان من المستحيل تماماً عليّ أن أحتفظ بوجه حزين متجهّم.

حتى أفضل الناس يزّلون ويرتكبون الأخطاء. والندم أو لوم الذات ليس مفيداً؛ وإنما الشيء المهم هو أن يواصل المرء المحاولة. والمثال الذي استخدمه أرسطو في هذا الصدد مثير للاهتمام، بالنظر إلى إدانته المطلقة للزنا في موضع آخر؛ حتى إن هذا المثال يجعلني أتساءل عما إذا كان قد رغب يوماً ما في زوجة رجل آخر. يقول أرسطو إن الرغبة الشديدة قد تجعل المرء يرتكب الزنا، لكنّ خطأً مندفَعاً يُرتكب لمرة واحدة من دون تفكّر وتدبّر لا يحوّل إنساناً مخلصاً تماماً إلى شخص يمكننا الإشارة إليه بإنصاف على أنه زانٍ. ولقد طوّرت لنفسي قاعدة شخصية تسمح عادةً لجميع الناس بأن يحظوا بفرصة ثانية في مثل هذه الحالات من حالات عدم السيطرة، ولكن لا مجال لفرصة ثالثة. يمكن تقبّل الأمر مع الأشخاص الذين يرتكبون خطأً واحداً، ولكن انتبه لما يسببه هذا الخطأ من ألم واعزم على عدم تكراره أبداً؛ ولكن الأشخاص الذين يؤذونك مرتين بالطريقة نفسها هم نمور مفترسة لا تستطيع تغيير جلدها.

إن أخلاقيات الفضيلة شديدة الثراء والتطوّر والتعقيد لدرجة أنها

يمكنها حقًا أن تبقي الشخص الذي يعتنقها مشغولًا بها مدى الحياة. ويقرّ أرسطو بأن العثور على «الوسط» *meson* في أفعالنا يُعدُّ أمرًا صعبًا. فردود الفعل المتطرّفة أسهل بكثير من التفاعلات المُعدّة بعناية. وفي المجلد الثاني من كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، يستخدم أرسطو مقارنة مستقاة من علم الهندسة، ويقول إنها «لمهّمة صعبة أن تكون بارعًا، لأنه من الصعب العثور على النقطة الوسطى في أي شيء: فعلى سبيل المثال، لا يستطيع كل الناس تحديد مركز الدائرة، وإنما يستطيع ذلك فقط شخص يعرف الهندسة». ولعل كل واحد منا بحاجة إلى التفكير في العثور على الاستجابة المتوسطة المناسبة في كل موقف، ويتدرّب على استخدامها، تمامًا مثلما يتعلّم الطفل كيف يمكنه تحديد مركز الدائرة أو طول الوتر. ويقدم أرسطو هنا المزيد من الأمثلة التوضيحية؛ فيقول: «يمكن لأي شخص أن يغضب؛ هذا أمر سهل، وكذلك إعطاء المال وإنفاقه؛ ولكن يجب أن تغضب من الشخص المناسب، أو تعطي مالك للشخص المناسب، وبالقدر المناسب، وفي الوقت المناسب، ومن أجل الهدف المناسب، وبالطريقة المناسبة؛ وهذا ليس في مقدرة كل الناس، وهو ليس بالأمر السهل».

ويطرح أرسطو بعض النصائح الإضافية حول كيفية التعرّف على الوسط الفاضل المثالي في أي ظروف معينة، والأهم من ذلك هو التمسك الدائم به. النصيحة الأولى هي أنه من المهم أن نتذكّر أنه حتى ما قد ننظر إليه عمومًا على أنه فضيلة يمكن بالفعل أن يتحوّل إلى مشكلة إذا وصل إلى حد متطرّف. فإذا تلقيت ثناءً عظيمًا من أجل إحدى الفضائل القياسية، فتذكّر حكمة معبد دلفي القائلة: «لا تفرط في أي شيء». يستخدم أرسطو كمثال أسطورة نيوب، التي فقدت جميع أطفالها الأحباء الأربعة عشر، فقط لأنها كانت فخورة بهم أكثر مما ينبغي. ومن الممكن أيضًا أن يحب المرء والديه أكثر مما ينبغي: فقد ذكر أرسطو مثالًا عن

رجل يُدعى ساتيروس كان في غاية الذهول عندما توفى والده إلى درجة أنه انتحر.

والنصيحة الثانية هي أن إحدى الرذيلتين المرتبطتين بالفضيلة دائماً ما تكون أسوأ من نظيرتها. فعلى سبيل المثال، يعتقد أرسطو بأنه من الأفضل أن تكون سخياً إلى حد مفرط على أن تكون بخيلاً، على الرغم من أن الأفضل من كل ذلك هو أن تكون كريماً بالقدر المناسب. ومن الأفضل أن تبخس حق نفسك على أن تكون فخوراً متغطرساً، على الرغم من أن الأفضل من كل ذلك هو أن تجري تقييماً ذاتياً دقيقاً لإنجازاتك، وأن تكون صادقاً ولكن من دون أن تسعى للفت الانتباه لتلك الإنجازات. ويستخدم أرسطو مثالا تصويرياً من «الأوديسة»، وهو مثال مألوف لجميع طلابه، لمساعدة قرائه على تذكر المبدأ. وأحد المبادئ الجيدة في ما يتعلق «بالسعي وراء الوسط المثالي هو تجنب التطرف، الذي هو أكثر تعارضاً مع الوسط، كما يقول كاليبسو: «وجه السفينة بعيداً عن الرذاذ والموج العنيف». وقد أخطأ أرسطو قليلاً في تذكر المقطع من «الأوديسة» (12 - 219)، والذي يتحدث فيه أوديسيوس في واقع الأمر وهو يقدم إلى الملاح النصيحة التي قدّمها له الحورية الأخرى التي كان على اتصال بها، سيرس. كانت قد حذّرت من أن دوامة تشربديس أكثر خطورة من الوحش الأفعى القريب سيلا. ستغرق تشربديس سفينته، وسيهلك طاقمه بالكامل. أما سيلا فسوف تأخذ عدداً قليلاً من رجاله (وقد التهمت ستة منهم)، لكن بعضهم سينجو. وسيلا - مثل الإفراط في الكرم أو التواضع الزائف - هي أهون الشرّين.

والنصيحة الثالثة هي اكتشاف الأخطاء التي تكون أنت نفسك أكثر عرضة لها في ما يتعلق بالفضيلة والرذيلة. نحن جميعاً مختلفون عن بعضنا البعض هنا: لي زميل لطيف لا يتنمر قط على أي شخص أقل منه مكانة، ولكن كان معروفاً عنه أنه عدواني بلا أي داع تجاه الأشخاص

الأكثر منه سلطة ومكانة. وسوف تساعدنا اللذة والألم اللذان نشعر بهما في هذا السياق: فإذا علمنا أننا نسير في اتجاه خاطئ ولا نجد الطريق «الوسط»، فعادة ما يكون الاتجاه الذي نخطئ فيه هو الذي يمنحنا متعة شديدة. الزنا، على سبيل المثال، من المرجح أن يكون أكثر متعة بكثير من ترك الجنس تمامًا، والذي سيكون بمثابة الطرف الآخر. والوسط هو التمسك بممارسة الجنس مع شخص واحد، وهو ما قد يمنحك متعة أقل من الزنا، ولكنه يجعلك أكثر سعادة على المدى الطويل.

وعادة ما يكون أرسطو في أكثر حالاته وضوحًا وصدقًا حين يتحدث عن تجارب عامة مثل هذا. فبمجرد أن نحدد الاتجاه الذي ننحرف فيه عن «الوسط»، تصبح المسألة المهمة هي: «لا بد أن نسحب أنفسنا بعيدًا في الاتجاه المعاكس، لأنه بالتوجه بعيدًا عن الخطأ، سوف نأخذ الطريق الأوسط. هذه هي الطريقة التي يتبناها النجارون لتقوية الأخشاب المقوسة». فالبحارة الذين يمسكون بالدفة يعتمدون التوجه نحو أهون الخطرين، إذا ما كانوا غير متيقنين من الطريق الوسط. والنجارون يتبهنون للاتجاه الذي تنحني فيه قطعة خشب بشكل طبيعي من أجل حل المشكلة.

وتتضمن النصيحة الرابعة لأرسطو المساعدة في تجاوز التحدي الصعب المتمثل في «إبعاد أنفسنا في الاتجاه المعاكس». هذه هي الحيلة التي أسميها «نفي هيلين». ففي مقطع رثان من «الإلياذة»، نظر شيوخ طروادة نحو هيلين الجميلة التي تمشي على طول الجدران، وأدركوا جمالها الرائع (3. 156-60): «لا يمكننا أن نلوم الطرواديين والأخيين بدروعهم الرائعة على معاناتهم الشقاء الذي طال أمده من أجل هذه المرأة الرائعة. إن النظر إليها يشبه إلى حد بعيد النظر إلى الآلهة الخالدة». ومثل العديد من المعالجين النفسيين المعاصرين، يشجعنا أرسطو على التحديق في وجه الأشياء التي نرغب فيها بشكل مباشر. إن إنكار مقدار

رغبتك في تلك العلاقة خارج إطار الزواج، أو في تلك الكأس الخامسة من النبيذ، لن يساعدك على رفض أيّ منهما. لكن شيوخ طروادة يردفون قائلين: «ومع ذلك، برغم جمالها الفتان، يجب أن تغادر على متن تلك السفن، ولا تبقى هنا لتجّر علينا وعلى أولادنا من بعدنا البلايا». علم الشيوخ أن وجود هيلين في طروادة، برغم السعادة الذي أدخلها على نفوس الطرواديين، هو سبب الحرب وهو ما يهدد رخاءهم وسعادتهم على المدى الطويل. كان القرار الصائب، والمؤدي إلى سعادتهم الدائمة، هو إعادتها إلى الإغريق وإنهاء الحرب.

إن إدراك ما يمنحك أكبر قدر من المتعة، ثم التساؤل بعدها كيف يمكن لهذا أن يمنعك من السعي وراء السعادة بعقلانية، يمكن أن يساعدك على التوصل إلى المسار المعتدل بكونك شخصًا صالحًا، وبالتالي شخصًا سعيدًا. يوصي أرسطو بأن تقتبس السطور السابقة عن هيلين من هوميروس وتقولها لنفسك في كل مرة تشعر فيها بدافع للاستسلام لرغبة في نيل متعة لن تفيدك. فقد تكون معرفتك بهيلين طروادة الموجودة في حياتك أمرًا في غاية الفائدة والأهمية: فإذا تمكّنت من نفيها، يمكن لمدينة طروادة الشخصية الخاصة بك أن تزدهر بدلًا من أن ينتهي بها الأمر إلى انقراض محترقة.

الفصل السادس

النوايا

يقول أرسطو: «نحن نُثني على الناس أو نعيب عليهم وفقًا لنواياهم وليس إلى أفعالهم». ففي بعض الأحيان، يصبح ما يُضمره الناس من نوايا، وليس يفعلونه، هو الشيء الذي ينبغي أخذه في الاعتبار قبل كل شيء.

قد يكون من المشروع أحيانًا، إذا كانت نيتك طيبة، أن تلجأ إلى وسائل مشبوهة إلى حد ما لتحقيق غاياتك الفاضلة في المواقف الأكثر تعقيدًا من الناحية الأخلاقية. وقد تتوقف الحاجة إلى فعل أشياء سيئة لتحقيق هدف نبيل على مدى اضطرابك لذلك. فقد يلجأ معظم الآباء، إذا كانوا مُضطربين، إلى الكذب أو السرقة أو العنف أو ما هو أسوأ من ذلك، إذا كان مقصدهم هو تخليص أبنائهم من ضرر أو معاناة؛ هذا أمر يفهمه أرسطو تمامًا. ويقول: «يُحتمل أن يأتي البشر بأفعال بغیضة تحت وطأة الاضطراب». ويتخذ الاضطراب صورًا عدة، وقد يؤدي في أكثر أنماطه تظرًا إلى أن يهدد أحدهم أحد أحبائك بالأذى أو القتل.

ويستدل أرسطو بمثالين بسيطين. في المثال الأول، يوضح أن تسديد لكمة إلى شخص ما يُعد تعديًا مشينًا إذا كان القصد من وراء ذلك إهانة الشخص الذي تلقى اللكمة أو شعور من سدد اللكمة باللذة. ولكن في ظل ظروف أخرى، لا يكون توجيه لكمة إلى أحدهم فعلًا مشينًا على الإطلاق؛ مثل اللكمة التي تأتي كرد فعل، أو حتى تكون استباقية، ويكون

القصد منها هو الدفاع عن النفس. وفي المثال الثاني يقول إن الحصول على شيء ما دون معرفة مالكة يُعدّ نوعاً من السرقة، إذا ما كان مقصده من أخذ ذلك الشيء الاحتفاظ به، ومن ثمّ إلحاق الضرر بالمالك، لكن إذا كان مقصدك الحصول على سيارة أحدهم من أجل أن تنقل مريضاً أصيب بأزمة قلبية سريعاً إلى المستشفى، على أن تُعيدها لصاحبها لاحقاً، فلا يُعدّ ذلك سرقة؛ فقد اضطرتت إلى استعارة السيارة من دون إذن، عملاً بمبدأ أن إنقاذ حياة إنسان هو عملٌ صالحٌ.

تطرح دروس أرسطو في «الأخلاقيات السامية» ثلاث معضلات أخلاقية كثيراً ما تكون النية فيها هي الدافع الحقيقي وراء الفعل. أولى هذه المعضلات أنك قد تقترب خطأً ما بسليبتك. وثانيها أن الصدق هو الخيار الأمثل، من حيث المبدأ، وبصفة عامة. وأما المعضلة الثالثة فتمثل في أن قيم السلوك العامة والعدل أو المساواة تحتاج جميعها إلى أن تُطوَّع وفقاً لقواعد إنصاف أكثر مرونة بحسب الحالة. يؤكد أرسطو على الذات الفردية المستقلة وحريتها في اختيار تحري السلوك الأخلاقي حتى وإن أساء الجميع التصرف. ولا بد أن هذه الأفكار قد نشأت جزئياً استجابة لعوامل عدة، من بينها الصراع الداخلي المستمرّ بلا هوادة الذي شهده أرسطو في البلاط المقدوني الفخم بمدينة بيلّا في طفولته، وفي الفترة ما بين العامين 343 و336 قبل الميلاد، حين كان المعلم الخاص للإسكندر الأكبر؛ حيث كانت الصراعات على السلطة، والقتل، والابتزاز، والقهر، والعمل في الخفاء، والخداع، وجنون الارتياب، هي سمت كافة العلاقات. غير أن أرسطو نجح بطريقة ما في الحفاظ على نزاهته.

وقد تكون أكثر المسائل الأخلاقية صعوبةً هي المتعلقة بالاختيار ما بين أن تتدخل وتقوم بفعل ما وأن تمتنع عن فعل أي شيء على الإطلاق. فإذا شعرت بالقلق حيال تعرّض ابن الجيران للضرب: هل ستستصل بمسؤولي رعاية الأطفال في منطقتك أم ستلتزم الصمت خشية

أن تكون مخطئًا؟ أحد زملائك في العمل يختلس أموال الشركة: هل ستخبر رؤساءك أم ستتناهى بنفسك، خوفًا من أن توصم بالوشاية؟ وقد سلَّط جوناثان كابلان الضوء على هذه المعضلة في فيلمه «المتهم» The Accused (1988) على نحوٍ لا يُنسى، وكان هذا الفيلم هو الأول من نوعه الذي يستعرض الظلم الذي يطال، في بعض الأحيان، النساء اللاتي تعرَّضن للاغتصاب ولجأن للقضاء طلبًا لحقوقهن، إذ تعرَّض امرأة من الطبقة العاملة في حانة للاغتصاب على يد أربعة طلاب جامعيين؛ وكان لأحدهم صديقٌ حضر الواقعة من دون أن يُحرَّك ساكنًا لمنع هذا الجُرم، على الرغم مما ألَمَّ به من هلع وهو يشاهد ما يحدث. لكنه ينقذ نفسه بالاتصال برقم الطوارئ وإبلاغ الشرطة، وكان لشهادته دورٌ مهمٌ في سير الدعوى القضائية.

يُعدُّ أرسطو أول فيلسوف أخلاقي يدرك ويعلن أننا قد نظلم ونجور بإغفال الفعل أو بإتيانه؛ فقد ورد في المجلد الثالث من كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس» التعبير الأكثر دقة وإيجازًا في ذلك الشأن؛ حيث قال: «حيثما نملك حرية فعل شيء ما، فإننا نملك أيضًا حرية عدم فعله؛ وحيثما يكون بمقدورنا أن نقول «لا»، يمكننا أيضًا أن نقول «نعم»؛ لذا فإننا إذ نتحمَّل مسؤولية أن نفعل شيئًا ما عندما يكون فعله صائبًا، نتحمَّل كذلك مسؤولية عدم فعله عندما يكون من الخطأ الإعراض عن فعله».

وثمة مخاطر في عالم اليوم تفوق بكثير تلك التي شهدتها عصر أرسطو. فعلى الرغم من أن العصر الإغريقي السحيق عرَّف مفهوم الشخص الفضولي المتدخل في ما لا يعنيه، الذي يدسُّ أنفه في شؤون غيره الشخصية على نحوٍ غير مقبول، فقد كان الأشخاص المنزلون والمنغقلون على أنفسهم يثيرون الريبة كذلك. وفي حين أننا نمتدح المواطنين الهادئين الذين يناون بأنفسهم دائمًا عن الصراع، رأى قدماء الإغريق أنَّ العزلة سلوكًا أنانيًا وغير مسؤول وإنكارًا للمسؤولية

الاجتماعية تجاه المجتمع. ومع ذلك فحتى مفرداتنا للإتيان بفعل أخلاقي، أو التدخل عند رؤية ظلم يقع، غالبًا ما تكون لها دلالات سلبية. فالقيادة غالبًا ما تُصوّر على أنها رغبة في الاستعراض أو السعي للارتقاء المهني. وتخلو اللغة الإنجليزية من أفعال بمعنى «يتدخل» *interfere* بدلالة إيجابية، مع وجود استثناء وحيد في كلمة «يتوسط» *intervene* بمعناها المحايد نسبيًا: ومع ذلك يوجد العديد من الأفعال التي تصوّر التوسط فعلًا يستحق اللوم (مثل: يتطفل، يقحم نفسه، يحشر أنفه). بل إن الأمر يكون أكثر صعوبة بالنسبة إلى النساء اللاتي لطالما كانت قلة انخراطهن في المجتمع، ويفضّل أن تكون مشاركتهم من خلف أبواب منازلهنّ، أمرًا محمودًا على مرّ التاريخ مقارنةً بانخراطهن في الأمور المجتمعية أو تلك التي تحظى باهتمام عامّ.

حين كنا أطفالًا، كان علينا أن نختار ما بين التدخل والتواطؤ فعليًا بالتزام الصمت عند رؤية أطفال «غير محبوبين» يتعرّضون للتنمر في باحة المدرسة؛ وتواجهنا مواقف مشابهة في كل يوم من حياتنا كبالغين، إذ يكون علينا أن نختار ما بين أن نتدخل أو نتجاهل الأمر برمته. هل عبّرت عن موقفك بصوت مسموع عند رؤية والدين في متجر محليّ يضربون أطفالهم أو يصيحون في وجوههم؟ هل تتحمّل رؤية أشخاص أصحاء وأقوياء يتقدّمون الصفوف جورًا وبتهمك على حساب عدد من المتقاعدين الضعفاء؟ أو عندما يتخاذل شباب بالغون أصحاء عن دعوة امرأة حامل في شهرها الثامن لأن تستريح على مقاعدهم التي يجلسون عليها؟

قد تجد أن التدخل أمرٌ صعبٌ، لأن الاستجابة الدفاعية في حالة تدخلك هي أن الناس يقولون عادة إنك شخص متطفل تطلق الأحكام على الآخرين، أو أنك قد نصّبت نفسك حاميًا أخلاقيًا متشدّدًا. والسؤال هنا هو هل يشغلك أكثر رأي هؤلاء الناس الذين يرتكبون هذه الجرائم

يوميًا متتهكين أسس العدل وأصول اللياقة، سواء بحقّك أو بحقّ ضحاياهم؟ كان أرسطو محقًا حينما رأى أن إغفال الفعل لا يقل خطورة عن إتيانه، وأن أسفنا، على فراش الموت، لن يكون على الأشياء التي فعلناها، بل على تلك التي لم نفعلها.

نادرًا ما يُثار هذا المبدأ الأخلاقي المهمّ هذه الأيام، باستثناء ما يتعلق بالأخلاقيات الطبيّة، عند السؤال عن مناقب منع العلاج الطّبي عن مريض و«السماح» له بأن يموت؛ إذ يكون «الإغفال» في هذه الحالة أمرًا محمودًا إذا ساعد شخصًا مريضًا بمرض عضال أن يموت بقدر أقل من المعاناة. لكن قدرًا كبيرًا جدًّا من قواعدنا الأخلاقية هذه الأيام، لا سيما في ما يتعلّق بالشخصيات العامّة، يتمحور حول ما إذا كان الناس قد زلّوا أو ارتكبوا أخطاء؛ فيوضع الساسة تحت المجهر لمعرفة الأخطاء التي اقترفوها، لكن نادرًا ما يكون ذلك لمعرفة ما أغفلوا فعله لتحسين وضع الأشخاص الذين يسعون ليكونوا حكماء لهم. فنحن لا نسأل عمالهم يفعلونه الساسة وكبار رجال الأعمال ورؤساء الجامعات ومجالس التمويل، وعن المبادرات التي لم يبدأوا بها، وعن كيف أنهم تنكّروا بذلك لواجبات القيادة. وهذا ما أقرّه الأثر القديم، إذ كان الإسكندر الأكبر يتحسّر بمرارة في كل يوم يشعر فيه أنه لم يبادر فيه بفعل شيء بناءً بحكم موقعه وسلطته كملك، إذ كان يقول: «أفلت زمام الحكم مني اليوم». لا بد أنه كان قد تعلّم شيئًا عن الإغفال الأخلاقي من معلمه أرسطو.

وقد ركّز الفلاسفة منذ عصر أرسطو في مناقشاتهم عن الإغفال على حالات افتراضية محدّدة سيئة السمعة؛ وكان من بين ذلك الشخص الذي يجيد السباحة ولكنه لا يتدخّل لمساعدة شخص يغرق؛ والأغنياء الذين لا يقرّون مطلقًا استخدام القمع غير السلمي للثوار الفقراء لكنهم يتركونهم يتضورون جوعًا حتى الموت؛ ووالد طفل لا يبلغ السلطات عن والد طفل آخر يُسيء معاملته. فبالنسبة إلى معتنقي المنطق الأرسطي،

أن تخطئ بإغفال الفعل يشمل عدم الاضطلاع بالمسؤولية كاملة أيضًا. فمن الأسهل فهم «عدم المبادرة بتحمل المسؤولية الذي يستحق اللوم»، بالنظر إلى الطريقة التي يؤطر بها القانون جرائم التقصير أو الإغفال التي تتخذ السلطات القضائية بمختلف البلدان مواقف متفاوتة تجاهها.

وعلى الرغم من أن عدم الإفصاح المتعمد عن الدخل والأصول الخاضعة للضرائب يمكن أن يكون جريمة - بقدر ما يعد عدم الإفصاح المتعمد عن المعلومات المتعلقة بالأعمال الإرهابية جرمًا - فلطالما كان القانون البريطاني، على مر تاريخه، رافضًا بشكل استثنائي إقرار مسؤولية الإغفال. ويعكس الوضع القانوني الشعور السائد لدى البريطانيين بضرورة الاحتفاء بالحياة الخاصة والتقبل المدني في الحياة العامة، وما زال العرف السائد بأن «بيت الرجل الإنجليزي هو قلعته» يلاحق جميع محاولات إصلاح القانون وممارسات الشرطة في حالات الاغتصاب الزوجي وتأديب الأطفال و«العنف الأسري» (وهي عبارة مروعة تتضمن عنفًا يختلف في طبيعته نوعيًا عن العنف الذي يمارسه مواطن بحق مواطن آخر في الشارع أو في حانة). ولكن حتى في أرجاء المملكة المتحدة، ثمة مواقف محدودة جُرم فيها التقصير.

يترتب على العلاقات الوطيدة واجبات تحتّم الفعل نيابة عن أحد الأقارب؛ إذ يمكن مقاضاتك كأب لتقصيرك في إطعام طفلك أو رعايته إذ أصابه ضرر أو توفى، وقد جرت محاكمة أفراد أسرة مقرّبين يعيشون معًا بتهمة القتل غير المتعمد عن طريق الإهمال الجسيم بسبب تخلفهم عن توفير العلاج الطبي اللائم لقريبهم المصاب. وقد ينشأ عن عقد مبرم بين أشخاص مسؤولية جنائية نتيجة عدم الوفاء بالالتزامات التعاقدية؛ على سبيل المثال، في حال جرى تعيينك حارس إنقاذ في أحد حمامات السباحة تحديدًا، ولم تحاول إنقاذ شخص يغرق لأنك كنت تدخن سيجارة في الخارج أثناء مناوبتك؛ فالتسبب في خلق وضع خطر

والمجازفة بحياة أشخاص آخرين قد يسفر أيضًا عن المقاضاة: فترك حريق بالمنزل تسببت فيه -حتى وإن كان ذلك مصادفة- مع العلم أن ثمة أشخاصًا بالمنزل، وعدم إبلاغ إدارة الإطفاء، من شأنه أن يعرضك لمحاكمة قضائية.

لكن حتى في هذه المواقف الجامحة والواضحة بشكل جلي، قد يكون الفارق بين الإهمال العرضي (حتى وإن كان إهمالًا جسيمًا) والإهمال المتعمد مشوشًا، وهو ما أدركه أرسطو جيدًا؛ فإذا لم يبلغ مدير أحد المصارف، أو مالك عقار، الشرطة بمعلومات متعلقة بأنشطة مالية أو إيواء إرهابيين، فهل يمكن التعامل معه على أنه أخفى أدلة عمدًا، أم أنه كان مشغولًا للغاية إلى درجة أنه لم يكثرث؟ كيف يمكننا أن نفصل في حالة أم حرمت طفلها من الطعام حتى لقي حتفه، هل قصدت قتله أم إنها ليست «سوى» متهمة بإهمال جسيم، ولا سيما إن كانت صلاحيتها كمعيلة قد أفسدها الإدمان أو انخفاض مستوى الذكاء أو مرض نفسي؟ كان أرسطو ليصرّ على أن التحقق من مستوى القصد عنصرًا فاصلاً في تقييم مسؤولية موظف المصرف، أو المالك، أو الأم، ولكنه كان ليرى، كما أظن، أن القانون البريطاني معيب بقدر محزن في ما يتعلق بالتقصير. فعلى سبيل المثال، لا يزال الأمر مشوبًا بالغموض تمامًا في ما يتعلق بما إذا كان البالغون غير والدي الطفل -إن كانوا على علم بأن الطفل ضحية (أو ربما يكون ضحية) سوء المعاملة- يتحملون مسؤولية عدم الكشف عن المعلومات.

ومن حسن الحظ أن مثل هذه المواقف الجامحة قد لا تواجهنا مطلقًا، ولكن عشرات المبلغين فقدوا وظائفهم، أو على الأقل فرصهم في الترقى، لأنهم قرروا أن يبلغوا -من أجل المصلحة العامة- عن معلومات تفصح أشخاصًا أو ممارسات في الشركة التي يعملون بها. حقق طبيب أمراض القلب راج ماتو في نهاية سعيه، في العام 2014، نصره القانوني

على خلفية الفصل التعسفي؛ حيث كان قد أوقفَ عن العمل لمدة ثمانية أعوام، قبل إقالته في العام 2010، لقيامه بعرض أدلة تشير إلى أن التخفيضات المالية التي عرضتها إحدى المستشفيات في مدينة كوفتري كانت تعرّض المرضى لخطر الوفاة نتيجة الازدحام الشديد. استغرق مديرو إدارة الخدمات الصحية الوطنية التي كان يعمل لحسابها فترات زمنية غير عادية لإسكاته، وجرّت الاستعانة بمحقّقين خاصّين للكشف عن أي معلومات من شأنها تشويه سمعته، وأنفقت ملايين الجنيهات لرفع دعوى قضائية بحقه؛ وقد عانى ضرراً لحق بحياته المهنية، ودخله، وسمعته، وبالتالي صحته، وحياته الخاصة. وقد تحمّل مسؤولية الفعل «حينما يكون من الخطأ عدم إثبات الفعل»، على حد قول أرسطو؛ فكان شجاعاً مستحقاً للتقدير؛ وهي صفات لا يملكها جميع البشر. فقد يكون لدينا أيضاً مَنْ نَعولهم مادياً مما قد يجعل المجازفة بوظائفنا من أجل مبادئنا أمراً شاقاً للغاية يتعذّر تحقيقه. ويكون علينا -في مثل هذه الحالات- أن نقرّر أي التزام من التزاماتنا «يطغى» على الآخر.

ولكن ماذا عن الأشخاص الذين ليس لديهم الكثير ليخسروه؟ يصرّ أرسطو على أن بعض الأعمال الصالحة تتطلّب أن يكون لديك معارف أو وضع مالي آمن أو سلطة سياسة؛ لذا، إذا حالفك الحظ بما يكفي لتحظى بمزايا السلامة والأمان هذه في حياتك، فإن عدم قيامك بفعلٍ من شأنه جلب الخير وتحقيق الصالح سيجلب عليك إثماً أكبر بكثير؛ فعندما تقيّم الأثرياء، أو مشاهير الإعلام، أو الساسة، أو الأرستقراطيين، أو ببساطة رؤساءك في العمل، لا يصح أن يقتصر سؤالك عما إذا كانوا قد وفّقوا في تجنّب المتاعب، بل ليكن سؤالك عن المنظمات الخيرية التي دعموها، وعن المواقف التي اتخذوها، وعن أسباب تصرفهم، أي كيف استفادوا من المزايا الاجتماعية الضخمة التي يتمتّعون بها. ويوجد الكثير من الأشخاص المشهورين والأمينين الذين لم يدافعوا قط عن الفقراء، أو

المضطهدين، أو لا يهمهم أمر البيثة. لذا فإن التفكير النقدي بشأن إغفال الفعل وإتيانه كذلك يمكن أن يُثري تقييمنا للأشخاص الذين يرغبون في أن يحظوا بتقديرنا وتأييدنا.

ويمتد تأكيد أرسطو على النوايا الكامنة وراء الفعل ليشمل موقفه من الوسائل والغايات. ويأخذنا الجدل بشأن المواقف التي لا يمكن ضمان تحقيق النتيجة المرجوة فيها إلا من خلال الإتيان بفعل مستهجن إلى بعض أكثر المناطق الأخلاقية ضبابية في الفلسفة. وتلك هي الحجة التي يُتذرع بها لتبرير العديد من العمليات العسكرية، مثل قصف هيروشيما وناجازاكي: إذ من المفترض أن تكون عشرات الآلاف من حالات الوفاة التي حصدها القنبلتان قد حالت دون وقوع وفيات أكثر بكثير لو تطلّب الأمر شن غزو بري واسع النطاق على الأراضي اليابانية. المشكلة أنه ما من أحد يعلم ما كان سيحدث لو لم تستخدم القنبلتان النوويتان، وقد خلص رئيس أركان الرئيس ترومان، قائد الأسطول ويليام دانيال لي، إلى أن «استخدام هذا السلاح البربري في هيروشيما وناجازاكي لم يُسهم إسهامًا ملموسًا في حربنا مع اليابان، فقد كان اليابانيون قد هُزموا بالفعل وكانوا على استعداد للاستسلام بفضل الحصار البحري الفعال والقصف بالأسلحة التقليدية»^[9].

وكان للقصف عاقبة أخرى مؤسفة: لقد أشعل استخدام الأسلحة النووية فعليًا فتيل سباق التسلح في الحرب الباردة. لكن أرسطو لم يكن يُقيّم قرار القصف بالقنابل بالتركيز على النتيجة التي آل إليها الفعل، ولكن بالتركيز على المقصد الأساسي من ورائه؛ فهل كان هذا القرار عسكريًا أم سياسيًا؟ احتج العديد من النقاد الذين تحدّثوا عن قصف المدينتين اليابانيتين، اللتين لم تكن لهما أي أهمية عسكرية ومأهولتين بالمدنيين، أنه في الوقت الذي ربما كان ترومان قد اقتنع فيه بأن الهدف من تصرفه هو الحد من حالات الوفاة والمعاناة إجمالاً، فقد كانت النوايا

الأقوى وطأة لمستشاريه في واشنطن هي اختبار التقنية الحديثة على أرض الواقع (حتى وإن كان عدد الوفيات غير المتوقع جراء الإشعاع قد مثل لهم صدمة)، وتوجيه إنذار إلى جوزيف ستالين والاتحاد السوفياتي. وربما كان ترومان بحاجة لأن يكون أكثر حيلة بشأن نوايا مستشاريه.

صوّر فيليب كلودل في فيلمه المؤثر العام 2008 «لطالما أحبتك» *I've Loved You So Long* حالة متطرّفة أخرى من حالات استخدام النوايا معيارًا عند النظر في إمكانية تبرير الوسائل المشبوهة، حيث قضت جوليت (كريستين سكوت توماس) خمسة عشر عامًا في السجن لإقدامها على قتل طفلها ذي الستة أعوام. ويكتشف الجمهور شيئًا فشيئًا أن ذلك كان قتلًا رحيماً: فجوليت كانت طبيبة وحققت ولدها بحقنة مميتة عندما أصيب بالشلل إثر إصابته بمرض عضال كان سيتسبب له في ألم حاد إن ترك حتى يموت بصورة طبيعية. غير أن جوليت لم تفصح عن هذه المعلومات في المحاكمة، إذ شعرت كما يبدو واضحًا أنها «استحقت» عقوبة ممتدة بالسجن، بغض النظر عن نيتها النبيلة. غير أن نيتها تُكتشف في الوقت المناسب لتساعدنا في وضعها الحرج؛ ويرحب صهرها بوجودها ويدعوها بخالة أطفاله بعد أن كان كارهاً لأي تواصل بينها وبين بناته.

وفي ما يتعلق بقول الصدق، يواجه كل منا معضلة الوسيلة/ الغاية بصفة يومية تقريباً. فالكذب يسبب التوتر، ويؤثر حتى على وظائف أعضائنا مسبباً تغيرات هي التي تجعل من تقنية كشف الكذب شيئاً ممكناً، وذلك هو مصدر الشعور البديهي السائد، عبر الثقافات، في أنه مع وجود مواقف قليلة يكون الكذب فيها مبرّراً، فإن الكذب لا يخدم المصلحة الذاتية، ولما يفضي إلى السعادة، سواء للمرء نفسه أو لغيره ممن يتعامل معهم. وقد وجد هذا الحدس البديهي دعماً نظرياً في الأخلاقيات الأرسطية. تتسم مناقشات أرسطو عن الحقيقة والأكاذيب بكونها معقدة؛ فهو لا يؤمن بمثل هذه الحقيقة المتعالية، التي آمن بها أفلاطون، ولا يرى

أن الحقيقة ذات حالة ما وراثية أو أنها تحمل خيرًا متأصلًا في ذاتها، لكنه آمن بالفعل بأن الحياة الطيبة تتطلب وضع سياسة محكمة ومنطقية بشأن تحرّي الصدق والازدواجية وتنفيذ هذه السياسة باتساق.

ولدى أرسطو تصوّر مدهش عن الأشخاص «الصادقين مع أنفسهم» *authekastos*، ويمكن صوغه على نحو حرفي أكثر بعبارته: «كل شخص على طبيعته». فالصادقون مع أنفسهم يتمتعون بشخصيات ثابتة على المبدأ، ويعتمدون على أنفسهم، ويتصرفون بالطريقة نفسها مع كافة الناس، ولا يهتمون كثيرًا بآراء الناس فيهم، وهم يشبهون في ذلك النموذج المثالي للإنسان «صاحب الروح العظيمة»، الذي يتحلى بالنزاهة مع من يحب ومن لا يحب»، و«يهتم الصدق أكثر من آراء الناس». فمن الأسهل أن تنام ليلاً وأنت تعلم أنه لا توجد رسائل بريد إلكتروني، أو تغريدات، أو منشورات على موقع فيسبوك، قد تُشعرك بالخجل أمام الناس. وكذلك فإن إخبار كل الناس بالرواية الصادقة ذاتها للأحداث يخفف من مستوى إجهاد الذاكرة مقارنةً بمحاولة تذكّر أي كذبة كذبت، وعلى أي شخص. فمن الحصافة أن تنوي ألا تقول لأي شخص، أو تكتب له قط أي شيء قد لا تقوى على الإفصاح عنه للعامة إذا لزم الأمر. انتقدت زميلة لي رئيسنا أمام زميل آخر في حانة، فهدّدها بالذهاب إلى الرئيس وإبلاغه بما قالت. وما كان منها إلا أن قالت له أن يذهب ويبلغه لأنها سبق وعبرت عن رأيها بالفعل مباشرة في وجهه وبعبارات أكثر قسوة.

وفقًا لأرسطو، فإن الإنسان الذي يحاول أن يحيا «حياة طيبة»، سيلتزم الصدق عندما يكون ثمة خطر ما، كما هي الحال في دعوى قضائية مثلاً، مقارنةً بثرثرات غير رسمية مع الأصدقاء والعائلة. فإذا ما كذبت في مثل هذه الظروف المهمة، فالأرجح أن كذبتك هي وسيلة تستخدمها لا تتراف ظلم حقيقي. فبالنسبة إلى أرسطو، الظلم والإجحاف لا ينفصلان. وكمثال على ذلك، عندما يكذب مقاول بناء بغرض الاحتيال على

صاحب العمل للحصول على مال يزيد عما يستحقه، عن طريق الإصرار على أن يكون الأجر بحسب الساعات الإجمالية بدلاً من طلب مبلغ ثابت، ثم الزعم بعد ذلك بأن العمل سيستغرق أربعة أسابيع مثلاً، بينما هو يعلم أنه سيستغرق ثمانية أسابيع. ومن ناحية أخرى، قد يحدث أن يكذب صاحب العمل على مصلحة الضرائب للتهرب من دفع ضرائب على الأموال التي دفعها للمقاول. والكذب، في كلتا الحالتين جرم يفوق في فداحته مجرد الأكاذيب: فهو بمثابة عنصر جوهري في كذب يجري اقترافه؛ وتشكل هذه الأكاذيب جزءاً من أفعال تلحق ضرراً فعلياً، ليس بأناس آخرين فحسب، بل يمتد أثرها إلى المجتمع بأسره.

إن الصدق كمنهج حياة، في المواقف التي لا يكون المرء فيها عرضة لأن يخسر الكثير، قد أثار اهتمام أرسطو بالقدر نفسه؛ فقد درس بشيء من التفصيل الناس الذين يتفاخرون بأنفسهم زوراً وبهتاناً (فالدعاية للذات كانت عنصراً بارزاً لدى الإغريق القدماء، وقد ناقشت أقدم الملاحم، «الإلياذة» *Iliad*، باستفاضة موضوع التفاخر بإنجازات المرء أو المبالغة فيها). قد لا يجلب التفاخر ضرراً كبيراً - حتى إن انطوى على الكذب - إذا كان مجرد استعراض أمام الحاضرين والمعارف المجتمعين في حانة أثناء تناول كوب من الجعة. ولكن من الممكن أن يترتب عليه تداعيات خطيرة أحياناً: فلا أحد يرغب في الخضوع لعملية جراحية على يد شخص ادعى كذباً أنه جراح مؤهل. لكن أرسطو كان مفتوناً بالأكاذيب التافهة على نحو واضح والتي تصدر عن أشخاص اعتادوا الترويج لأنفسهم عندما لا يكون من المحتمل وقوع عواقب خطيرة: «إن الرجل الذي يتظاهر بأنه يتمتع بصفات حسنة أكثر مما لديه بالفعل، فهو لهذا الغرض وحده، يبدو خسيساً، لأنه لولا ذلك ما كان ليجد سعادته في الكذب؛ لكنه يبدو شخصاً أحمق بلا داع أكثر من كونه شريراً».

فادّعاؤك أنك بارع في رياضة الجولف، أو أنك شغلت منصباً إدارياً

أعلى في عملك هو من نوعية الأكاذيب التي تُلام عليها، ولكنها ليست جرائم خطيرة. لكن ثمة مجموعة ثالثة من الكاذبين المتفخخين الذين يجب توبيخهم، وهي تتمثل في الأشخاص الذين يكذبون بقصد جني المال، أو باستخدام وسيلة يمكنهم بها جني المال. فالمسألة هنا لا تتعلق بمجرد شخص مُغالٍ ينزع إلى شيء من المبالغة، بل تتعلق باختيار متعمّد. ويدرك أرسطو أن الأشخاص يفعلون ذلك ببساطة لأن القدرة على التلاعب بالآخرين في الأمور المالية يمنحهم إحساسًا بالمتعة والإثارة («هم يستمتعون بالكذب ذاته»؟) وقد نصّفهم اليوم بأنهم يعانون من كذب «مرضي». وبالنسبة إلى آخرين، فإن الباعث الوحيد لديهم يكون الجشع أو حب الكسب. فهم يكذبون عندما يخبرون سيدة عجوز كذبًا أنهم جاؤوا لفحص عداد الكهرباء في منزلها، ثم يرتكبون جريمتهم بسرقة شمعاناتها الفضية.

لكن هل تمسك أرسطو بفكرة أن الصدق خيرٌ بطبيعته، ومن أجل ذاته؟ لم يؤكد أرسطو أنه لا وجود على الإطلاق لموقف قد لا يُضطر فيه الشخص الملتزم بعيش «حياة طيبة» إلى اللجوء للكذب؛ فهو عملي أكثر من ذلك بكثير: فالصدق يلائم المصلحة الذاتية المستنيرة، ويستند إلى الفكرة التي مفادها، على سبيل المثال، أن المرء الذي يتحرى الصدق دومًا بطبيعته من المرجح أن يكون جديرًا بالثقة في الأمور المهمة. «فبالنسبة إلى من يتحرى الصدق، ولكونه صادقًا، حتى وإن لم ينطو الأمر على مخاطرة بشيء ما، سيكون أكثر صدقًا عندما تكون هناك مخاطرة ما؛ فهو سيتجنب الكذب لكونه شيء مخزي [ينطوي على مخاطرة ما]، لأنه سبق أن تجنبه من أجل تحري الصدق لذاته» فإن اعتدت الصدق، فالأرجح أنك ستقول الصدق عند ارتفاع درجة المخاطر المحيطة بك أو بغيرك. وإذا ما اشتهرت بصدقك، فسيعود ذلك عليك بالنفع لاحقًا؛ وسيشق الناس بكلامك حينما يكون الأمر مهمًا بالفعل.

ولكن لما كان من الواجب دائماً أخذ النية في الاعتبار عند تقييمنا لأي فعل، يوجد العديد من المواقف التي يكون فيها الكذب عمداً ليس مبرراً فحسب، بل وضروريّاً أيضاً. يستعرض الفيلم الإيطالي «الحياة جميلة» (1997) *Life is Beautiful*، إخراج وبطولة روبرتو بينجيني) الأكاذيب التي يستمر أب يهودي يدعى جويدو في إخبار ولده الصغير جيوسو بها في أحد معسكرات الاعتقال لزيادة فرص ولده في النجاة، إذ يقول جويدو إنهما يلعبان لعبة تتطلب قيام جيوسو بأداء بعض المهمات حتى يحصل على نقاط، وتشتمل هذه المهمات الامتناع عن طلب الطعام، أو عدم البكاء، أو عدم طلب رؤية والدته. ونجاحه في تجنّب لفت انتباه الحرس سيؤمّله للحصول على نقاط إضافية. وتحمي هذه الحيلة الطفل من تجرّع المزيد من المعاناة وتنقذ حياته في ما بعد.

يتعلّم الأطفال الكذب لما يرون فيه تحقيقاً لمصلحتهم الذاتية بين سن الثالثة والرابعة من عمرهم؛ وتكمن البراعة هنا في تعليمهم أن السياق هو أهم ما في الأمر. فالكذب على الأشخاص الذين يسعون من كل قلوبهم لتحقيق ما فيه الصالح لهم قد لا يفيدهم فعلياً، في حين أن الكذب على أشخاص يريدون أن يلحقوا بهم الأذى أو يتحكّموا بهم أو يسلبوهم حقوقهم قد يفيدهم. لجأت إلى أكبر كذبة في حياتي -والتي كان أرسطو ليعدها مبرّرة تماماً- عند دفاعي عن أطفالتي ضد برنامج التطعيمات التابع لمجلس التعليم بولاية إلينوي. كنت قد بحثت بالتفصيل عن المتطلبات الرسمية، وتأكدت من أن أطفالنا قد أخذوا كل جرعة مطلوبة قبل دخول الولايات المتحدة في زيارة إليها استمرّت طوال فصل دراسي، وقد حصلت على جميع المستندات الطبية التي تثبت ذلك. لكن في اليوم الذي حضرنا فيه إلى مكتب القبول في المدارس، قالت الممرضة المسؤولة إن التطعيمات التي أخذوها في بريطانيا غير صالحة استناداً إلى قرار صادر عن ولاية إلينوي بوجوب انقضاء فترات زمنية بين الحقن

المتعاقبة تختلف قليلاً عن الفترات الموصى بها في إنجلترا، وعلمنا أن الأطفال يجب أن يأخذوا جميع الحقن مرة أخرى (وهو أمر خطير بالتأكيد من الناحية الطبية) أو سيتم استبعادهم من الدراسة طيلة الأشهر الثلاثة التي سنقضيها في إلينوي. وحين لم أتمكن من إقناعها بالحجة المنطقية، خطر لي فجأة التظاهر بالتحول إلى طائفة دينية أخرى تحظر التدخل الطبي. لم أكن أعلم القدر الكافي من المعلومات عن طائفة شهود يهوه لأبدو مقنعة، لكن خطر ببالي اسم أولريش زوينجلي (لا أعتقد أن مفهوم المسكين زوينجلي للبروتستانتية السويسرية الراديكالية له أي رأي فعلي بشأن التطعيم، لكن لم يبدُ لذلك أهمية حينذاك). شاهد زوجي ما أفعله وأعلن كذلك اقتناعه بالمذهب الزوينجلي واستنكاره لأي تدخل بشري في تحقيق مشيئة الرب في أجسادنا. وتوجد وثيقة في مكان ما في ولاية إلينوي تحمل توقيعنا تثبت هذه الحيل الدينية الزائفة. شعرت الممرضة بالاستياء كونها انهمزت بهذه الثغرة الفنية، لكن لم يكن لديها أي خيار سوى السماح لأطفالنا بالالتحاق بالمدرسة على الفور.

الفكرة هنا تتعلق بالوسيلة والغاية. لم تقصد المسؤولية الطبية بالطبع أن يحصل أطفالنا على جرعتين من التطعيمات من دون داع، ولا أن تحرمهم من التعليم لثلاثة أشهر؛ غير أنها لم تتحلَّ بحسن تقدير الأمور وسمحت للقصور البيروقراطي أن يحول دون قيامها حتى بمراجعة المستندات الطبية التي أحضرتها معي من بريطانيا. لقد رفضت حتى أن تفكر في طرق أكثر مرونة للتعامل مع قاعدة وضعت من دون أي تفكير يأخذ بالحسبان وضع الأطفال الذين قد يأتون من بلدان أخرى للدراسة في إلينوي.

أظهرت تعنت هذه الممرضة أمام قاعدة سارية بشكل موحد ومطلق في كل أرجاء نظام التعليم العام بولاية إلينوي التزامها بمبدأ المساواة وليس الإنصاف. وقلما يفهم الإنصاف اليوم ويُناقش خارج أوساط الفلاسفة القانونيين المتخصصين، لكنه يلعب دوراً جوهرياً في تحقيق العدالة.

وتأتي مناقشة أرسطو الرائدة عن الإنصاف في حديثه عن العدالة في كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، إذ يقول إن «الإنصاف، رغم أنه من العدل، لا يمثل العدالة القانونية، بل هو تصحيح للعدالة القانونية». فهو لا يحل محل العدالة القانونية، بل يُعزّزها ويكملها. ويرى أرسطو أن القوانين يجب أن تصاغ بعبارات عامة، لكن «ثمة حالات لا يمكن أن تغطيها العبارات العامة» ولا يمكن ببساطة التعامل مع الواقع العبيث للخيارات الأخلاقية الإنسانية بضربة قانونية استباقية. وُضعت القوانين بعد التفكير فيما قد يكون ملائمًا في غالبية الحالات، مما قد يجعل من وقوع الظلم أمرًا واردًا. فالحياة مُعقّدة، والتعامل مع الأشخاص الذين يخطئون يجب أن يخضع للتعديل بحسب تفاصيل كل موقف.

يُقرُّ أرسطو بأن الناس يخطئون لأسباب لا حصر لها. ففي بعض الأحيان، قد يكون الخطأ متعمدًا ومُلامًا، ولكن في أحيان أخرى يجب أخذ عوامل مهمة في الاعتبار، وربما يكون القصد من ارتكاب الخطأ من بين تلك العوامل. فجوليت في فيلم «لطالما أحببتك»، الذي تحدثنا عنه آنفًا، أنكرت حق القاضي وهيئة المحلفين في النظر بإنصاف عند الحكم عليها، وذلك بعدم إخبارهم بالسبب الحقيقي الذي دفعها إلى قتل ولدها. فمن الناحية النفسية، فعلت جوليت ذلك لأنها كانت «قاسية جدًا على نفسها» وحرمت نفسها فعليًا من الإنصاف، لظنّها بأن العقوبة الثابتة لقتل طفل ملائمة بطريقة ما أو بأخرى لحالتها الاستثنائية. ومن المسوّغات الأخرى للرأفة عند إصدار الأحكام فقر الجاني، وكبر سنه، وانخفاض معدل ذكائه، وقصور مستوى تعليمه، وتعرّضه لرغبات عاطفية وانفعالات وسرعة تأثره بها، وحالته الصحية، ومدى ندمه وتوبته عن الجرم، ومدى إمكانية معاودة الكرة. ولشرح ما يعنيه بالإنصاف، يعقد أرسطو أحد أكثر المقارنات ذكاءً؛ فتنطبق قواعد وُضعت مسبقًا بطريقة يُلطفُها الإنصاف هو بمثابة قياس حَجَر باستخدام مسطرة غير صلبة، بل مصنوعة من مادة

لينة قابلة للثني، ويقول إن عمال البناء في لسبوس يقيسون الحجارة المقوّسة باستخدام مساطر مرنة مصنوعة من الرصاص. إنهم يستخدمون وحدات القياس ذاتها المُحدّدة سلفاً، فتكون النتيجة حصولهم على قراءة أكثر دقة بكثير، إذ يمكنهم ثني المسطرة ولفّها حول الحجر، و«الانثناء» مع منحنياتها، مثلما يفعل القاضي الجيد في تطويع القوانين استناداً إلى المبادئ العامة ووفقاً للتفاصيل الدقيقة المحيطة بموقف أخلاقي بعينه. ويُعدّ شريط قياس أرسطو المصنوع من الرصاص مناسباً بشدة لواقعنا اليوم، عندما يسود الافتراض في أكثر الأحيان بضرورة تأييد القواعد، والقوانين، والسياسات، وحتى التقاليد العائلية، تأييداً ثابتاً لا يتزعزع؛ وتكون النتيجة المحتومة أن يحل محل العدل الحقيقي إصرارٌ على ضرورة أن مقاساً واحداً يناسب الجميع، بصرف النظر عما يترتب على ذلك من ظلم وعواقب سلبية أخرى.

في زمن أرسطو، ارتأت الديانة التقليدية أنه لا بد للعقوبات أن تكون جامدة، وكانت الكلمة الأساسية للعدالة هي «دايك» *dike*، وتُمثّل القانون الذي وضعه الإله الأعلى زيوس: وفي عالم التراجيديا، كانت «دايك» هي التي تعني أن أورستيس يتحمّم عليه قتل أمه لأنها قتلت أباه؛ بصرف النظر عن أي تعقيدات في الحوادث. ويُصرّ أحد المتحدثين في إحدى المسرحيات التراجيدية لسوفوكليس على أن الآلهة «لا تعرف الإنصاف أو المحاباة، ولا يعينها إلا العدالة الصارمة والبسيطة [دايك]». ولعل أكثر الأمثلة وضوحاً في مجتمعنا الحديث على القواعد المتعنتة التي تنطوي على إشكاليات معقدة تتجلى في أحكام السجن التلقائية والقسرية، والتي تقطع على القاضي وهيئة المحلفين أي طريق لدراسة الظروف التي من شأنها تخفيف الحكم، وبالتالي تعديل العقوبة بما يتوافق مع قواعد الإنصاف. وهذا ما يفضي بدوره إلى اعتراض هيئات المحلفين ورفضها إدانة المتهم حتى مع علمهم بارتكابه للجريمة.

وقد قرّرت هيئة المحلفين بإحدى القضايا المنظورة في إنجلترا، قبل بضعة أعوام، براءة أحد الرجال من تهمة القتل، على الرغم من اعترافه بقتل رجل كان قد قتل ابنته وكان يقطن أحد الشوارع المجاورة له. كانت الفكرة هنا أن الأخطاء التي ارتكبت في إجراءات الشرطة وفقدان الأدلة المادية أدت إلى استحالة إدانة قاتل الطفلة والحكم عليه بالسجن مدى الحياة، فشرع الأب المكلوم أنه مجبر على «تطبيق القانون بنفسه». يمارس هؤلاء المحلفون مبدأ المعقولية الجمعية لعلمهم بوجود مساحة قد تسمح بوقوع مظلمة تنشأ عند تطبيق قوانين عامة على حالات فردية محدّدة؛ وبالتالي فهم يتصرّفون بإنصاف، استنادًا إلى سلطتهم التقديرية ويُعدّلون قرارهم بما يحول دون وقوع مظلمة لم يتنبأ بها واضعو قانون جرائم القتل من دون قصد منهم؛ مثل توقيع عقوبة السجن على الأب المكلوم الذي خذله نظام الشرطة المشوب بالتقصير وعدم الأهلية. وعليه يكون الإنصاف أحد عناصر العدالة الكاملة ولا ينفصل عنها.

والكلمة الدلالية التي يستخدمها أرسطو بمعنى الإنصاف -وهي كلمة *epieikeia*- مشتقة من الجذر *eikos*، التي تعني ما هو معقول أو ملائم. فيجب أن تكون العقوبة ملائمة للجريمة، وليس أن تكون الجريمة على نحو يلائم العقوبة، كما هي الحال مع ضحايا بروكروستس الأسطوري، الذي كان يقوم بشد أطراف ضحاياه أو بترها لتلائم أجسادهم بحجم سريره الذي «يناسب جميع الأحجام». ولكن في عصر أرسطو، غالبًا ما كان الإغريق يربطون لفظة *epieikeia* بلفظة أخرى، وهي الفعل «يستسلم» أو «يرضخ» لشيء ما أو شخص ما؛ وهذا معناه أن الإنصاف كان يقترن عمومًا باستحضار الرأفة أو اللين عن طريق التحلّي بالرحمة تجاه المجرم على أساس الظروف المُخفّفة للحكم. ورغم ذلك فقد كانت إحدى القضايا المهمة في تاريخ الإنصاف القانوني -والتي أثارت أفكار أرسطو- تتعلّق بمشكلة سببها أن القانون بصيغته آنذاك لم يكن يُصعّب الأمور بما يكفي على المجرم.

في العام 1880، كتب فرانسييس ب. بالمر وصية ترك بموجبها معظم أملاكه لحفيده إلمر، وكان من المفترض أن تعتني ابنة فرانسييس بالأموال حتى بلوغ ابنها إلمر السن القانونية. إلا أن إلمر، وهو في السادسة عشرة من عمره، دسّ السُّمَّ لجده خوفاً من أن يُغيّر وصيته. وعلى الرغم من محاكمة إلمر على جريمة القتل، لم يكن ثمة قانون ساري في الولاية المعنية (نيويورك) يمنعه من استلام إرثه؛ غير أن والدته طعنت في تنفيذ الوصية في المحكمة المدنية في العام 1889، والتي أصدرت حكمها بالأكثرية، مدعومةً بمبدأ أرسطو بالإنصاف، بالقضاء لصالح الأم.

وتكمن أكثر الحجج المناهضة للإنصاف أهمية في أننا لا يمكننا أن نعتمد بالضرورة على نزاهة الشخص الذي يمارسه وعلى حسن تقديره للأمور. فإذا كانت القوانين قد وُضعت بقصد تعزيز المساواة، فإننا بحاجة لأن نكون في غاية الحذر عند السماح بتطبيقها بمرونة، ولعل أفضل تعبير على الإطلاق عن ذلك جاء على لسان البرلمان والمؤرخ في القرن السابع عشر جون سلدن، الذي وصف الإنصاف بأنه «شيء خبيث»، و«يخضع لما يُمليه ضمير القاضي». وقد أشار إلى أننا لا نستخدم حجم قدم القاضي الحالي لقياس مقاسات أقدام القضاة جميعاً؛ «فأحد القضاة صاحب قدم كبيرة، وآخر قدمه صغيرة، وثالث قدمه متوسطة الحجم؛ والأمرف نفسه ينطبق على ضمائرف القضاة». غير أن أرسطو كان ليردّ بأننا لا يمكننا تفويت جميع مزايا العدالة الحقيقية التي تأتي بالإنصاف لمجرد أن بعض الناس ليس بوسعهم الارتقاء بأنفسهم لمستوى التحديات الأخلاقية التي يفرضها الإنصاف. ويختم أرسطو نقاشه بالتشديد على أن القدرة على الإنصاف، مثل القدرة على التشاور والتدبر، صفة بشرية مُميّزة؛ وهي أمور لا يمكن لآلهة الأساطير الكلاسيكية المستبدّة أن تفهمها أو تقدّرها، وقد تجدها محل سخرية بالفعل.

إن أداة الإنصاف القوية قد تساعدنا بالتأكيد اليوم إذا وجدنا أنفسنا بين

أعضاء هيئة المُحلفين، أو تولينا منصب قضاة، أو معلمين، أو محققين، أو أي منصب نتخذ فيه قرارات بشأن مكافأة أصحاب الاستحقاق، أو معاقبة الجناة، أو تقييم الكفاءة. فبالنسبة للآباء، لا سيما أولئك الذين يواجهون طلبات واحتياجات متنافسة لأكثر من طفل، يكون للإنصاف تطبيق مهم على مستوى الأسرة، وقد نعتقد بأنه بوجود طفلين، يتعين علينا أن نُورث كلاً منهما نصف أملاكنا بالضبط، لكن إذا كان أحدهما يعاني إعاقة شديدة وبحاجة لرعاية خاصة مدى الحياة، ونحن نعتزم توفير رعاية ملائمة للطفلين، فيُحتمل أن نفكر أن التسوية المُنصفة الحقيقية ستراعي ظروف طفلينا المختلفة. طوّر الفلاسفة النسويون حديثاً هذه الفكرة، المستمدة من مفهوم الإنصاف الأرسطي، للوصول إلى فكرة «التفكير الأمومي» على المستويين الاجتماعي السياسي والأسري كذلك؛ إذ يتعين أن تختلف طرق الرعاية وتوفير الاحتياجات باختلاف المواطنين، ولن يتحقق العدل الحقيقي في مجتمع يخصص الموارد نفسها بالضبط لكل مواطن من مواطنيه: فيجب أن تُوفّر الموارد لكل مواطن وفقاً لاحتياجاته.

قليلة هي الخيارات السهلة في الحياة، وإضفاء الإنصاف على مقاصدنا ونياتنا في ما يتعلّق بكل من العدالة والمساواة قد يساعدنا بقدر هائل على بذل قصارى جهدنا بينما نكافح لإيجاد طريق صالح نسلكه وسط الغابة الأخلاقية لحياة البشر اليومية.

الفصل السابع

الحب

دائمًا كانت السعادة تعتمد على العلاقات الشخصية. قد لا يكون الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعل «العالم يستمر»، لكنه من دون شك أحد أهم الأشياء. من نُحِب، وكيف نحُبهم، هي قرارات نواجهها جميعًا في مرحلة ما من حياتنا. ورغم أننا لا نملك حتى مرحلة البلوغ سوى قليل من الخيارات بشأن أفراد عائلتنا المباشرين، فحتى أطفال المدارس يختارون مع أي من أقرانهم يقيمون صداقة في قاعة الدراسة أو في الملعب. ويصبح الأصدقاء المقربون في غاية الأهمية في مرحلة المراهقة المبكرة، التي نتعلّم فيها إقامة روابط وثيقة خارج البيت. ثم تأتي إثارة اكتشاف النشاط الجنسي والرومانسية وعلاقات «الحب» الأول التي تُعبّر عنها الجملة الإنجليزية «To be in love with» أي «أن تقع في غرام» شخص ما.

لكن السعي لإقامة علاقات الحب لا يمثل سوى جزء واحد من القصة؛ إذ سيُشغل بال الجميع عاجلاً أم آجلاً معرفة وقت إنهاء صداقة حميمة، أو على الأقل إنزال رتبته من صداقة حميمة إلى صداقة اجتماعية. قليل من الناس يبلغون منتصف العمر من دون الوقوع في حب أحدهم، حتى ولو كان أحد الأبوين، أو أحد الأبناء، أو أحد الأشقاء. ويمكن أن يتبيّن فجأة عدم إخلاص أصدقاء العمر أو استغلالهم لنا. وتنتهي نسبة كبيرة من الزيجات وعلاقات المعاشية المشتركة بالطلاق أو ما يعادله. لذا،

كيف يمكننا تعظيم فرصنا في العثور على السعادة من خلال علاقاتنا الحميمة مع الآخرين؟

رغم أن أرسطو يدرك سطوة الجنس، ويمتلك أفكارًا مهمة عن العلاقات التي تشملها، فإنه مما يدعو للدهشة والعجب أن مناقشته الطويلة والمفصلة عن الحب (*philia*) تبدو حديثة ومعاصرة للغاية لأنه لا يعالج العلاقات الجنسية بوصفها استثنائية بطبيعتها أو مختلفة نوعيًا عن روابط الحب الأخرى. تمثل العلاقات التي تشمل الجنس مجرد فئة فرعية من مصطلح الألفة *philio*، وهو المصطلح الذي كثيرًا ما تمت ترجمته على نحو خاطئ بكلمة «الأصدقاء». وتنطبق المبادئ الأساسية نفسها على علاقات الصداقة سواء التي تشمل الجنس (كالزواج أو غيره من الترتيبات المماثلة) أو تلك التي لا تشملها (التي يمكن أن تتراوح بين القرابة الوثيقة، والأقارب البعيدين، والأصدقاء من خارج العائلة الذين يُعدّون في غاية الأهمية لنا). وجميع العلاقات مع الأشخاص الذين نحبهم تتطلب جهدًا، لكن العوائد لا تقدّر بثمن.

اعتبر أرسطو أن الحب ضروري للحياة الإنسانية. إن الكثيرين منا يحلمون بالعواطف بجميع أنواعها تحدث معهم بصورة غامضة وعفوية، لكن أرسطو كان يدرك أنها مسألة مثابرة واجتهاد. يستهل أرسطو حديثه عن المجتمع البشري بالشراكة الأولية و«الأكثر فطرية» على حد تعبيره؛ وهي الوحدة الزوجية، التي تعد شكلًا مكثفًا للغاية من أشكال الصداقة، وهي توجد بينك وبين الفرد الذي تتزوجه أو تختار أن تعيش معه بشكل دائم. يتصور أرسطو زوجًا وزوجة من جنسين مختلفين، اجتماعًا من أجل الدعم المتبادل، في مجالات يُكَمَّل بعضها بعضًا. ويحتاج كل من الزوج والزوجة إلى الآخر أيضًا من أجل تكاثر الجنس البشري، «فليس بإمكان الأنثى أن تفعل ذلك من دون الذكر، وليس بإمكان الذكر أن يفعله من دون الأنثى؛ ولهذا السبب كان من الضروري أن يظهر اتحاد

الجنسين». ولا يناقش أرسطو على الإطلاق الارتباطات المثلية، مع أنه لا يُدينها على الإطلاق أيضًا. فهو يصادق بالفعل على الخطبة التي ألقاها أريستوفانيس في كتاب «الندوة» *Symposium* لأفلاطون، حيث ينقسم البشر إلى ثلاثة أنواع من الأزواج ترتبط جنسيًا: المرأة/الرجل، والمرأة/المرأة، والرجل/الرجل. ووجهة نظر أرسطو ليست أن أيًا من هذه الأنواع خاطئ بطبيعته، ولكن أن العشق المفرط لأي نوع خارج إطار الأسرة يمكن أن يزعزع الاستقرار الاجتماعي. وهو كذلك يروي، بقبول واستحسان، القصة الرومانسية للزوجين المثليين فيلولاوس (وهو رجل دولة) وديوكليس (وهو بطل عذو أولمبي). فبعد مَحَنٍ عديدة، يستلقي هذان العاشقان بهدوء في مقابر مجاورة على مقربة من مدينة ثيفا، أو طيبة، الإغريقية.

وبالنظر إلى هذين المقطعين، ليس ثمة شك في أن أرسطو كان سيتفهم اليوم إمكانية إقناعه بعلاقات الشراكة الأسرية المثلية. ومع أنه يمكن تقوية العلاقة وتعزيزها من خلال الجنس والإنجاب، إلا أن أرسطو مقتنع بأن الشراكات الأولية تتعلق بما هو أكثر من الجنس بكثير. فهو يعتقد بأن مثل هذه الروابط الأولية بين الحيوانات الأقل رقيًا من البشر لا توجد إلا من أجل التكاثر، و«تستمر فقط طالما كان الوالدان منشغلين بإنتاج نسلهما». ففي بعض الحيوانات الأكثر تطورًا، التي تشبه الإنسان، تتخذ علاقات الشراكة شكلًا أكثر تعقيدًا؛ لأنه في حالة هذه الحيوانات، نرى أمثلة أكثر على التعاون المشترك، والمودة، والنية الحسنة. لكن هذا التعقيد يكون في أوضح صورهِ في حالة البشر؛ حيث يتجاوز تعاون الزوجين العلاقة الجسدية مهما كانت مبهجة، لأنه «لا يهدف إلى مجرد الوجود، ولكن إلى الوجود السعيد».

قليلة هي القواعد الصارمة الجامدة في فلسفة الأخلاق الأرسطية، غير أنه يعتبر أن الزنا غير مقبول على الإطلاق. ويرجع السبب في ذلك إلى أن

خيانة رفيق الحياة أو الشريك يؤدي إلى تآكل الثقة، والتي تمثل بدورها أساس أي صداقة قوية ومشبعة. ويؤكد أرسطو على أن الزنا بغض ومكروه عند الجميع، تمامًا مثل السرقة والقتل: «فالصواب والخطأ في هذه الحالات لا يعتمد على الظروف؛ مثل إذا ما كان المرء يمارس الزنا مع المرأة المناسبة، وفي الوقت المناسب، وبالطريقة المناسبة. فمجرد القيام بهذه الأشياء خاطئ لذاته». ويقدم أرسطو العديد من النصائح غير المباشرة حول الزواج/ شراكة العمر، حيث إن كل شيء يقوله عن الصداقات الحميمة ينطبق بالمثل على الزواج. فالزواج عند أرسطو لا يختلف عن علاقات الصداقة الأخرى إلا في شدته واستثماره في تربية الذرية المشتركة (برغم أن هذا الاختلاف كبير). وينطبق هذا أيضًا على أواصر القرابة الوثيقة كعلاقة الوالدين بالطفل، والعلاقة بين الأشقاء؛ فالفارق بين مثل هذه الروابط وبين الصداقات التي تتجاوز نطاق العائلة فارق كمي في الدرجة والشدة فحسب.

إنه لمن الملهم أن نفكر هنا في حياة أرسطو الخاصة. لقد فقد والديه عندما كان في أوائل سن المراهقة فحسب، وأمضى سنوات عدة من حياته من دون زواج، قبل وبعد وفاة زوجته الأولى بيثياس، التي أنجب منها بنتًا تدعى أيضًا بيثياس. وفي مرحلة متأخرة من حياته، بعد سنوات عاش فيها مترملًا، وجد السعادة مجددًا مع امرأة تدعى هرييليس تنتمي إلى مسقط رأسه في استاجيرا. لم يتزوجها أرسطو، وهو ما يوحي بأنها ربما كانت أمةً، أو من طبقة أدنى من المواطنين. لكنه هو الذي ربي ولدها، نيقوماخوس، الذي عنون باسمه كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، أو أهدها له. كذلك تبنى أرسطو ابن اخته، نيكانور. وتوضح وصيته وكلماته الأخيرة إلى أي مدى بلغ عمق تفكيره في حماية مصالح هرييليس وأطفاله الثلاثة. لكنه قدّم الرعاية أيضًا لجماعة من الأصدقاء المخلصين بوفاء شديد، خاصة هرمياس، حاكم مملكة أسوس في شمال غربي تركيا، وهو الذي أمضى

معه سنتين بعد أن ترك الأكاديمية،- ولزميله ثيوفراسطوس، الذي ساعده في إنشاء الليسيوم. وعندما يكتب أرسطو عن العلاقات العائلية والصداقة الودودة، تشير التفاصيل الدقيقة إلى أنه كان يكتب من واقع تجربة شخصية، سواء أكانت علاقات موفقة أو من خيبات أمل عميقة. في أيام الفيسبوك هذه، اعتدنا أن نطلق مصطلح «صديق» بسهولة، وهو أمر يحظ من قدر مفهوم الصداقة. يقبل الأشخاص الطموحون كـ«أصدقاء» أناسًا لا يعتزمون أبدًا لقاءهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وإنما يريدون فقط متابعتهم لهم باعتبارهم «معجبين». لذلك من الملهم العودة وقراءة مديح الصداقة الحقيقية الودودة الذي استهل به أرسطو المجلد الثامن من «الأخلاق إلى نيقوماخوس»:

الصداقة هي أحد أعظم متطلبات الحياة التي لا غنى عنها؛ لأنه لا أحد يختار أن يعيش من دون أصدقاء، وإن كان يملك كل شيء آخر حسن في هذه الدنيا. يقدّم الأصدقاء يد العون للشباب بحمايتهم من الوقوع في الأخطاء؛ وللمسنين بالعناية بهم وتعويض ضعف قوتهم عن العمل؛ ولمن هم في مستقبل العمر بمساعدتهم على فعل الأشياء الصالحة.

إننا نستفيد في حياتنا بأكملها من الأشخاص الذين يحبّوننا، وهو ما يعني لأرسطو الأشخاص الذين يهتمّون بمصلحتنا نحن، لا بمصلحة أنفسهم. وهذا النوع السخيّ من الحب متأصل في الطبيعة؛ إذ يقول أرسطو: «يبدو أن محبة الوالد لذريته ومحبة ذريته له غريزة طبيعية، ليس فقط في البشر، ولكن أيضًا في الطيور وفي غالبية الحيوانات؛ وكذلك الحال في الصداقة بين أفراد النوع الواحد». هذا أمر مهم، لأن الفيلسوف الكليبي، ديوجين، الذي كان معاصرًا لأرسطو وكثيرًا ما اتفق أرسطو معه، يصرّ على أن الروابط بين البشر هي انحرافات عن الطبيعة ليست موجودة

في عالم الحيوان. لكن أرسطو، الذي درس الحيوانات بصورة مكثفة وأصبح معروفًا بأنه الأب المؤسس لعلم الحيوان، رد بأن روابط الحب فطرية طبيعية. والفارق الوحيد هو أن المودة بين أفراد النوع، التي يمكن رؤيتها في العلاقات بين الكلاب وبين الطيور على سبيل المثال، «تكون قوية للغاية لدى الجنس البشري؛ وهذا هو السبب في إشادتنا بأولئك الذين يحبون إخوانهم من البشر. فبإمكان المرء -حتى حين يسافر إلى خارج بلده- أن يلاحظ بصورة عامة وجود تقارب طبيعي وصداقة بين الإنسان وأخيه الإنسان في جميع الأحوال والأمكنة». وقد استمتعنا جميعًا بلحظات خاصة جدًا من التوافق الإنساني مع أناس لا تجمعنا بهم لغة مشتركة. وكانت متعتي الشخصية مع نساء أخريات؛ مثل تلك المرأة الصومالية في أثينا التي ساعدتني، على الرغم من عدم وجود لغة مشتركة بيننا، حينما كنت أعاني بعربة طفلي في حافلة مزدحمة، وضحكت بسرور لمبادرة طفلي الاجتماعية بالحديث إليها.

ودراسة أرسطو للصداقة لم يسبق لها مثيل في الثقافة الإغريقية، وهي أكثر تطورًا من أي نظرية أخرى تقريبًا عن الصداقة ظهرت بعد ذلك. ويرجع ذلك إلى أنه يظن أنه توجد ثلاث فئات رئيسية للصداقة. ومن المفيد أن تتأمل الفئة التي يقع فيها كل شخص تدعوه صديقًا وفق هذا النظام. يمكن لإجراء كهذا أن يساعدك على التخلص من الأصدقاء المستغلين، والتعافي من الصداقات المقطوعة عندما تنتهي، واتخاذ خيارات أفضل عند اختيار أصدقاء جدد، والعمل بجدية أكبر من أجل الحفاظ على صداقات مع أكثر الأصدقاء الواعدين. وسيزيد هذا الإجراء أيضًا من شعورك بالأسف على الوفيات المبكرة لأصدقائك الحقيقيين بعدما بذل كلاكما جهدًا كبيرًا في العلاقة. وقد عبّر ديريك والكوت عن ذلك في قصيدته البليغة «قصب البحر» Sea Canes بقوله:

نصفُ أصدقائي ماتوا.

قالت الأرض، سأجعل لك أصدقاء جُددًا.
صحّت: كلاً، بل رديهم إليّ، كما كانوا،
بأخطائهم، وكلّ ما فيهم.

ويصادق أرسطو على ذلك. فهو يقول إن أحد أصعب الأمور التي يواجهها الإنسان حتمًا هو موت أصدقاء العمر والمقرّبين منه. لكن إدراك حجم ما فقدته يمكن أن يجعلك تقدّر ما لديك على نحو أفضل، ويساعدك على أن تستثمر بحكمة في علاقات صداقة جديدة جادة في المستقبل.

إن معظم علاقات الصداقة مفيدة لنا وتساعدنا. وحتى الحيوانات أيضًا يمكن أن تُقيم صداقات مبنية على المنفعة، كذلك التي بين الإنسان والحيوان المستأنس. ويمكن للصداقة أن توجد بين اثنين من الحيوانات، بل وبين نوعين مختلفين من الحيوانات؛ ويُذكرنا أرسطو أن طيور زمار الرمل تساعد التماسيح بتنظيف أسنانها، فيما تمتد أسنان التماسيح هذه الطيور بمصدر للطعام. ولا عيب في صداقة المنفعة؛ فأنت تحكّ ظهري وأنا أحكّ ظهرك، أو أوصل ابنك إلى المدرسة عندما تكون مريضًا وتبادلني بمساعدة أخرى. تتبادل أنت وصديقك شيئًا من المنفعة وهو أمر مفيد، ويعد ذلك شكلاً من أشكال المقايضة الاجتماعية.

ومع الجيران، قد تكون الصداقة مفيدة بالطريقة نفسها لكليهما. فقد تراقبان ممتلكات بعضكما البعض عندما يكون أحكما غائبًا. وقد يطعم أحكما حيوانات الآخر الأليفة، وقد يتلقّى أحكما طلبيات جاره الغائب، والعكس صحيح. وقد تشارك في الأخبار المحليّة المهمّة أو المعلومات التي تؤثر على كلاكما. الثقة ضرورية؛ فإذا وجدت «صديقك المفيد» غير جدير بالثقة، فلك الحق في أن تسحب المزايا التي اعتدت أن تمنحها له. فإذا ترك الجيران حيوان الهامستر الأليف الذي تملكه يتضور جوعًا، فإنك لن تؤذي قططهم، ولكنك لن تعرض عليهم مرة أخرى الاعتناء بها.

تقوم كثير من صداقات المنفعة على التشابه. ومن المفيد تغذية العلاقات الودية مع الأقران (الزملاء من الطلاب، وزملاء العمل، والآباء الجدد الآخرين) الذين تتشابه معهم في احتياجاتهم ومواردهم ووضعهم. وعادة ما تقوم العلاقة على المساواة لأنكم أقران؛ فليس لطرف نفوذ أكبر على الآخر. وما تأملان أن تخرجا به من العلاقة له قيمة متساوية تقريبًا. يُدرج أرسطو تحت هذا العنوان معارفنا الخارجيين الذين قد يمدّون لنا يد العون عندما نزور بلادهم أو نتعامل معها، والذين نساعدهم إذا أتوا إلى بلادنا. تعتبر صداقات المنفعة أنظمة عملية بالأساس، تهدف إلى تسريع المضيّ السلس لحياتنا اليومية، وهي لا تتطلب من الصديق قضاء وقت طويل مع الصديق الآخر. لاحظ أرسطو كثيرًا أن هذه الصداقات تحدث في كثير من الأحيان بين الأشخاص الأكبر سنًا، الذين تعوزهم مساعدة أكبر في الجوانب العملية للحياة أكثر مما تحدث بين الشباب أو من هم في مستقبل العمر، لكنه يظنّ بأنهم لا يتمتّعون كذلك بمصاحبة أصدقاء منفعتهم، و«من ثمّ لا يميلون إلى الدخول في علاقة حميمة ما لم تكن مفيدة للطرفين».

غير أن ثمة صداقات منفعة أخرى قد تقوم بين شخصين مختلفين. يهتم أرسطو بالضغوط التي تقع على الصداقة نتيجة الاختلاف. فربما تنخرط في صداقة منفعة مع أشخاص استأجرتهم من أجل مساعدتك في العناية بأولادك، وقد يتطوّر الأمر إلى شغف متبادل. لكن الأشياء التي تقدّمها إلى القائمين بالرعاية (عادةً المال) تختلف عما يقدمونه هم إليك (رعاية الطفل)، وبصفتي أستاذة جامعية، فأنا أنخرط في صداقات منفعة مع طلاب مرحلة ما قبل التخرّج خلال الفترة التي يدرسون فيها معي. تحاكي هذه الصداقات غالبًا صورة العلاقة بين الآباء والأبناء، بما أنني أكبر سنًا ولأنني أقدم المساعدة في إحدى مراحل النضج. لكن ثمة جانبًا ماليًا مُتَضَمَّنًا أيضًا، بما أن رغبة الطلاب في حضور محاضراتي تجعلهم

يدفعون في نهاية المطاف جزءاً من راتبهم. فرغم وجود تعامل يدعم صداقة المنفعة، يظلّ من الممكن عادةً للمشاعر المتبادلة أن تتطور بناءً على الثقة. ولكن لا يمكننا توقّع دعم يتجاوز المعاملة المتفق عليها بين الطرفين. والعديد من صداقات المنفعة تنهار عندما يقرّر أحد الطرفين بصورة منفردة أن يأخذها إلى مستوى آخر؛ إذ يكون الأمر مخيباً للآمال عندما يمتنع صديق المنفعة عن ممارسة الجنس معه مثلاً، أو عن إقراضه مالاً، أو عن توصيله إلى مركز إعادة التأهيل.

وأرسطو محقّ في أن أصدقاء المنفعة قد لا يحتاجون إلى معرفة بعضهم بعضاً معرفة جيدة؛ إذ غالباً ما تنتهي الصداقة من دون أي حزن، عندما يصل التشابه بين حياة الصديقين إلى نهايته؛ كأن تترك المدرسة، أو الكلية، أو مكان العمل، أو جماعة أمهات وأطفال. ويستشهد أرسطو بالمسافرين الذين يلتقون في جزء من رحلتهم «المنفعة ما، وتحديدًا، لتحقيق بعض حاجياتهم الضرورية»، إلا أنهم يفترون بعد ذلك من دون صدمات نفسية. تستغرق صداقات المنفعة معظم أوقات حياتنا باعتبارنا كائنات اجتماعية، غير أنها تخضع أيضًا لقواعد أساسية، أهمها تجنّب النعمة أو اغتيال الآخرين بين مجموعات الأقران. ويمكن فعل ذلك ببساطة من خلال تغيير الموضوع عند إبداء تعليقات سلبية. توجد طرق عديدة لتقويض صداقات المنفعة؛ كتوقّع أكثر مما ينبغي من الطرف الآخر، أو فرض الحميمية من دون طلب، أو «الإفراط في المشاركة» بالبوح عما في نفسك بطريقة غير مناسبة حول حياتك الشخصية.

والفئة التالية في تصنيف أرسطو هي الصداقة القائمة على المتعة. وتدوم هذه الفئة لأطول وقت ممكن عندما يستمدّ الصديقان أشياء مماثلة من العلاقة. يقدّم أرسطو مثالاً على شخصين مرحين يستمتعان بالتلاقي لأن كلاّ منهما يُضحك الآخر. قد يكون لديك العديد من الأصدقاء الذين تُشبع معهم شغفك بالمسرح، أو العروض الموسيقية، أو سباقات الخيل،

وآخرون تستمتع معهم بكأس من الشراب؛ وهذا لا يعني أن باستطاعتك أن تطلب منهم مساعدتك في بعد آخر من أبعاد الحياة، ولا أن لديك أي التزام آخر نحوهم. وكثيرًا ما يخطئ الشباب في تصور أن الاستمتاع الشديد الذي يختبرونه هو إشارة على أن لهذا الشخص صفات أخلاقية وولاء مماثلان. لكن العديد من الأشخاص الجذابين للغاية الذين بإمكانهم تحسين حياتك بصورة شاملة كأصدقاء متعة لا يمكن مطلقًا أن يكونوا أكثر من ذلك. وأرسطو مُحِقُّ بلا شك عندما يشير إلى أن الفئة العمرية الأكثر قابلية لصداقات المتعة هي فئة الشباب:

فيما يتعلّق بالشباب، يبدو أن الدافع من وراء الصداقة هو المتعة، لأن الشباب يعيشون حياتهم بالعاطفة، وفي غالب الأحيان يسعون وراء ما يجدون فيه متعة لأنفسهم وللحظة الراهنة. وتتغير الأشياء التي تسرُّ الشباب بتغير أعمارهم؛ لذلك فإنهم يقيمون علاقات الصداقة وينهونها بسرعة، لأن مشاعرهم تتغير بتغير الأمر الذي يمنحهم المتعة.

كذلك تعد علاقات الحب العابرة، التي يعتبرها أرسطو مجرد صنف فرعي من صداقة المتعة، شائعة للغاية بين الشباب؛ فالشباب بارعون في بدء صداقات المتعة لأنهم اجتماعيون ويسهل تحفيزهم بدوافع عاطفية. فغالبًا ما يكون هناك تباين في طبيعة المتعة التي يستمدّها كل طرف؛ إذ «ليست المتعة المستمدة من تلقي اهتمام شهنائي هي نفسها المستمدة من النظر في وجه يحبه المرء».

المشكلة هنا هي أنه إذا قامت علاقة الصداقة على الجمال المادي للمحبوب، فإنها ستنتهي مع نهاية ذلك الجمال. (فجميعنا يعرف زوجات، وحتى أزواج، تعرّضوا للهجر عندما فقدوا جمالهم الخارجي). لكن يوجد أمل لهذا النوع من العلاقات، شريطة أن تتطوّر إلى علاقة أكثر تناظرًا تقوم

على تقدير متبادل لشخصية الآخر. ويقر أرسطو بأن هذا يحدث، لكن فقط عندما يحظى كلا الطرفين بجدارية أخلاقية متكافئة. اعثر على شخص تتزوجه يحبك من أجل خصالك الدائمة، لا الوقتية الزائلة، وافعل أنت أيضًا الشيء نفسه. إن قلة عدد الأزواج الذين أجروا، ولو مناقشة واحدة صادقة حول رؤيتهم لمستقبلهم معًا قبل الشروع في علاقة جادة، لأمر يدعو للدهشة بحق. فإذا كانت أهدافك تتضمن إنجاب وتربية أطفال، فمن الغريب أن تختار شريك حياة لا تتضمن أهدافه ذلك. وإذا كنت شديد التركيز على حياتك المهنية، فلن تمضي الأمور بسلاسة مع زوج ليس باستطاعته استيعاب إنفاقك للكثير من الوقت والجهد في العمل.

ولهذا السبب غالبًا ما تنجح الزيجات المُرتبة على نحو جيد، لأن الالتزام والمشاريع المشتركة تمثل جزءًا من الاتفاق الرسمي الذي يدخل فيه الطرفان. تحدّث ناديا حسين، الفائزة بجائزة في العام 2015 عن المسلسل التلفزيوني الشهير *The Great British Bake Off* عن الكيفية التي وقعت بها ببطء في حب زوجها، الذي كانت قد تزوجته بترتيب من والديها عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها فحسب. لم تدرك أنها «تُحبه» إلا بعد أن أنجبا طفلين، واستوعبت إلى أي مدى كانا متوافقين. لاحظت سلوكه في الأماكن المغلقة وخصاله الأخلاقية الدائمة عندما صار أبًا. وينطبق الأمر نفسه على الحب الشديد المُتبادل بين الكاتبين سي. إس. لويس وجوي ديفيدمان في فيلم السيرة الذاتية «أرض الظلال» *Shadowland* للمخرج ريتشارد أتنبرو (1993)، إذ تزوجا في بداية الأمر لأسباب عملية، حتى تمكّن ديفيدمان، وهي أمريكية الجنسية، من الإقامة في بريطانيا، لكن من خلال التفاعل معًا، أدرك كلاهما الاهتمامات والقيم التي كانا يتشاركان فيها، وكم كانت علاقتهما تثري حياتهما.

تمثل صداقات المنفعة وصداقات المتعة علاقات إيجابية ومعززة للحياة. ومع أن أرسطو يعترف بأن الأشخاص السيئين يمكنهم تكوين

صداقات من هذا النوع -حيث يمكن أن يكذب المجرمون لصالح بعضهم بعضًا في المحكمة، وأن يتمتعوا معًا بأعمال غير أخلاقية مُسَلِّية- فإن الصداقات الثانوية تحتاج إلى أن تُصَقَّل داخل حدودها. فحتى يمكن لصداقة المنفعة أن تنجح، عليك أن تفي بدورك فيها مهما كان. وينطبق المبدأ نفسه على العلاقات القائمة على المتعة؛ فإذا استمتع شخص ما بقضاء وقت معك لأنكما تتشاركان الذوق نفسه في الكوميديا السوداء، فإن البكاء طوال الوقت معه وتوقع الدعم منه أثناء فترات الاكتئاب لن يشجعه على الاستمرار كصديق لك. (في الواقع يحذّر أرسطو قائلاً: إن تقديم نفسك للناس على أنك شخصية متجهمّة أو عابسة سيجعل من الصعب عليك للغاية اجتذاب الأصدقاء؛ إذ «يبدو أن المزاج الطيب والمشاركة الاجتماعية هما أكبر دافعَيْن للصداقة»).

ويختتم أرسطو مناقشته عن صداقة المنفعة وصداقة المتعة بالقول إنهما عرضة للانتهاء مبكرًا: «ينفطر عقد الصداقات من هذا النوع بسهولة حال تغَيُّر الطرفين، لأنه إذا لم تعد هذه الصداقات ممتعة أو مفيدة لكليهما، فإنهما يتوقَّعان عن تبادل الحب. والمنفعة ليست صفة دائمة؛ إذ تختلف باختلاف الأوقات. لذا، عندما يختفي الدافع من وراء الصداقة، تتلاشى الصداقة نفسها، لأنها كانت مجرد وسيلة لتحقيق تلك الغاية». لكن انتهاء هذه الصداقات ليس بالضرورة أن يكون مؤلِّمًا على الإطلاق لأي طرف، بشرط ألا يخدع أحدُ نفسه بالاعتقاد بأن العلاقة كانت أكبر من ذلك.

تنبع معظم مشكلات الصداقة من الخلط بين الصداقات الثانوية القائمة على المنفعة أو المتعة المتبادلة وبين نوعية العلاقات الدائمة، والأساسية، والمخلصة. ويصوغ أرسطو الأمر بإيجاز بليغ قائلاً: «تظهر الاختلافات بين الأصدقاء في معظم الأحيان عندما لا تكون طبيعة صداقتهم كما يتصوَّرون». والصنف الثالث، وإلى حد كبير، هو أرفع الصداقات منزلةً، وهو صداقة الحب المتبادل التي تقع بين أفراد

العائلات السعيدة، وبين مَنْ يذلون الجهود من الأشخاص الحميمين من غير الأقرباء. ومن وجهة نظر أرسطو: «نحن نعتبر أن الصديق هو واحد من أعظم الأشياء الطيبة، ونعتبر الوحدة والعزلة شيئاً فظيماً، لأن الحياة بأكملها والعلاقات الطوعية تكون مع الأجرة».

وتشكّل علاقة صداقة قوية بين شخصين يحاول كلاهما أن يعيش «حياة طيبة» ضماناً ضد الشائعات المؤذية. فبحسب ما يقول أرسطو، فإن المرء يكون «متمهلاً في تصديق كلام أي شخص بشأن صديق جرّبه واختبره بنفسه لسنوات عديدة، ونشأت بينهما ثقة متبادلة، ولا يقدر أي منهما على أن يسبب ضرراً للآخر، وامتلكا جميع السمات الأخرى اللازمة لصداقة حقيقية. في حين تكون الأشكال الأخرى للصداقة عرضة للانتهاء بسبب التشهير والشك». وأنا واثقة أن أرسطو كانت لديه تجارب مع أصدقاء طيبين دافعوا عنه إما ضد أشخاص كانوا يحسدونه على ذكائه وألمعيته أو ضد أولئك الذين حاولوا الإشارة إلى أنه خائن لأننا بطريقة ما ومتعاون مع مقدونيا، بعد أن أسس اليسيوم في أثينا العام 336 قبل الميلاد.

وعلى نقىض الفئتين الآخرين، تتطلب علاقات الصداقة الأساسية وقتاً. ويُعدّ طول مدة الصداقة ضماناً لاستقرارها. يعقد أرسطو مقارنة تُظهر التضاد بين اختيار الصديق الذي ينبغي الحفاظ عليه وبين اختيار معطف. فعندما ييلى معطف، يصبح الجديد هو المُفضّل. لكن الأمر ليس كذلك في حالة الأصدقاء. فكلما طالت معرفتك بصديق ازدادت قدرتك على التأكد من أنه شخص صالح. لذلك حتى لو كنت تعتقد بأن صديقك الجديد صديق جيد، فمن الحكمة تفضيل الصديق الأقدم، لأنك لم تختبر إخلاص الصديق الجديد بعد. ولا يمكن اختبار متانة الثقة وحصانتها ضد الانهيار أمام سلوك أي من الطرفين إلا عبر الزمن. يقتبس أرسطو بمرح من شاعر تقليدي هو ثيوجنيس قوله: «لا يمكنك معرفة ما

يدور في عقل رجل أو امرأة حتى تختبره كما تختبر ماشيتك». ويقتبس في موضع آخر. المثل الإغريقي التقليدي عن الصداقة القائل: لكي تدعو إنساناً ما صديقاً، يجب أن يكون قد تناول بصحبتك قدرًا كبيراً من الملح، فالملح هو الرفيق الذي لا غنى عنه في الوجبات الاجتماعية.

ولا يمكن للثقة أن تُبنى في يوم واحد، رغم أنها يمكن أن تنهار في يوم واحد. فلا يستحق الأصدقاء الذين يخونونك أو يخذلونك عندما تكون في أمس الحاجة إليهم، أو الذين يؤذونك، أن يبقوا أصدقاءً أساسيين في حياتك. تعلّمت أن أعطي الأصدقاء المقربين فرصة ثانية واحدة، ولكن واحدة فقط. فربما تكون الأمور قد جرت بصورة خاطئة لأن بعض الأمور لم تُفسّر. لكن إذا عاودوا الخطأ مرة أخرى بالطريقة ذاتها، بعد مناقشة مطوّلة للخطأ الأول، فهذا يعني أن ذلك نتيجة لجانب لصيق بشخصيتهم وليس نتيجة لسوء فهم. وقد لا يُحتم ذلك بالطبع إخراجهم تمامًا من حياتك. فما زلت أحتفظ بصديقين لا أستطيع حاليًا أن أوليهم ثقةً كاملة، لأنهما لم يسانداني مرتين عندما احتجت إليهما أن يفعلا ذلك بالطريقة التي وقفت بها كثيرًا إلى جانبهما. لقد أبقيت عليهما في حياتي لكن منزلتهما تدنّت إلى فئة صداقة المنفعة أو المتعة. كان لدى أرسطو مثل هؤلاء الأصدقاء «الذين تدنّت منزلتهم»، بدليل أنه يقول إنهم بحاجة إلى معاملة خاصة:

هل ينبغي إذا أن نتصرّف تجاه صديق سابق كما لو أنه لم يكن صديقاً على الإطلاق؟ ربما يجب علينا أن نتذكّر مودتنا الماضية، ومثلما نعتقد بأن من الصواب أن نُظهر لطفًا نحو الأصدقاء يفوق ما نبديه للغرباء، ربما ينبغي بالمثل أن نغير بعض الاهتمام لأولئك الذين كانوا أصدقاءنا في الماضي - من أجل الأيام الخوالي - ويكون الأمر على هذا النحو، إذا لم يكن قطع العلاقات ناجمًا عن أذى شديد من جانبهم.

إن الحنين إلى مودة شديدة سابقة يمكن أن يصنع فارقاً، حتى لو كانت تلك المودة قد انتهت بالفعل.

يشدد أرسطو على أنه ليس باستطاعة أحد إنجاح الكثير من علاقات الصداقة الأساسية؛ «فمن أجل صداقة مثالية ينبغي أن تعرف الشخص تمامًا، وأن تصبح على صلة حميمة به، وهو أمر يصعب تحقيقه جدًا». إذا كنت تحظى بالعديد من الأصدقاء الأساسيين فستنشأ تضاربات فعلية في الولاء: «فمن الصعب أن نتشارك بحميمية في الأفراح والأتراح مع العديد من الأشخاص؛ لأنه من المحتمل جدًا أن يُطلب من الشخص أن يفرح مع امرئ، وأن يحزن مع آخر في الوقت نفسه». اختر بحكمة عددًا قليلًا جدًا من الأصدقاء الأساسيين -ربما أقل من أصابع اليد الواحدة- وأولهم العناية والاهتمام. ويشمل هذا اختيار شريك الحياة، وأن تقرر -للأسف- من، من بين أقربائك المقربين أنفسهم، يستحق أن تبذل جهدًا من أجله. تشمل الرعاية على المشاركة في أحزانهم ونجاحاتهم، والمبادرة بمجموعة من الأفعال الطيبة تجاه بعضهم البعض. ويقول أرسطو أيضًا إن هذه الصداقات تتطلب التواصل المنتظم والمحادثات المستمرة.

في أيام كتلك التي نعيشها اليوم والتي يسود فيها البريد الإلكتروني وبرامج مثل سكايب، من الأسهل كثيرًا البقاء على اتصال مع أولئك الذين نُحبهم حين لا نكون قريبين منهم فعليًا. تتطلب تلك العلاقات القريبة التي لا تقدّر بثمن تواصلًا دائمًا. لم أعتد الاتصال بزوجي وأطفالي بما فيه الكفاية في كثير من الأحيان عندما أكون خارج البلاد؛ ولم تكن النتائج طيبة. لذا، أحاول حاليًا أن أتفقد كل واحد منهم يوميًا.

يقول أرسطو إن باستطاعتك أن تكتشف الشخص السيئ، لأنه سيختار بصورة متكررة الربح المادي على حساب سعادة الأصدقاء. كان يوجد مثل إغريقي قديم يقول: «بين الأصدقاء، كل الممتلكات مشاع». لكن

الأشخاص عديمي الأخلاق يستغلون صداقتك لما يمكنهم أن يجنوا منها ماديًا، وليس من أجل الصداقة ذاتها. فتصبح أنت، كما يقول أرسطو، «مُلْحَقًا» للمنافع المادية التي يمكنك تقديمها. وغني عن القول إن ذلك النوع من الأصدقاء هم أصدقاء لا يعرفونك وقت الضيق، فهم سيتخلّون عنك في اللحظة التي تمرّ فيها بأوقات صعبة ولا يعود بمقدورك تحمّل كل تكاليف مشروباتهم.

في فقرة غاية في الروعة، يتنبأ أرسطو على نحو مدهش فكرتنا الحديثة عن الإسقاط النفسي. فالأشخاص عديمو الأخلاق يمكنهم تكوين صداقات ضحلة وعابرة قائمة على المتعة (فيما كان رجلين سيئين مثلاً الاستمتاع بلعب البوكر معًا)، لكنهم يعجزون عن تكوين صداقات أساسية صادقة من أي نوع لأنهم لا يستطيعون الثقة في أحد. والسبب في عجز هذا النوع من الناس عن الثقة في أي شخص آخر هو هذه النقطة المهمة القائلة إنهم يقيّمون غيرهم من الأشخاص من خلال معاييرهم هم أنفسهم. فلما كانوا هم أنفسهم مدفوعين بالأنانية، أو الحسد، أو الرغبة في تحقيق الربح لذاته، فلا يمكنهم حتى أن يتخيّلوا ما يعنيه أن تكون صاحب وعي أخلاقي آخر مدفوع برغبة في سعادة شاملة.

إن الشخص الذي يحبك حقًا كصديق سيتحمّل الأمر بسعادة إذا كنت لا تعلم حتى إنه أسداك معروفًا. هذا لأنه لا يهدف إلى إثبات أي شيء لك، ولا أن ينال شيئًا في المقابل، لكن هدفه ببساطة هو سعادتك القصوى. يشعر الآباء الصالحون بهذا النوع من الإيثار تجاه أطفالهم. وفي الحقيقة، يرى أرسطو أنه من المناسب أن «يحبّ الآباء أطفالهم أكثر مما يحبهم أطفالهم (تفوق الأمهات الآباء في ذلك)، وهؤلاء بدورهم يحبّون أطفالهم أكثر من حبهم لأبائهم». يعتقد أرسطو بأن شدّة حب الأم لأطفالها أعظم حتى من الحب الذي لدى الآباء نحوهم «لأن الناس يقيّمون العمل وفقًا لصعوبته، وتعاني الأم من ألم أكبر عند إنجاب طفل».

ويضرب أرسطو مثالاً منطوقاً على الإيثار حتى من أولئك الأمهات اللواتي يتركن أطفالهن للتبني لأنهن يعتقدن بأن تلك هي مصلحة الطفل. ويستشهد بالتراجيديا التي حاولت فيها أندروماك تهريب ابنها أستياناكس من المدينة بهدف إنقاذ حياته، عندما هدد الإغريق بإلقائه من فوق أسوار طروادة، على أمل أن تبناه سيدة أخرى. وكان هذا يعني أن تُحرَم منه. علاوة على ذلك، ونظرًا لأن أستياناكس كان صغيرًا جدًا، فربما لن يعرف قط بشأن التضحية التي قدّمها أمه من أجله؛ بل ربما ألقى اللوم عليها بوصفها الأم المجهولة التي تخلّت عنه. ويعتبر الأصدقاء الأساسيون المخلصون مثل الأمهات الطيبات بمعنى آخر؛ إنهم يشعرون بألم حقيقي عندما تتألم، ويتمنون لو كان بوسعهم تحمّل الألم من أجل التخفيف عنك. ويضيف أرسطو، المختصّ في علم الحيوان، هنا قائلاً: «والطيور التي تتشارك الألم معاً». ربما كان أرسطو يعلم أن أكثر من 90% من الطيور لا يتزوج إلا من زوج واحد، مقارنةً بـ 3% فقط من الثدييات، وربما كان قد توصل إلى هذا الاستنتاج من خلال ملاحظة المؤانسة الطويلة المتبادلة بين بعض أفراد الطيور.

ربما يجد بعض الناس أن عدم تفريق أرسطو بين نوعية الصداقة الأساسية التي تجمعك بأحد أفراد العائلة وبين تلك التي تجمعك بغير ذوي القربى هو أمر مزعج. ففي الواقع، يُدرك أغلب الناس، في معظم الأوقات، الفارق بين علاقاتنا مع أفراد الأسرة وبين علاقاتنا مع الأصدقاء. إن معرفة أن الناس لا يقدمون لك بالضرورة النوع المناسب من الإخلاص والولاء والرغبة في سعادتك لمجرد أنك مرتبط بهم هو درس صعب، لكنه ضروري. وقد يبدو ذلك خطيرًا، لكن الأمر يستحق التفكير بعقلانية في كل علاقة من علاقاتك الأسرية (باستثناء علاقاتك مع أطفالك الذين تتحمّل مسؤولية خاصة في ما يتعلق بحبهم غير المشروط؛ لأنك اخترت أن تأتي بهم إلى الوجود)، وتقييمها وفقًا

للمعيار الأرسطي. وقد يوجد أيضًا بعض أفراد الأسرة من ذوي القُربى ممن يقدّمون مصلحتهم المادية على سعادتك، أو يوقعون بك الضرر، أو يغدرون بك، أو يتقاعسون عن مساعدتك وقت الحاجة؛ فالدم ليس دومًا أكثر كثافة من الماء كما يقولون؛ فالأصدقاء المكتسبون يمكنهم أن يحبّوك أكثر بكثير من الجماعة التي ترتبط بها بالحمض النووي، أو عبر التنشئة الاجتماعية والتربية، في حال تبنّك أحدهم. هنا يمكن لمفهوم صداقة المنفعة أن يساعد. فإذا كنت سيئ الحظ إلى درجة أن يكون لديك ابن عم أو شقيق لا يبدي أي بادرة لرد مبادراتك الطيبة نحوه، فعندئذ سيكون أرسطو واضحًا في أنه يمكن إنزاله إلى مرتبة الصديق الثانوي، حيث يمكنك من دون شك تبادل تهاني الأعياد ودعوات الزفاف معه، من دون أي حاجة للشعور بالذنب.

وثمة قدر كبير من التفصيل والدقّة في الفكرة التي وضعها أرسطو للحفاظ على الصداقات الأساسية. إذ يبدو وكأنه يتحدّث عن خبرة عندما يقول إن أصدقاء الطفولة لا «يكبرون» في كثير من الأحيان بالسرعة نفسها، وأن النشأة المختلفة يمكن أن تجعل من المستحيل على الأصدقاء السابقين أن يحققوا أي شيء من العلاقة بعد ذلك. وإذا كنا مُقَرَّبِينَ لشخص ما يبدو أنه يخضع لتغيّر في الشخصية، وتكوّن لديه نزعة منافية للأخلاق، فهل يجدر بنا إنهاء الصداقة؟ يستعصي في العموم علاج الأصدقاء غير الكتومين للأسرار، وليس بإمكانهم أن يكونوا أكثر من مجرد عبء. لكن بالنظر إلى قاعدتي الشخصية المتعلقة بمنح فرصة ثانية (وليس ثالثة)، فأنا مسرورة لاكتشاف أن أرسطو لا يمانع في منح الأصدقاء الأساسيين فرصة أخرى للصداقة، إذا كان الخطأ قابلاً للعلاج، «فطالما أنهم قادرون على الإصلاح، فنحن ملزمون أخلاقيًا بتقديم يد العون لهم بأكثر مما ينبغي لنا مساعدتهم ماليًا، حيث إن الشخصية هي شيء أكثر قيمة من الثروة وأوثق صلة بالصداقة».

الفصل الثامن

المجتمع

نحن جميعاً أفراد في مجتمعات تتجاوز حدودها عائلاتنا وأصدقاءنا المقربين. وتتوقف سعادتنا على عدة عوامل، من بينها ما إذا كنا نشعر بالراحة مع المواطنين الذين نحيا معهم من أبناء الشعب نفسه ومواطني الشعوب الأخرى التي تقطن كوكبنا. قد نجد صعوبة في تدبر مسؤولياتنا التي يقتضيها كوننا أفراداً في جماعات، ولا سيما في أوقات الاضطرابات السياسية، أو حين لا نتفق مع سياسات الحكومة. تتمثل إحدى المشكلات الأخرى في الشعور بالعجز الذي يراودنا في مواجهة مشكلات دولية واسعة النطاق، مثل الأزمة البيئية، وهو شعور غالباً ما يقودنا على نحو مفهوم إلى رغبة في الانسحاب والتفوق في حياة خاصة واللجوء إلى الهروب والانهزامية.

لقد أدرك أرسطو هذا الأمر؛ فقد عاصر هو نفسه أزمة كانت فيها معارضة القوى الحاكمة تشكل خطراً فعلياً. ففي مقدونيا، أدار فيليب الثاني شؤون الحكم بصفته حاكماً مستبدًا لا يرحم؛ وفي أثينا، مع أنها كانت نظاماً ديمقراطياً، كان أرسطو دائماً دخليلاً، أجنبياً مقيماً، لا يحظى بحقوق المواطن الأثيني الكامل. ولا بد أنه راوده شعور بإدارة ظهره للقضايا السياسية برمتها والانسحاب تماماً إلى مكتبته الشخصية الضخمة. إلا أنه لم يفعل ذلك، بل استمر في تعليم تلامذته (الذين كان يجري تهيئة العديدين منهم ليكونوا قادة)، وإلقاء المحاضرات على عامة

الشعب الأثيني في اليسيوم. وفوق ذلك كله، واصل الكتابة، بتبصر استثنائي، عن السياسة وعلاقة المواطنين بالمجتمعات الإنسانية الأوسع نطاقًا، بل وعلاقاتهم بالطبيعة وعالم الحيوان.

يرى أرسطو أنه لا يمكن خلق سعادة حقيقية بمعزل عن الآخرين. فقد يجد البشر متعةً في قضاء فترات وجيزة من العزلة، لكنهم بيولوجيًا حيوانات اجتماعية، ينجحون ويتألقون على النحو الأمثل عندما يعيشون في إطار علاقات تربطهم بأشخاص آخرين وحيوانات، وينخرطون في أعمال صالحة متبادلة. وفي أثينا القديمة، كانت الآلهة التي تمثل العلاقة التبادلية هي الحِسان الثلاث (إلهات الحسن الثلاث)، الأخوات اللاتي كُنَّ يُسمَّين «الجمال» و«البهجة» و«الازدهار». وغالبًا ما كُنَّ يُرسمن، في الأعمال الفنية، ممسكات بيد بعضهن في دائرة، لأن ثلاثتهنَّ يمثلن اللحظة التي تشهد تحوّل علاقة ثنائية بسيطة إلى مجموعة معقدة من التعاملات، التي تشكل نواة المجتمع. ويعكس هذا تدفق المساعدة المتبادلة في أرجاء المجتمعات الإنسانية في «دائرة فاضلة». يُبدي أرسطو موافقته على عادة إقامة مزار مقدّس للفضائل في مكان عام ظاهر «لتذكير الناس برد الإحسان؛ إذ إن تلك هي إحدى السمات الخاصة المميّزة للفضيلة، حيث إن الواجب لا يقتصر على ردّ خدمة قدّمت لك فحسب، ولكن أن تبادر في وقت آخر بنفسك لتقديم خدمة ما». فلا يكفي، في أخلاقيات الفضيلة، أن تتجاوب مع مبادرات ودّية؛ بل يجب أن تكون أنت نفسك مبادرًا، وأن تشرع بنفسك وتعمل بنشاط على تعزيز التعاون بنفسك.

جاءت النصوص التي يناقش فيها أرسطو سبل البشر للعيش على نحو أفضل معًا في كتابيه «الأخلاق إلى نيقوماخوس» و«السياسة». يستخدم أرسطو تشبيه تخفيف السكر في الماء بتركيزات مختلفة لشرح قوة العاطفة التي نشعر بها تجاه أفراد شتى من عائلاتنا، وتجاه أصدقائنا، وإخواننا المواطنين. يقول أرسطو: «الحقوق المتبادلة بين الآباء والأبناء

ليست هي نفسها الحقوق المتبادلة بين الأخوة؛ والتزامات أفراد رابطة أو مجموعة اجتماعية ليست مطابقة لالتزامات المواطنين؛ ومثلها أنماط الصداقة الأخرى». فالحاق الضرر بشخص آخر يكون أكثر فداحة بالتناسب مع حميمية الرابطة؛ فالصدمة أكثر فداحة في حالة الاحتيال على صديق وسرقة ماله مقارنة بالاحتيال على مواطن عادي؛ أو رفض مساعدة أخ وليس شخصاً غريباً.

تشكّل علاقاتنا مع بني وطننا، وفق نظرية أرسطو السياسية، فئة فرعية خاصة تندرج ضمن صداقة المنفعة؛ إذ تتواجد هذه العلاقات من أجل المنفعة المتبادلة وتنتهي بانتهاء المصلحة الشخصية المتبادلة. ويعتري الدول خلل عندما لا توجد شراكات ودية بين مواطني تلك الدول. ويورد إسماعيل كاداريه في روايته «ابنة أجاممنون» *Agamemnon's Daughter* (2003) سرداً لاذعاً للتدهور المحتمل لجميع العلاقات في دولة تشوبها مظاهر الخلل. يستعين الكاتب في روايته بقصة التضحية بالبطلة في مسرحية يوريبيديس «إفيجينيا في أوليس» *Iphigenia in Aulis* (والتي يتصادف أن أرسطو هو الآخر كان مفتوناً بها) مثلاً على التأثير الذي يخلقه نظام الحكم المجرد من الإنسانية في ألبانيا في أوائل ثمانينيات القرن الماضي والانحطاط الأخلاقي الذي يُبتلى به أي شعب تحكمه حكومة غير مسؤولة. يبيّن كاداريه أن جميع أفراد المجتمع معرّضون لخطر فقد بوصلتهم الأخلاقية عندما يكون الإرهاب هو المضمون النفسي السائد:

شعرنا كل يوم بوطأة عجالات وتروس الشعور الجماعي بالذنب تدفعنا أكثر إلى الأسفل. كنا مجبرين على اتخاذ موقف، واتهام الآخرين، والتشهير بالناس وتلوّث سمعتهم؛ كنا نلوّث أنفسنا في المقام الأول، ثم الجميع بعد ذلك. لقد كانت طريقة مخيفة بالفعل، لأنه بمجرد أن تهين نفسك، يسهل

عليك تدنيس كل ما حولك. كل يوم وكل ساعة كانت تمرّ كانت تنهش في نسيج القيم الأخلاقية.

والدولة المثالية عند أرسطو عكس ذلك تمامًا؛ إذ تتعاضد فيها العلاقات الأولية. فالحكومة الجيدة لدولة مدينة، التي تسعى لتحقيق سعادة مواطنيها، يجب أن تُرسي أساسًا للصدقات بين مواطنيها وتعمل على تعزيز ذلك الأساس وتعزيز المواطنين أنفسهم.

يطلق أرسطو على أساس الصداقة المدنية هذا اسم «الوفاق المدني»، الذي يصف سلوكًا ثابتًا تجاه الأفراد الآخرين الذين تتألف منهم الدولة. ويتألف السلوك من النية الطيبة وكذلك الالتزام بالمسؤولية المتبادلة، ويهدف إلى تأمين ما يلائم كل فرد بطريقة أخلاقية وفقًا لما تمليه ضمائرنا. ومع الأسف، دائمًا ما سيكون هنالك مواطنون لا يمكنهم الانخراط في مشروع الوفاق المدني مثلما لا يمكنهم تكوين صداقات جادة في حياتهم الشخصية، «لأنهم يسعون للحصول على ما يفوق نصيبهم من المزايا، والاضطلاع بنصيب أقل من العمل والأعباء العامة». إن أرسطو واضح في اعتقاده بأن المواطنين الذين لا يحبّون إلا أنفسهم، ويحصلون على أكثر من نصيبهم العادل من موارد مجتمعهم يستحقّون اللوم بحق. علاوة على ذلك، «لا يمكن للمرء أن يتوقع أن يستغل المجتمع من أجل التكبّس ويحظى باحترام ذلك المجتمع في الوقت نفسه؛ فالناس لا يسعون للتكبّس من وراء أصدقائهم». لكن، عندما يتعامل غالبية المواطنين مع بعضهم البعض كأصدقاء، يمكن للدولة بأسرها أن تسلك طريق السعي وراء السعادة.

تحدث شراكات المنفعة بين المواطنين ضمن نسيج أكبر من صداقات المنفعة التي تكون في مكان عملك أو مدرستك. ومع ذلك، فإن تأكيد أرسطو على المواطنة بوصفها أحد أنواع الصداقة يشكل أساس إحساسه بوجود حجم لا يمكن للدولة المدينة المستقرة أن تتجاوزه في النمو. وهو

يتحدث باستنكار وذهول عن بابل، التي كانت مترامية الأطراف إلى درجة أنه «عندما احتلّت، لم يدرك قسم كبير من المدينة ما حدث سوى بعد ثلاثة أيام من احتلالها». أيضًا تفضي الزيادة السكانية إلى الفقر؛ إذ حاول أحد المشرّعين في كورنثوس أن يبرهن أن أفضل سياسة هي الحفاظ على الأرقام نفسها عبر الزمن. يعتقد أرسطو أن ثمة حدًا طبيعيًا لحجم المجتمع المدني الذي يعمل بتناغم جيد، تمامًا مثل السفينة؛ فالسفينة يجب ألا تكون صغيرة جدًا (ليست أعرض من ذراع) ولا طويلة أكثر من اللازم (ربع ميل)، لأنها في كلتا الحالتين لن تؤدي وظيفتها بكفاءة. ويبدو أنه كان قلقًا، حتى في القرن الرابع قبل الميلاد، بشأن الاكتظاظ السكاني أكثر من قلقه من نقيضه، أي قلة عدد السكان. كما أنه يستخدم استعارة «سفينة الدولة» لشرح الوفاق المدني؛ فالمواطنون شركاء في مجتمع محليّ، شأنهم في ذلك شأن بحارة السفينة. «ومع أن البحارة يتمايزون من حيث الوظائف - فأحدهم مجذّف، وآخر قائد الدفة، وآخر مُستطَلع، وآخر له مسمى وظيفي مشابه»، ولكل منهم مهاراته الفردية التي تميزه عن غيره - إلا أنهم يعملون معًا سعيًا لتحقيق هدف مشترك، «فالأمن أثناء الإبحار هو الشغل الشاغل لهم جميعًا». وعلى نحو مشابه، مع أن المواطنين في الدولة المستقرّة يضطلعون بوظائف مختلفة، فإنهم يتشاركون هدفًا مشتركًا يتمثّل في رفاهية مجتمعهم.

يتأمّل أرسطو النظم التأسيسية من خلال النظر في سلامة العلاقات الفردية التي يقوم عليها المجتمع السياسي. ويعقد مقارنة دقيقة بين أنواع النظم التأسيسية الأربعة المختلفة في اليونان القديمة: الديمقراطية، والاستبدادية، والأرستقراطية، والملكية (ويُضاف إليها أحيانًا نظام خامس، هو نظام ملكي فائق يضم أعراقًا متنوّعة يحكمها «ملك الجميع» Pambasileus، ربما استُحدث لوصف المشروع الإمبراطوري المقدوني). وكان لهذا النقاش المقارن تأثير هائل على الفكر السياسي

وعلى الممارسة السياسية بكل تأكيد؛ إذ نشأت مفردات النظرية السياسية الأوروبية ذاتها في الوقت الذي شهد ترجمة كتاب «السياسة» لأرسطو للمرة الأولى إلى اللغات الحديثة، ونسبها لأنفسهم المدافعون عن كل نمط من أنماط أنظمة هذه المفردات. فقد أورد جون ميلتون -بعد مضي شهر من إعدام تشارلز الأول في يناير -1649 في كتابه «ولاية الملوك والقضاة» *The Tenure of Kings and Magistrates*، الذي يبرّر فيه قتل الملك عندما يجعل الملك من نفسه مسؤولاً أمام الله وحده، ما جاء في تعريف أرسطو للملكية في كتابه «السياسة».

يوجّه أرسطو أكثر انتقاداته حدةً إلى الطغاة المستبدّين، الذين يقول إنهم يشبّطون أي أنشطة بين المواطنين من شأنها تعزيز تقدير الذات والثقة بالنفس. هذه الأنشطة تتضمّن، على نحو معبّر، جهد الفلاسفة، مثل أفلاطون وأرسطو، الذي شكّل «قوام دوائر الدراسة وغيرها من المؤتمرات المنعقدة للنقاش». فمعظمنا اليوم لن يتحمّل برضا العيش في ظل أي نظام يقمع التعلّم الذاتي، أو النقاش، أو في الواقع، أي نظام سوى الديمقراطية. فأكثر من نصف سكان العالم في يومنا هذا يعيشون في ظل أنظمة ديمقراطية قائمة على الانتخاب. ومع ذلك، ووفقاً للمعايير الأخلاقية لأرسطو، يقبل العديد من هذه الأنظمة الديمقراطية القائمة على الانتخاب سلوكيات بغيضة قبولاً تاماً وعلى نطاق واسع: فقد ذكرت معظم التقديرات أن نسبة البشر الذين يعيشون في بلدان تحترم حقوق الإنسان الأساسية وسيادة القانون تقل عن 40%. وردّ أرسطو على الأنظمة التي تستخدم التعذيب سعياً لانتزاع المعلومات هو ما يلي: توقّفوا عن ذلك، لأنه لا يفيد. وقد ذكر في كتابه «الخطابة»: «أولئك الذين يتعرّضون للتعذيب يتساوى احتمال أن يقدّموا أدلة زائفة أو حقيقية، ويكون البعض منهم مستعدّاً لأن يتحمل كل شيء عوضاً عن

قول الحقيقة، في حين يكون البعض الآخر مستعدًا بالقدر نفسه لتوجيه اتهامات باطلة بحق آخرين، أملًا في أن يتخلص من التعذيب».

يعي أرسطو المشكلات العديدة المرتبطة بالديمقراطية. ففي إحدى الفقرات المدوية عبر كل العصور، يقرّ أرسطو أن تنظيم ملكية العقارات يسبّب الاستياء: «لأنه إذا كان مقدار التنعم بالمحصول والعمل اللازم لإنتاجه ينتهي بهما الحال إلى ألا يكونان متساويان بل ومجحفان أيضًا، فلا بد أن تظهر الشكوى بين أولئك الذين يأخذون الكثير ولكن يعملون قليلًا وأولئك الذين يأخذون قدرًا أقل لكنهم يعملون أكثر». ويخلص بجدية إلى أن هذه مشكلات يصعب حلها: «فبوجه عام، يعدّ العيش معًا وتشارك جميع شؤوننا الإنسانية أمرًا صعبًا، ولا سيما التشارك في أمور كهذه». ومع ذلك، فقد اختار أن يعيش في أثينا لأكثر من ثلاثة عقود من حياته الراشدة، وإن كان أجنبيًا مقيمًا ليست له حقوق المواطنة، ومن ثمّ لا يمكن أن يكون قد وجد النظام الديمقراطي عاديًا.

لا يستهجن أرسطو الديمقراطية بقدر ما يستهجن ويتنقّد أي نظام آخر. ففي كتابه «الخطابة»، يحدّد أهداف أنظمة الحكم المختلفة، بطريقة تظهر تفضيله للديمقراطية: فالهدف من الديمقراطية هو الحرية، في مقابل الثروة (هدف حكم الأقلية)، والثقافة العالية والانصياع للقانون (هدف الأرستقراطية)، وحماية الذات (هدف الاستبداد). ويشير إلى أن النظام الذي يفسح أكبر «مجال للصدقة والعدالة بين الحاكم والرعية» هو الديمقراطية، «حيث يكون بين المواطنين - لكونهم متساوين - الكثير من الأمور المشتركة»، ولا عجب في أن النظام الأكثر عداءً للصدقة والعدالة بين المواطنين هو النظام الاستبدادي.

كذلك يرى أرسطو أنه على الرغم من أن الأنظمة الديمقراطية قد تتداعى، يمكن لجماهير الناخبين الذين يمتلكون السلطة في النظام الديمقراطي أن يتوصّلوا إلى قرارات أفضل بكثير من قرارات

العدد القليل من الحكام المشاركين في الأنماط الأخرى من الأنظمة السياسية. ويقارن قرارًا تتخذه الجماهير بمأدبة عامة يشارك فيها العديد من المواطنين على اختلافهم بأطباق مختلفة، ويقول إن ذلك سيكون أفضل حتمًا من عشاء يقيمه مضيف واحد؛ فعندما يجتمع المواطنون معًا لاتخاذ قرار في قضايا قانونية أو للتفكير والتشاور، «يكونون رجالًا واحدًا له أقدام كثيرة وأيدي كثيرة وحواس كثيرة، كذلك أيضًا يصبح الكثرة شخصية واحدة في ما يتعلق بالقدرات الفكرية والأخلاقية. ولهذا السبب العامة أفضل في الحكم على الموسيقى وأعمال الشعراء، لأن أناسًا مختلفين يمكنهم الحكم على أجزاء مختلفة من الأداء، ويحكم جميعهم على جميع مكوثاته». ويمكننا أن نتعلم اليوم من توصية أرسطو بأن في الديمقراطية المثالية، يكون لدى جميع المواطنين القدرة والحافز على المشاركة في الحكومة، من خلال تحديد مدد قصيرة لمناصب الدولة، وتقديم دعم مالي للحصول على إجازة للقيام بأمر ما مثل خدمة في هيئة المحلفين. أيضًا يشير أرسطو إلى أن تفشي الفساد في عدد كبير من المواطنين أصعب من فساد فرد واحد، مثلما يكون تلويث «مجرى مائي كبير» أصعب مقارنة بقناة صغيرة. قد يضلّ حكم المرء جراء الغضب أو لشعور آخر أقوى، لكن من غير المرجح أن يشعر جميع المواطنين ضمن نظام ديمقراطي بالغضب في الوقت نفسه.

نصف سكان الكوكب، على أقل تقدير، لا يستخفون بمسألة الاستقرار السياسي النسبي. ويؤمن أرسطو بفكرة المدينة الفاضلة؛ إذ يتصور أنه بإمكان كل إنسان على قيد الحياة أن يدرك قدرته ويستفيد استفادة تامة من إمكاناته («المبدأ الأرسطي» المتميز وفقًا للفيلسوف السياسي الأمريكي جون رولز). بل إنه يتخيل عالمًا مستقبليًا يجعل العمل البشري (ومن ثمّ العبودية، بحسب السياق التاريخي لأرسطو) غير ضروري نتيجة التطورات التكنولوجية. ويتذكر الحرفيان الأسطوريان دايدالوس

وهي فايستوس، اللذان صنعا روبوتات يمكن أن تتحرك وتعمل وفقاً للأوامر، لتتفي بذلك الحاجة إلى الخدم من بني الإنسان: «لأنه إذا كان بإمكان كل أداة أن تؤدي عملها عندما تؤمر بذلك، أو عن طريق أن تتوقع ما يتعين القيام به مقدماً، مثل تماثيل دايدالوس المذكورة في القصة، أو حوامل هي فايستوس الثلاثية الأرجل التي يقول عنها الشاعر إنها «تدخل إلى المحفل الإلهي تلقائياً»؛ ولو كان بوسع مكوك النسيج أن ينسج على هذا النحو، والريشة أن تعزف على القيثارة من تلقاء نفسها، ما كان الحرفيون سيحتاجون إلى مساعدين، وما احتاج السادة إلى عبيد». يكاد يبدو كما لو أنه توقع التطورات الحديثة في الذكاء الاصطناعي.

تتسم نظرية أرسطو السياسية عن المدينة الفاضلة بالمرونة. يمكنك أن تكون رأسمالياً أو اشتراكياً، أو سيدة أعمال أو عاملاً في مجال الأعمال الخيرية، وأن تصوت لأي حزب سياسي (تقريباً)، وتظل أرسطياً ملتزماً. ولأن أرسطو يؤكد على أن الهياكل الاجتماعية لا تكون مستقرة إلا إذا كانت تتواءم مع الطبيعة البشرية، رأى المحافظون فيه ممثلاً لهم في بعض الأحيان؛ فقد أثنى عليه بنجامين ويكر في كتابه «عشرة كتب يجب على كل محافظ أن يقرأها» *Ten Books Every Conservative Must Read* (2010). غير أن الرأسماليين الأرسطيين ليسوا بالضرورة من أولئك الذين يسمحون بوجود الفقر بين مواطنيهم. لقد أدرك أرسطو أن البشر يتنازعون إذا ندرت السلع. لكنه يقرّ بالقوانين الأساسية التي ما زالت الرأسمالية الحديثة تستند إليها. ويُعدّ أرسطو أول فيلسوف من الفلاسفة الإغريق القدامى يشرح معنى «الاحتكار»، وهو يستخدم هذه الكلمة بعينها ويدلل عليها بأمثلة. ووجهة نظره هي دحض حجج أولئك الذين يزعمون عدم جدوى الفلسفة، من خلال إثبات عدم قدرة الفلسفة على إدارة الأعمال التجارية بنجاح؛ بل كل ما في الأمر أنهم يفضلون التركيز على أمور أسمى. لقد وجّه أناس زعموا أن الفلسفة وحياة التساؤل الفكري بلا

جدوى نقدهم إلى طاليس، مؤسس العلوم الطبيعية في القرن السادس قبل الميلاد؛ لكنه تمكن من الاستفادة من خبرته العلمية في أن يتوقع في أحد فصول الشتاء غزارة محصول الزيتون في الصيف التالي. وكان لديه من بعد النظر ما جعله يستأجر جميع معاصر الزيتون في منطقته، ويحتكرها احتكارًا تامًا، ثم فرض رسومًا مرتفعة على تأجيرها من الباطن. جعله ذلك يجني ثروة يقول عنها أرسطو إنها «ثبتت أن بوسع الفلاسفة أن يكونوا أغنياء بسهولة إن اختاروا ذلك، ولكن هذا ليس ما يشغلهم».

وبإصراره على جعل النظرية السياسية قائمة على احتياجات البشر الأساسية، فهم أرسطو إلى حد بعيد أكثر الأفكار الاقتصادية تطورًا والتي لم تكن قد ظهرت في عصره مطلقًا؛ وقد كان هذا هو السبب الرئيسي وراء إعجاب كارل ماركس الشديد بأرسطو والسبب هو وجود أتباع مؤيدين له في أوساط اليساريين كما هو الحال أيضًا في أوساط المحافظين. غير أن الاشتراكيين الأرسطيين بحاجة إلى الإقرار بأن توسيع نطاق الملكية العامة الإجبارية لتشمل العقارات السكنية غير ناجح. فحين يسود الغموض بشأن هوية المسؤول عن ممتلكات الدولة، يعتقد أرسطو بأنه لا أحد يتحمل هذه المسؤولية مطلقًا. كما نبّه إلى أنه كلما زاد عدد الأفراد المشتركين في حيازة ممتلكات أيًا كان نوعها، قلت العناية التي يوليها أي فرد من أولئك الأفراد لهذه الممتلكات. يعتني الناس بالأشياء لأنهم يجدون متعة في الشعور بالملكية الخاصة ونظرًا للقيمة التي تمثلها الأشياء لهم؛ وهما سمتان تضعفان إذا جرت مشاركة الملكية مع الغير. يرى أرسطو أن «كل إنسان يحب الشيء أكثر إذا تكبد مشقة في سبيله؛ فعلى سبيل المثال، أولئك الذين يكسبون المال يحبونه أكثر ممن ورثوه». إن تملك الأصول، أيًا كان نوعها، عن طريق العمل الشاق يصنع ارتباطًا أقوى من الحصول عليها من دون جهد يذكر.

سيتهج الاشتراكي الأرسطي حين يجد أن أرسطو يدين الفقر المدقع

باعتباره سببًا للنزاع والجريمة، ويأخذ على محمل الجد وجهة النظر المتطرفة لأحد دعاة تحقيق المساواة الاجتماعية المعاصرين له، الذي يدعى فاليس الخلقيدوني، الذي رأى في عدم تحقق المساواة في توزيع الممتلكات سببًا جامعًا وراء النزاعات المدنية. أوصى فاليس بضرورة أن يكون لجميع المواطنين القدر نفسه من الملكية. وعلى الرغم من عدم موافقة أرسطو على هذا التطرف في المساواة، يستشهد باستحسان واضح بالتوصية الواردة في كتاب «القوانين» Laws لأفلاطون، توصية مفادها أنه لا ينبغي السماح لأي مواطن بامتلاك عقار يزيد حجمه على خمسة أضعاف حجم أصغر العقارات. (هذا، بالطبع، مستوى من عدم المساواة مقبول جدًا بالقياس إلى المستوى الموجود في الرأسمالية الغربية الحديثة؛ ففي 7 يونيو العام 2016، دافع السير مارتن سوريل -الرئيس التنفيذي للمجموعة الإعلامية «دبليو بي بي»- على رؤوس الأَشْهاد عن حزمة راتبه السنوي المقترحة البالغة 70,4 مليون يورو، والتي لا تمثل خمسة أضعاف راتب عامل مخزن فحسب، بل 5000 ضعف راتبه). يقرّ أرسطو بأن عدم المساواة في توزيع الثروة يصاحبه مشكلات، من بينها النزاعات المسببة للشقاق والخنوع المفضي للتمرد على الأشخاص فاحشي الثراء.

غير أن أرسطو رأى أيضًا أن تماثل المستوى الاقتصادي قد يهدّد تنوّع الأسر المعيشية الذي يثري ثقافة الدولة، والتمييز الضروري بين أن يكون المرء فردًا في أسرة وبين كونه فردًا في دولة؛ فالدولة التي تتألف من عناصر متماثلة تمامًا سيقلّ معدل السعادة فيها مقارنةً بأخرى تسمح بوجود درجة محدّدة من عدم المساواة، مثلما يحدث في الموسيقى من «تحوّل للإيقاع الموسيقي المتّسق إلى نغمات متّسقة أو تحوّل الإيقاع إلى تفعيلة منفردة». لا بد للاشتراك في الأرسطي أن يقبل بوجود فرق بين السلوك السيئ وأنظمة الحكم الفاسدة.

وعلى الرغم من أنه يمكن لمعتنقي الآراء السياسية اليمينية واليسارية أن يمارسوا فلسفة أرسطو الأخلاقية (في حدود معينة)، فسيكون من المستحيل على من ينكر التغير المناخي أن يتحمس كثيرًا لأرسطو. كان أرسطو عالمًا طبيعيًا يؤمن بالبحث شديد التدقيق الذي يستند إلى الملاحظة التجريبية المتكررة لما هو متاح في عالمه من ظواهر (*ta phainomena*) والفحص الدقيق للفرضيات، لذا لو أتيحت له فرصة زيارة عالمنا المعاصر، كان سيشعر بالقلق الشديد من حجم الأدلة التي تثبت الأضرار البيئية التي يتسبب فيها الإنسان، والتي كان سيلاحظها من حوله. فالدراسات التفصيلية التي أجراها في أعماله العلمية، حول العالم المادي، ووضعنا بصفتنا كائنات بشرية حية تتنفس ومتجسدة، هي أيضًا إرهابات لفلسفته الأخلاقية.

وباعتقاده أن البشر ما هم إلا حيوانات - وإن كانوا متطورين - أحدث تحولًا في العلاقة الأخلاقية بيننا وبين بيئتنا المادية لا يزال ذا أهمية غير محدودة لنا في يومنا هذا. وبعدها أصبحنا نعي بالكامل مدى الضرر الذي ألحقناه بصفتنا أحد أنواع الكائنات الحية بالكوكب الذي نشاركه مع العديد من الكائنات الحية الأخرى، يمكننا أن نرى أن أفكاره العلمية هي بالفعل أساسية لمشروعنا لتحقيق الذات الإنسانية. كان أرسطو سيصاب بالفزع من حجم الفوضى التي أحدثناها في العالم بعجزنا عن تحمل مسؤوليتنا بجدية تجاه هذا العالم وتجاه المخلوقات الأخرى غير البشرية التي تعيش فيه. وعلاوة على ذلك، فإن التزامه بعيش حياة مخططة بطريقة مدروسة، وتحمل مسؤولية كاملة وطويلة المدى عن بقائنا على قيد الحياة وكذلك سعادتنا العقلية، يجعل منه أحد رواد البيئة اليوم، وهو ما يتفق عليه العلماء ودارسي النصوص الكلاسيكية القديمة.

وكثيرًا ما يستخدم علم البيئة نظريات أرسطو لأنها تشدد على السببية في العالم المادي، ولأن تركيزه على تكامل وتفاعل كل شيء في هذا

العالم يتوافق مع نظرية الأنظمة المعقدة^[10]. ويشير علماء البيئة إلى وصف أرسطو الرائع لوحدة الطبيعة (*physis*)، وارتباطها الذي ذكره في كتابه «ما وراء الطبيعة»:

كل الأشياء [في الكون] مرتبة معًا بطريقة ما، ولكنها ليست جميعها متشابهة، كالأسماك والطيور والنباتات؛ والعالم لا يسير بطريقة تنقطع فيها العلاقات بين الأشياء، بل هي مرتبطة ببعضها البعض. ولأن كل الأشياء مرتبة لغاية واحدة... فجميعها تشارك في خير المجموع^[11].

النباتات والحيوانات والبشر موجودين، كما يرى أرسطو، في دوائر مترابطة من الاعتماد المتبادل: «تستمر الطبيعة وتتطور رويدًا رويدًا من أشياء لا حياة فيها إلى حياة حيوانية بطريقة يستحيل معها تحديد خط دقيق للحدود الفاصلة بينها». فطن أرسطو إلى فكرة أن المناخ يمكن أن يتغير عبر الزمن وأنه يمكن للتغيرات البيئية أن تهدد الجنس البشري: وهو يتحدث في كتابه «ميتورولوجيا» *Meteorology* عن شيخوخة الأرض والتغيرات المتصلة التي ستطرأ على الأرض والبحار. دُمرت سلاسل كاملة (*ethnoi*) قبل أن يتسنى لها تسجيل ما لحق بها، ويقول إن الأرض حول ميسينا أضحت بمرور الوقت قاحلة جديداً.

ويرتبط مفهوم أرسطو الأخلاقي عن الاقتصاد ارتباطاً وثيقاً بنفس القدر بنزعة حماية البيئة. يقول أرسطو إن النشاط التجاري يمكن تقسيمه إلى فئتين؛ الأولى طبيعية، وتشكل جزءاً من «الحياة الطيبة»، إذ يحتاج البشر إلى أشياء تؤمن لهم أسباب الراحة في منازلهم. غير أن هذا النوع من النشاط التجاري له حدود متأصلة، لوجود حد تكون عنده السلع كافية لبقاء البشر على قيد الحياة. أما الفئة الأخرى من النشاط التجاري، التي يراها غير طبيعية، فلا تحكمها أي حدود أيًا كان نوعها؛ وكأنه كان يصف

الرأسمالية الصناعية الجامحة^[12]. وحدهم البشر يمتلكون وازعًا أخلاقيًا، ومن ثم، فوحدهم البشر -كونهم سكان للعالم الطبيعي على كوكب الأرض يحيون جنبًا إلى جنب مع عدد مذهل من النباتات والحيوانات- عليهم مسؤولية استثنائية متمثلة في العناية بهذا الكوكب. لكن بسبب ملكتهم العقلية، يمتلك البشر أيضًا القدرة على إحداث ضرر فادح: فكما قال أرسطو وهو يرسم حدًا فاصلًا حقيقيًا ومفزعًا، يمكن لإنسان سيئ أن يسبب ضررًا يفوق 10,000 مرة حجم الضرر الذي يُحدثه حيوان. إن اختراع البشر للأسلحة واستخدامها لغايات آثمة جعل من الفاسدين وعديمي الأخلاق «أكثر الحيوانات إثما ووحشية».

أيضًا تُظهر أعمال أرسطو حول الحيوان ثقةً في تقدير الأشخاص غير المتعلمين وملاحظاتهم، وهذه الثقة مرتبطة بقناعته بأن بوسع «العامة الأذكياء» الذين يتشكلون بواسطة الديمقراطية أن يتخذوا أفضل القرارات الجمعية. ويورد ما عَلم بشأن نساء جزر كوس اللاتي كن ينتجن الحرير من عثة الطاووس العملاقة (*Saturnia Pyri*)، وتطوّرها، مرورًا بمرحلتَي البرقة والشرنقة، حيث كانت النساء يشرعن في «فك وحل شرنقة هذه المخلوقات، ثم ينسجن نسيجًا من الخيوط المحلولة؛ ويقال إن امرأة من جزيرة كوس، تدعى بامفيليا ابنة بلاتو، هي أول من اخترع النسيج». تحدّث أرسطو إلى الصيادين الذين حدّثوه عن كيف أنهم كانوا يفتنون الغزلان بعزف الموسيقى، وأنه يوجد مصطلح عامّي يُطلق على القرون القصيرة الأولى الناتجة عن ذكور الأيائل الصغيرة يشبّوها بمشابك الغسيل.

لم تظهر إلى حيّز الوجود مناقشات أرسطو المفصّلة حول القدرة السمعية للأسماك، وحسّ التذوّق لديها إلا من خلال محادثاته المطوّلة مع الصيادين حول الطريقة التي استخدموا بها الضوضاء والسكون والطعم طيب المذاق لزيادة كميات صيدهم إلى أقصى حد ممكن. وقد

أجرى حديثه في اثنين من الموائى الأثينية - فاليريون وبيرايوس - حول الاختلافات في أنواع الأنسوجة. وعلم بشأن اسمين دارجين يطلقهما الصيادون على المحار استنادًا إلى هيئته الخارجية أو سمات أخرى، مثل «البصلة» و«الوضع». وربما كان هذا ليصيب أفلاطون بالجزع. فلا بد أن رئيس الأكاديمية، صاحب نظرية «الأشكال» المهيبة قد سخر من الإصرار الفصيح لتلميذه على ضرورة أن يستمع العلماء إلى «العوام» ممن يتعاملون مع النباتات والحيوانات في عملهم اليومي، سواء أكانوا صيادين أو مزارعين أو صيادي أسماك: «أولئك الذين عاشوا في علاقة أكثر اتصالًا وتألفًا مع ظواهر الطبيعة أقدر على وضع المبادئ التي يمكن أن تتداخل وتترابط لتشمل مجالًا واسعًا».

والدرس الأكثر أهمية الذي يمكن أن نتعلمه من العلم الأرسطي يتعلّق بعلاقة الجنس البشري ببقية مخلوقات الطبيعة. يبدأ أرسطو مناقشته للتغيرات في لون الفراء والريش الذي يغطي الكائنات الحية مع أنماط شيب الشعر في الحيوان البشري؛ حيث «يكون الشعر على الصدغين هو أول ما يتحول للون الرمادي، ويظهر الشعر الرمادي في مقدّمة الرأس قبل مؤخرته؛ وشعر العانة هو آخر ما يتغير لونه». ويتابع أرسطو هذا الشرح منتقلًا إلى الحيوانات، التي «لا يتغير لونها إلا نتيجة تقدّم العمر»، وأكثرها في ذلك شأنه شأن الإنسان. وتمثّل طيور الكركي أحد الاستثناءات؛ فالنظام الغذائي وتبديل الريش الموسمي والعوامل البيئية، مثل طبيعة مياه الأنهار حيث تغتسل الأغنام، كلها عوامل قد تسبّب في تغير اللون في الفصائل الأخرى.

ويوضح أرسطو أن الإنسان يتشارك في طبيعته الاجتماعية مع بعض الحيوانات الأخرى، مثل النحل، والدبابير، والنمل، وطيور الكركي. ولكن، نظرًا لكونه حيوانًا معقدًا، فإن الإنسان يتمتع أيضًا بالتفرد، بقدر محدود على الأقل. ومثل البشر، تعيش بعض الحيوانات ضمن أنماط

قيادة يمكن ملاحظتها؛ فعلى سبيل المثال، يوجد حكام لممالك النحل. وبعض الحيوانات معتادة على الترحال، بينما ينحو البعض الآخر منها إلى الاستقرار، حتى إن بعضها يبني منازل دائمة، ويدرب صغاره على استخدام بيوتها على نحو ملائم، بنفس طريقة البشر. وقد فُتِن في هذا الجزء بطائر السنونو:

يمزج الطائر الطين والقش معًا كما يفعل الرجال؛ فإذا نفذ ما لديه من الطين، نقع جسمه في المياه ثم تدرج في التراب الجاف بريشه المبتل؛ إلى جانب ذلك، يصنع سريرًا من القش، كما يفعل البشر، حيث يفرش المواد الصلبة أساسًا للسرير ويعدّل جميع المواد لتلائم حجمه. ويتعاون الوالدان في تربية الصغار؛ ويعرف كلا الأبوين، بعين مدبرة، الصغير الذي حصل على حصته من الطعام، ويحرصان على ألا يحصل على حصة من الطعام مرتين؛ ويتخلّص الأبوان في البداية من البراز، ولكن حينما يكبر الصغار، يعلمهم الأبوان تغيير مكانهم حتى يجعلون برازهم يسقط من جانبي العش.

وبسبب حبّه للحيوانات، وجد أرسطو متعةً في ملاحظاته ضمن أعماله عن علم الحيوان. ويشير العديد من الفقرات إلى أن أرسطو لو كان على قيد الحياة في وقتنا هذا، كان سينتج أفلامًا وثائقية مذهلة عن الطبيعة مثل السير ديفيد أتنبورو. ومن الصعب ألا تُعجب برجل يكتب عن فصائل بعينها من طائر النمنمة الذي يقول عنه إن «حجمه بالكاد أكبر من الجراد، وله عرف ذهبيٌّ بَرّاق مائل إلى الحمرة، وهو من كل الوجوه طائر جميل وأنيق ضئيل الحجم».

ويطرح أرسطو نظريات معقدة متطورة حول هجرة الطيور عبر البحر الأسود والبحر المتوسط، والتي لا بد أنها تطلّبت ملاحظة دقيقة. ويرى

أن الطيور، في بعض الجوانب، قريبة جداً من الإنسان العاقل (*Homo sapiens*)؛ فنحن لا نتشارك معهم في السير على قائمتين فحسب، بل أيضاً «في نطق أصوات واضحة مميزة». ويختتم حديثه بتأمل القدرات الصوتية الموزعة عبر عالم الحيوان قائلاً:

تصدر بعض الحيوانات أصواتاً، في حين أن البعض الآخر أبكم، ولدى بعضها هبة إصدار أصوات مُعَبَّرَةٌ؛ وبعض تلك الأخيرة لديه حديث واضح مميز الأجزاء، بينما يكون حديث بعضها الآخر غير واضح اللفظ؛ ويصدر بعضها نقيقاً ويغرد باستمرار، والبعض يميل إلى الصمت؛ وبعضها يصدر صوتاً موسيقياً والبعض الآخر صوته ليس موسيقياً؛ لكنها جميعاً ومن دون استثناء تمارس قدرتها على الغناء أو العقعقة لا سيما عندما يتعلق الأمر بالمعاشرة بين الجنسين.

ويبدو أنه أجرى مقابلات مع بعض صيادي الطيور ممن لديهم خبرة في أنواع مختلفة من ذكاء الطيور، وقد عبر عن ذلك ببلاغة وحيوية: فوصف البومة ذات الأذنين الطويلتين بأنها «طائر مخادع عظيم، وهي مقلدة بارعة؛ حيث يرقص صياد الطيور أمامها، وبينما تقلد حركاته، يأتي شريكه من ورائها ويمسك بها». شارك أرسطو في جلسة احتساء شراب تجريبية مع ببغاء هندي متكلم، يقول عنها: «وبالمناسبة، بعد شرب النبيذ، يصبح الببغاء أكثر بداءة من ذي قبل».

في زمن أرسطو، كان التعداد السكاني للبشر قليلاً حتى بالنسبة للعالم المعروف، ولم يكن المعاصرون لأرسطو على يقين من حدود الإقليم الذي يتجاوز ما اكتشفوه بالفعل وكانوا على اتصال دوري به. وعلى الرغم من ندرة الطعام في بعض الأحيان، إلا أن الوعي كان قليلاً في ما يتعلق بأن أي شيء آتٍ من الطبيعة؛ مثل الأخشاب، والأسماك، والماشية،

والطيور المغرّدة، والأسود الجبلية، والسواحل الجديدة التي يمكن استعمارها، يمكن أن ينفذ تمامًا. يقدم أرسطو لمحة تنبؤية عندما يصف المحار، ويكتشف انقراض فصيلة بعينها بالفعل من المحار الصدفي، وهي المحار الصدفي الأحمر، في البحيرة الواقعة في جزيرة لسبوس؛ إذ قُضي عليه تمامًا، لأسباب من بينها الجفاف، لكن انقراضه يرجع كذلك «جزئيًا إلى آلة التجريف المستخدمة في صيده». ساهم البشر في إبادة مجتمع بأسره كان يضم في السابق كائنات حية. ربما يشكّل ذلك أول إشارة وردت في الأدبيات العالمية إلى الصيد الجائر، الذي يمثل الآن حالة طوارئ بيئية معترف بها على مستوى العالم. أيضًا يستشهد بالدمار الذي يمكن أن يخلفه تدخل الإنسان في التجمعات الحيوانية، التي نشأت نشأة طبيعية، بدافع من الجشع المادي، ويحيلنا إلى «رجل كارباتوس». حاول رجل كارباتوس كسب المال بتربية الأرناب البرية، وجلب أول زوج منها إلى الجزيرة؛ إلا أن الأرناب البرية سرعان ما اجتاحت جزيرة كارباتوس وقضت على محاصيلها وأحواض زراعة الخضراوات فيها وبيئتها النباتية.

يدرك أرسطو القوة التدميرية للزراعة على التدخل في الطبيعة. حتى إنه يشير إلى ازدهار خضراوات المطبخ إذا ما تُركت لعوامل الطبيعة على نحو أفضل مما لو رُويت بالوسائل الاصطناعية. وهو قطعًا يدين بعض الممارسات البشرية في تربية الحيوانات باعتبارها تتعارض مع الطبيعة وتدمرها. إذ اعتاد بعض مربّي الحيوانات على جعل الذكور الشباب في بعض الفصائل يتزاوجون مع أمهاتهم. وكان السبب وراء هذا التزاوج بين الأبناء وأمهاتهم إما لأن الملاك لم يكن بوسعهم استئجار ذكر آخر، أو لأن الحيوانات التي كانت بحوزتهم شكّلت سلالة جيدة جدًا تتميز بسمات خاصة أرادوا لها أن تدوم.

هذه الممارسة معروفة في أوساط مربّي الكلاب الأصيلة في يومنا

هذا، مع أنه يُنظر إليها باعتبارها تنطوي على مخاطرة من الناحية الجينية، كما أن فيها استغلالاً جائراً؛ ويعد التزاوج الخطي، والذي يحدث فيه أن تتزاوج الحيوانات مع حيوانات من نفس النسل ذات درجة قرابة بعيدة، أفضل بكثير جداً. وليس لدى أرسطو أدنى شك في أن الحيوانات لا ترغب بطبيعتها في التزاوج من أمهاتها، وقد جمع أمثلة تشير إلى مقاومة الحيوان لممارسة «الزعة الأوديية» تحت الإكراه: «يرفض ذكر الجمل معاشرته أمه؛ وإذا ما حاول حارسه إجباره على ذلك، فإنه يظهر نفوره. وفي إحدى المرات، التي أعرض فيها الذكر الشاب عن معاشرته أمه، غطى الحارس أمه ووضع الذكر الشاب فوقها؛ لكن الغطاء انكشف عن أمه بعد انتهاء عملية المعاشرة، ومع أن عملية المعاشرة كانت قد تمت ولا يمكن الرجوع عنها، فإن الجمل أخذ يعض حارسه حتى قتله».

درَسَ أرسطو تربية الخيل في مناطق قريبة. وهو يذكر -في مثال آخر- أن فحلاً شاباً، أُجبر على تلقيح أمه، فوجّه استجابته العنيفة إلى نفسه، كما قد يفعل بطل مأساوي:

كان لملك سكيثيا فرس وُلِدَتْ من سلالة ذات سمات فائقة، وكان كل نسلها من المهور رائعاً؛ ورغبة من الملك في أن يتزاوج أفضل الذكور الشبان مع الأم، جعلهم يحضرونه إلى حظيرة الخيل؛ إلا أن الفرس الصغير أعرض عن ذلك؛ لكنه عاد وعاشر أمه بعد أن غطوا رأسها، جهلاً منه بهويتها؛ لكن فور انكشاف الغطاء عن رأس الفرس، ركض المهر الصغير وألقى بنفسه من حافة جرف.

ويبدو أن الطرق المتباعدة لتربية الخيل وإطعامها تشغل أرسطو. فالخيل ينبغي أن يُسمح لها بأن تتجول بحرية في المراعي، إذ إن ذلك من شأنه أن يحول دون إصابتها بالأمراض، عدا إصابة حوافرها التي تُشفى

على أية حال من دون أي تدخّل. لكن حظائر الخيل تعد بيئة خصبة لسوء التغذية وجميع أشكال العدوى: «الخيول التي تُربى في حظائر الخيل عرضة للعديد من الأمراض؛ ومن بينها الأمراض التي تصيب القوائم الخلفية» (ربما يقصد اعتلال الدماغ النخاعي التنكسي في الخيول، الناتج عن نقص فيتامين، أو فقر الدم المعدني، أو فيروس هربس 1- في الخيول).

ومع أن أرسطو لم يكن يعلم شيئاً عن الجينات الأنانية أو الانتخاب الطبيعي، إلا أنه فطن حتماً إلى وجود علاقة بين المناخ السائد في كل منطقة وطبيعة أرضها ونوع الحيوانات التي تتواجد بها. ففي الأراضي الواقعة في اليونان أو لجهة الشمال منها، مثل «إليريا وتراقيا وإبيروس، يكون الحمار صغير الحجم، في حين تخلو بلاد الغال وسكيشيا من أي حمير مطلقاً نظراً لبرودة أجواء هذين البلدين. وفي شبه الجزيرة العربية، يبلغ طول السحلية أكثر من ذراع، وحجم الفأر أكبر بكثير من فئران الحقول لدينا» وبالمثل، لا يمكن أن يكون قد عرف أي شيء عن التجارب الرنيني في أنواع الكائنات، ومع ذلك يخبرنا عن حادثة وقعت عام 395 قبل الميلاد، حينما اختفت جميع الغربان من جنوب اليونان تزامناً مع معركة وقعت في أقصى الشمال أسفرت عن وقوع عدد كبير من القتلى. تعد الغربان طيوراً ضارية نفعية، ويستنتج أرسطو بهدوء من ذلك أنه «يبدو أن هذه الطيور لديها وسيلة ما للتواصل مع بعضها» حتى عبر المسافات الشاسعة.

وفي كتابه «تاريخ الحيوانات»، يقدم أرسطو تصنيفاً رائعاً لجميع الحيوانات الموجودة على وجه الأرض، وهو في الوقت نفسه بمثابة عرض لما يعنيه أن تكون إنساناً، فالبشر ما هم إلا حيوانات لها بضع خصائص تميزها عن باقي المخلوقات. ومع ذلك، توجد بعض الخصائص التي يتفوق فيها الحيوان قطعاً. توجد بعض الأمور التي

يمكن للحيوانات فعلها، ولا يمكن للبشر ذلك؛ فعندما يصف أرسطو الحيوانات التي لها أذنان خارجيتان ظاهرتان للعيان، فإنه يدّعي أن الإنسان هو الوحيد «الذي لا يمكنه أن يحرك هذا العضو بجسده». ويوجد في الواقع بعض الأشخاص الذين يمكنهم تحريك أذنيهم، وهم قلة قليلة بالفعل، لكن من الواضح أن أرسطو لم يكن أحدهم. يعرف أرسطو كذلك أن أغلب الحواس في بعض الحيوانات أكثر تطورًا بكثير من حواس الإنسان: «من بين حواس الإنسان، حاسة اللمس هي الأكثر رقيًا من أي حيوان، وكذلك الحال في حاسة التذوق، ولكن بدرجة أقل؛ أما في ما يتعلق بتطور الحواس الأخرى، فيتفوق عدد كبير من الحيوانات على البشر».

ويوصي أرسطو بالرفق بالحيوان، كما يوصي بذلك زينوفون الأثيني -وهو مؤلف كتابين حول الخيول والكلاب، هما «قائد سلاح الفرسان» *the Cavalry Commander* و«الصيد بالكلاب» *Hunting with Dogs*، وأحد تلامذة سقراط-. وكما هو الحال مع البشر، حيث يعي أرسطو أن الفقر هو نتيجة حالة مرتبطة مباشرة بالصراع الاجتماعي، يصر كذلك على أن العدائية لدى الحيوانات ترتبط بندرة الموارد، ولا سيما الطعام. ويسدي عددًا من النصائح حول كيفية التعامل مع الفيلة الذكور في موسم التزاوج، ويقول إن «وفرة الطعام كثيرًا ما تروّضهم». وفي الواقع يزعم أرسطو أن الجوع هو السبب وراء المتاعب بين البشر والوحوش البرية:

قد يذهب المرء إلى حدّ قول إنه لولا نقص الطعام أو قلته، لأصبحت الحيوانات التي تخشى الإنسان، أو الحيوانات الضارية بطبيعتها، مستأنسة وأليفة معه، ولكانت كذلك في ما بينها. ويتّضح هذا في الطريقة التي تُعامل بها الحيوانات في مصر، إذ أدى توفير الطعام لها باستمرار إلى أن أصبحت حتى أكثر المخلوقات ضراوةً تعيش بسلام معًا. ففي بعض

المناطق، أصبحت التماسيح مستأنسة مع حارسها الكهنوتي الذي يطعمها.

غير أن أرسطو يدرك أن معرفة البشر بعلم الحيوان تجعل من السهل عليهم استغلال الحيوانات. ويناقش كيف يجري تسمين الخنازير في تراقيا. ويذكر أن قرون الماشية الصغيرة تكون رقيقة للغاية، بحيث يمكن تطويعها لتنمو متخذةً أي شكل في حالة تغليفها بطبقة من الشمع وتشكيلها بطريقة فنية. كما أنه يعرف طريقة مدهشة لقتل الثعابين الخطرة، إذ «لديها نهم للنبيذ؛ وهو ما يجعل الرجال، في أوقات بحثهم عن الثعابين، يصبّون النبيذ في صحنون ويضعونها في شقوق الجدران ليمسكوا بالثعابين عندما تشمل».

وأهم ما في الأمر أنه وجد متعته في التفاعل والتعاون بين البشر والحيوانات. وهو يروي قصة أكثر بغال أثينا شهرةً، الذي يقال إنه عاش حتى سن ثمانين عامًا وقت بناء البارثينون (أي في ثلاثينيات القرن الخامس قبل الميلاد). فبسبب سنه الكبيرة، «تقاعد» البغل ولم يعد مطلوبًا للعمل. لكنه كان يأتي كل يوم للمساعدة في جر الأحمال ومشاركة الآخرين في العمل وتشجيعهم. «وقد صدر، نتيجةً لذلك، مرسوم عام يحظر على أي خبّاز إبعاد الحمار بعيدًا عن طاولة خبزه». أيضًا يعتقد أرسطو اعتقادًا راسخًا في ذكاء الدرافيل الفائق، التي يعتقد حقًا العديد من العلماء في الوقت الحالي أنه لا ينافسها في قدراتها العقلية إلا الإنسان العاقل (*Homo sapiens*)؛ ويحكي أرسطو أن فوجًا من الدرافيل دخل مرفأ في كاريا (جنوب غربي تركيا) وظل هنالك حتى أطلق صياد سراح درفيل ينتمي لجماعتهم كان قد أمسك به في شبكته.

وإلى جانب الدرافيل، التي يوليها أرسطو اهتمامًا فائقًا في وصفه لها، ثمة حيوان آخر من أكثر الحيوانات اجتماعية وذكاء؛ وهو الفيل، الذي أثار خرطومه إعجاب أرسطو:

لديه أنف له من الخصائص والحجم ما يُمكنه من استخدامه بنفس طريقة استخدام اليد؛ إذ يأكل ويشرب برفع طعامه إلى فمه بالاستعانة بهذا الجزء من جسمه، وبنفس هذا العضو يرفع الفيل المواد ليناولها إلى قائده الجالس على ظهره؛ ويمكنه أن يقتلع به الأشجار من جذورها، وعندما يمشي في الماء يستخدمه ليرش به المياه لأعلى. ويمكن للفيل أن يعقف حافة هذا العضو أو أن يلقه، لكنه لا يستطيع ثنيه مثل المفصل، لأنه مكوّن من غضاريف.

لكن أكثر ما يثير إعجاب أرسطو هو القدرة العقلية للفيل وحالته المزاجية: «من بين جميع الحيوانات البرية، الفيل هو أكثر الحيوانات سهولة في ترويضه وأكثرها رقة. يمكن للفيل أن يتعلّم عددًا من الحيل، ويفهم مغزاها ومعناها؛ فعلى سبيل المثال، يمكن تعليمه أن يجثو على ركبتيه في حضرة الملك. إنه حسّاسٌ للغاية ويمتلك ذكاءً يفوق الحيوانات الأخرى».

وثمة العديد من الروايات الأخرى التي جمعها أرسطو عن التفاعل البناء بين البشر والحيوانات. فقد اعتبر إناث الغزال الأحمر شديدة الذكاء، لأنه لاحظ أنها تدنو بظليانها من جوانب الطرق العامة؛ وذلك لأن الحيوانات المفترسة التي تصطاد الظبيان الصغيرة يردعها خوفها من البشر المارين من مهاجمتها. ويحكى أرسطو عن التعاون بين الذئاب وصيادي الأسماك في شمال شرقي البحر الأسود، على ساحل بحر آزوف؛ فما دام الصيادون يقسمون غنائمهم مع الذئاب، تجري الأمور على ما يرام. لكن إذا لم يعط الصيادون أسماكًا للذئاب، فإن الذئاب «تمزّق شباكهم إربًا أثناء تجفيفها على الشاطئ». ويُعد تواجد نوع بعينه من الأسماك التي يدعوها أرسطو باسم أنثياس إشارة إلى أنه «لا توجد مخلوقات خطيرة في الجوار، ويغوص غواصو الإسفنج في أمان».

ويخبرنا أرسطو أن الغواصين يشعرون بالامتنان لأسماك أنثياس حتى إنهم أطلقوا عليها اسم «السمكة المقدسة».

عرف أرسطو أن البشر -مثل الحيوانات- يجب أن يولوا أولوية لنضالهم من أجل البقاء جسدياً، بتأمين القدر الكافي من الغذاء والماء والمأوى كي لا يموتوا في الأسبوع المقبل، قبل أن يكون باستطاعتهم الاستمتاع بالحياة التي يحيونها بوعي لذواتهم، بهدف تحقيق السعادة على المستويين الفردي والجماعي. وقد كان مبهوراً بالمرونة التي يمكن للبشر أن يبدوها في مواجهة النضال المستمر كسباً للرزق. فهو يتصور شخصياً أن عدم توافر الوقت اللازم لامتاع العقل يكاد أن يكون أمراً غير مقبول. ربما كان أرسطو سيصبح أول من يؤكد على أن أي أحد يقرأ هذا الكتاب يحظى بالفعل بما يكفي من وقت الفراغ المتبقي، بعد إعالة أسرته مادياً وتأمين الطعام لهم، ليفكر في الضرورات الأساسية الأقل إلحاحاً. إن تمييز أرسطو بين البقاء على قيد الحياة بيولوجياً وعيش حياة مدروسة تهدف إلى تحقيق السعادة يمكن، بالتالي، أن يساعدنا على التعاطف مع المشردين والجوع، واللاجئين والمنفيين، والمعوقين والمرضى بأمراض عضال، والحيوانات التي تتعرض لسوء المعاملة. لذا لا جدوى من الشعور بالذنب إزاء إيجاد وقت كافٍ للتفكير في تطوير نفسك والارتقاء بها إلى أفضل حال ممكن. فالشخص الأكثر ارتقاءً بأخلاقه هو الذي من المرجح أن يرغب في مساعدة المعوزين والبؤساء. لذا، كن ممتناً لهذا الوضع الجيد الذي أنت فيه وواصل سعيك لتحقيق السعادة.

الفصل التاسع

وقت الفراغ

أفرد أرسطو في كتابيه «الأخلاق» *Ethics* و«السياسة» *Politics* صفحات عديدة لمسألة وقت الفراغ. وتقتبس منه جميع الدراسات الجادة في علوم الاجتماع، والفلسفة، وعلم النفس وعن أوقات الفراغ، بدايةً من توما الأكويني في القرن الثالث عشر وحتى كتاب جوزيف بيير شديد التأثير «وقت الفراغ: أساس الثقافة» *Leisure: The Basis of Culture* (1948). ولا يزال لأفكاره الثورية بشأن وقت الفراغ آثارها في عصرنا الحالي، خاصة تأكيدده على أن وقت الفراغ أكثر أهمية من العمل، وأن البشريسيون شغل هذه الأوقات إذا لم يكونوا يعرفون بعض الهوايات البناءة. ويذكر أرسطو أن اسبارطة لم تزدهر أبدًا في أوقات السلم لأن نظامها، برغم الإعداد الجيد للاسبارطيين للقتال، «لم يعلمهم القدرة على العيش في تراخٍ». فالضجر ليس عدو السلام فحسب، وإنما عدو السعادة أيضًا.

ابتعدت آراء أرسطو بصورة جذرية عن الآراء التي قدمها أسلافه ومعاصروه حول الهدف من وقت الفراغ. فقد كانت الفكرة الشائعة حول وقت الفراغ لدى الإغريق -حيث عمل معظم الناس أحرارًا وعبيدًا بمتتهى الجد- أنه من الأفضل إنفاقه في المتعة الجسدية واللهو العابر. ومثلما كان الحال في القرن التاسع عشر، عندما ابتكر الاقتصادي النرويجي-الأمريكي ثورشتاين فييلين فكرتي «الطبقة المرفهة»

و«الاستهلاك المسرف»، شعر السكّان العاملون القدماء بالحسد تجاه الأغنياء بسبب وقت فراغهم الأكبر، وكذلك على اللهو الذي يملأون به هذا الوقت؛ ويقول أرسطو إن معظم البشر يفترضون «أن اللهو هو عنصر مكوّن للسعادة، لأن الأمراء والملوك يكرّسون أوقات فراغهم لهذا اللهو». لكن أرسطو يقول إن هذا الاعتقاد مضللّ، لأن «ضرر مثل هذا اللهو هو في كثير من الأحيان أكثر من نفعه، إذ يدفع البشر إلى إهمال صحتهم وممتلكاتهم». فلا علاقة لهذا اللهو بالسعادة الحقيقية مطلقاً.

وفي الواقع، تأتي كلمة *leisure* الإنجليزية التي تعني «وقت الفراغ» من الفعل اللاتيني *licere* (والتي تعني كون الشيء متاحاً): ويُعدّ وقت الفراغ هو الوقت الذي تكون فيه متحرّراً من ضرورة العمل و«متاحاً» لك أن تختار فيه كيف تمضي هذا الوقت. والكلمة الإغريقية التي استخدمها أرسطو، وهي كلمة *scholē*، تعني في الأصل الوقت الذي يمكنك أن تعتبره وقتك الخاص، أو الذي تستطيع فيه أن تمتّع نفسك. ومع مرور الوقت، اكتسب أحد معاني كلمة *scholē* دلالات أكاديمية، فأفضى إلى ظهور كلمة «مدرسة» *school*؛ لأن الفلاسفة رأوا أن وقت الفراغ مثّل (من ضمن أمور أخرى) شرطاً ضرورياً للنشاط الفكري في حدّ ذاته. لكن مفهوم أرسطو الواسع عن وقت الفراغ يشمل ما هو أبعد من الوقت المتاح للدرس والنقاش. فمن ناحية، يشتمل المفهوم على الاسترخاء الضروري بعد العمل، والراحة الجسدية، والنقاها، إضافة إلى إشباع الشهوات الجسدية الطبيعية من طعام وجنس، وكذلك التسلية أو الترفيه الممتع لتفادي الملل. لكنّه يشتمل أيضاً على كل شكل آخر من أشكال النشاط التي ينخرط فيها البشر بعد إنجاز المهمّات الشاقّة الضرورية لتأمين وسائل البقاء (المسكن، والمأكل، والدفاع عن النفس). وشدّد أرسطو على أن وقت الفراغ، إذا ما استُغلّ استغلالاً صحيحاً يمثّل حالة الإنسان المثالية. فقلة من الناس فقط هم المحظوظون بما فيه الكفاية

للحصول على المال مقابل أداء أفضل ما يرغبون في أدائه؛ أي تحقيق قدراتهم الفريدة. يكتسب هؤلاء لقمة العيش عبر فعل ما كانوا سوف يختارون فعله في جميع الأحوال لو أن لديهم دخلاً خاصاً ووقت فراغ متواصل. فبالنسبة إلى أرسطو، ليس للعمل والتعافي من العمل في حد ذاتهما نهاية أبداً؛ إنهما مجرد وسيلتين من أجل مزيد من النشاط الترفيهي الذي يمكننا فيه إدراك قدراتنا الكاملة من أجل السعادة.

إننا كحضارة مهووسون بالعمل. ويتعارض تفضيل أرسطو لوقت الفراغ البناء والمخطط على العمل أو الاسترخاء البسيط مع فكرتنا بأننا نعرف بحسب وظائفنا ومهنتنا. فعندما نسأل شخصاً ما ماذا «يفعل»، إنما نعني ماذا يفعل لكسب الرزق، ولا نعني ما إذا كان يقضي ساعات فراغه يغني مع فرقة موسيقية، أو يزور قلاعاً من العصور الوسطى. إن فكرة امتلاك وقت فراغ كافٍ ننشغل بكيفية استغلاله جيداً من شأنها أن تدفع إلى الضحك بسخرية كثيراً من الأشخاص العاملين، الذين يعتقدون بأن هذه هي نوعية المشكلات التي يهدر فيها وقتهم المفكرون الحالمون -الذين يعيشون في أبراج عاجية وهم بعيدون كل البعد عن الواقع العملي للحياة اليومية. غير أن أرسطو يعتقد بأنه من خلال وقت فراغنا وحده يمكن لكامل قدراتنا الإنسانية أن تتحقق. وعادةً ما يكون الغرض من العمل هو الحفاظ على حياتنا من الناحية البيولوجية، وهو غرض نتشارك فيه مع الحيوانات الأخرى. لكن الغرض من وقت الفراغ يمكن -بل ينبغي- أن يكون هو الحفاظ على الجوانب الأخرى من حياتنا التي تجعلنا بشراً متفردين عن بقية المخلوقات؛ وهي أرواحنا، وعقولنا، وعلاقاتنا الشخصية والمدنية. لذلك يُبدد وقت الفراغ إذا لم نستغله استغلالاً بناءً.

ربما كان أرسطو سيعدّ منبوذاً من منظور المفهوم الحديث عن «أخلاقيات العمل»، وهو المفهوم الذي، كما بين ماكس فيبر في كتابه

«الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism* (1905) أنه نشأ للمرة الأولى نتيجة لعصر الإصلاح والثورة الصناعية. بدأ الناس يعتقدون بأن مشكلات الفقر وتأمين ما يكفي من زاد للبقاء، يمكن حلّها فقط من خلال التفاني التام في العمل. فذات يوم، قد تجعل الآلات العمل البشري غير ضروري، لكن ذلك لن يحدث سوى بعد قرون عدّة من العمل المكثّف للغاية. من ثمّ اكتسب العمل مكانة أعلى كثيرًا، أو على الأقل العمل الموجه نحو تعظيم مخرجات السلع المادية. وكان لهذا تشعبات عدّة؛ حيث توقّف العمل عن كونه وسيلة لتحقيق غاية -هي دعم الحياة- وأصبح غاية في حدّ ذاته. أصبحت فكرة العمل «غير المنتج»، أي العمل في مجالات ليست ضرورية ضرورةً قاطعةً من أجل بقائنا البيولوجي، فكرة تُدرّك بوصفها أقل قيمة في جوهرها من العمل الصناعي. وعلى حدّ تعبير الاقتصادي آدم سميث في كتابه «ثروة الأمم» (1776) *Wealth of Nations*، «العمل غير المنتج» لا يشمل فقط الملوك ولكن يشمل «رجال الكنيسة، والمحامين، والأطباء، ورجال المعرفة من كافة الميادين، والممثلين، والمهرّجين، والموسيقيين، ومغنّي وراقصي الأوبرا، وما إلى ذلك». ويعني الضغط من أجل تعظيم الإنتاجية أن ساعات العمل قد توقّفت عن كونها ساعات موسميّة، وتحولّت إلى ساعات يفرضها الضبط الآلي للوقت. وتمدّدت هذه الساعات تمدّدًا واسعًا، مما أدى إلى الكدح المستمرّ لسكان مدينة «كوكتاون»، كما صوّره تشارلز ديكنز في روايته «أوقات عصيبة» *Hard Times* (1854)، في ذروة الثورة الصناعية، وقاد إلى أهوال أيام العمل المكوّنة من اثنتي عشرة ساعة، كما أدى إلى عمالة الأطفال.

وفي العام نفسه، نشر هنري ثورو رواية «والدن» *Walden*، التي تصف الحياة في كوخ خشبي بريف ماساتشوستس، مع كثير من الوقت للقراءة والتفكير. تستعرض الرواية الحرمان النفسي الذي يتعرّض له المجتمع

الرأسمالي؛ إذ نسي الجنس البشري كلياً سبب الحياة والهدف منها، في سعيه المجنون وراء الفائض السلعي، حتى شرع في اختراع حاجات جديدة من أجل تبرير قضاء كمية مفرطة من الوقت في العمل لتصنيع سلع غير ضرورية. امتلك ثورو مخيلة أرسطية عميقة؛ فكل قرية في نيو إنجلاند سوف تدعم مادياً الليسيوم Lyceum الخاص بها الممتلئ بالكتب، والجرائد، والمجلات التعليمية، والأعمال الفنية، وسوف توجه الدعوة لحكماء العالم لزيارة سكانها وتنويرهم خلال أوقات فراغهم المكثفة. كان أرسطو ليوافق على تشديد ثورو على التعليم بوصفه الحل «للمشكلة» الاستغلال البناء لوقت الفراغ. وقد أدرك أرسطو بحسرة أن الناس في العموم غير مهيين اجتماعياً لاتخاذ خيارات جيدة بشأن كيفية استغلال أوقات فراغهم، مع أنها تمثل -من وجهة نظره- الجانب الأهم من حياتنا. وقد ذهب إلى حد القول بأن استغلال وقت الفراغ في مجتمع مثالي سيكون الهدف والغرض الرئيسي من التعليم. وتكاد هذه النظرة تكون حديثة إلى حد بعيد.

وأحد ردود الفعل إزاء عدم التدريب على استغلال وقت الفراغ هو إدمان العمل، وهي متلازمة اكتشفت للمرة الأولى بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، عندما واجه العديد من الأشخاص صعوبات في العودة إلى الحياة «الطبيعية» بعد حالة التأهب القصوى التي كانوا يعيشونها. يؤدي الهوس بالعمل المتواصل صحتنا الجسدية والعقلية. لذا، تتخذ بعض الدول والمنظمات تدابير جادة للحد منه؛ ففي فرنسا، نجح العاملون في انتزاع حق عدم تفقد حسابات بريدهم الإلكتروني خارج ساعات عملهم الرسمية. لكن في الوقت نفسه، يُستحث الأطفال على بلورة سلوكيات مهووسة تجاه العمل من خلال ضغوط أكاديمية متزايدة باستمرار وما يصاحبها من تناقص مستمر في تركيز العديد من المدارس على الأنشطة التي يمكن أن تسهم في تحقيق «حياة الرفاهية» لاحقاً؛

مثل تعلّم العزف على الآلات الموسيقية، والفنون، والحِرَف اليدوية، والهوايات، والتمارين الرياضية. ينبغي مناقشة مسألتني وقت الفراغ والترفيه في مجتمعنا عاجلاً في ضوء سرعة التغير التكنولوجي. توفر الحياة الأطول مزيداً من السنوات التي ربما لا نحتاج فيها إلى العمل على الإطلاق من أجل تأمين سبل العيش. ويعني التقدم السريع المتزايد للذكاء الاصطناعي أن العديد من المهمّات التي تستهلك الوقت، والتي يعتمد المجتمع البشري عليها، سوف تؤدّيها الروبوتات والحواسيب والآلات. ومن المحتمل أن يؤدي هذا إلى أن زيادة نسبة توظيف أي جماعة سكانية لعدد ساعات أسبوعي أقل مما اعتاد عليه الجنس البشري. وستصبح آراء أرسطو الثورية حول وقت الفراغ ذات أهمية متزايدة عندما يقل فعلياً الوقت الذي نمضيه في العمل.

سيجعل وقت الفراغ الإضافي التعليم الذاتي أمراً أكثر قابلية للتحقق. وستتيح الرفاهية المتزايدة، إلى جانب المصادر المجانية على الإنترنت، تعليمًا عالمي المستوى لأي شخص لديه اتصال بالإنترنت. فقد درجت العادة أن يكون الوصول إلى المعرفة معتمداً على دخول مكتبة، وهو السياق الذي يقول فيه مات دايمون، الذي يؤدّي دور شخصية الطبقة العاملة، في فيلم «جود ويل هنتينج» (1997) *Good Will Hunting* لطالب متعجرف من طلبة جامعة هارفارد: «لقد أضعتَ 150 ألف دولار على تعليم لعين يمكنك الحصول عليه مقابل دولار ونصف من رسوم التأخير في المكتبة العامة». لكن حتى المكتبات استُبدِلت؛ إذ تتيح بعض الجامعات -بما فيها معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا- خاصية الوصول المفتوح للمناهج الدراسية مجاناً من دون أي رسوم. بينما تنشر جامعات أخرى -مثل كلية هارفارد للأعمال- مدونات رفيعة المستوى لعلماء لامعين. وتتيح منصّات مثل تيد TED، ويوتيوب Youtube وأي تيونز iTunes، محاضرات مصوّرة ومدونات صوتية في جميع الموضوعات

التي يمكن تصوّرها. لكن، للعديد منّا (المشغولين بالكامل خلال يوم العمل)، تعد الأنشطة التعليمية المباشرة آخر ما نرغب فيه خلال وقت الراحة. ويتمثل الحل في الجمع بين المتعة والتطوير الشخصي من خلال الاختيار الدقيق للترفيه المفيد الذي يروّج عن النفس.

وقد أدرك هاري آلن أوفرستريت -رئيس قسم الفلسفة المُلهِم بجامعة مدينة نيويورك خلال الفترة من 1911 إلى 1936، ومؤلف العديد من الكتب الأكثر مبيعًا في مجال مساعدة الذات، وعلم النفس الاجتماعي- أن الترويج عن النفس شأنٌ مهمٌ: «الترويج عن النفس ليس مسألة فرعية في أي نظام ديمقراطي. إنها مسألة أساسية؛ لأن نوع الترويج عن النفس الذي يصنعه الأشخاص لأنفسهم يحدّد أي نوع من الأشخاص سيصبحون، وأي نوع من المجتمع سيُشيدون». لقد تعلّم أوفرستريت الفلسفة الكلاسيكية، وهذا الاقتباس الشهير يلخّص موقف أرسطو في ما يتعلّق بقدرة الترفيه على تمكين الإنسان من الازدهار أو العكس. إن ما تختار أن تقرأه أو تشاهده أو تنصت إليه في وقت فراغك يؤثر تأثيرًا مباشرًا على تطورك ككائن أخلاقي -كيف تخلق نفسك باستمرار- كما يشير أصل كلمة *recreate*. ويعني ذلك، وفقًا لأرسطو، أن خيارك بشأن النشاط الترفيهي يؤثر مباشرةً على سعادتك.

كان أرسطو نفسه متحمسًا لرياضة المشي، وكان يقدّر للغاية الصحة الجسدية والمتعة. ومن المؤكد أنه كان سيُشجع الأنشطة الترفيهية مثل ممارسة الرياضة، والأنشطة الإبداعية، والموسيقى، والتمتّع بالطيبات من الطعام والشراب. لكن نوع الترفيه الذي كرّس له أرسطو فكرًا فلسفيًا جادًا كان الأدب، وتحديدًا الدراما من بين أنواع الأدب، الذي يُعد الموضوع المحوري في كتابه «فن الشعر» *Poetics*. ومن اللافت للنظر حقًا أن يفعل أرسطو هذا، لأن مُعلمه أفلاطون احتجّ بشدة على الفنون الممنوعة في رؤيته للدولة المدينة الفاضلة في كتابه «الجمهورية»

Republic. لماذا أرسطو، وهو المفكر الجاد الذي تمثل هدفه في إدراك العالم بطريقة من شأنها أن تؤدي إلى أفضل مجتمع إنساني ممكن، يقضي وقتاً طويلاً للغاية يفكر بشأن قصص خيالية تؤدي على المسرح الشعبي؟ التفسير الوحيد أن أرسطو كان شخصياً مقتنعاً بأن الترفيه له قدرة هائلة على تحسين الحياة العاطفية والأخلاقية لكل من المشاهدين الأفراد، وللمجتمع ككل.

الواضح أن أرسطو أحب المسرح، والموسيقى، والفنون البصرية؛ إذ تزخر مؤلفاته بالإشارات إلى مغنين وجوقات، وعازفي قيثارة، ورقاصين، وقصائد وشعراء، وتماثيل، وحرف يدوية. بل إنه كذلك عاين بنفسه شواهد على الفوائد الاجتماعية للفن. فعندما انتقل إلى أثينا في سن الثامنة والأربعين لتأسيس الليسيوم، بناها بحيث تكون أقرب كثيراً -مقارنة بأكاديمية أفلاطون- إلى المسرح الأثيني لديونيسيوس على الجانب الجنوبي من أكروبوليس أثينا. كانت أثينا في ذلك الوقت لا تزال المركز المعترف به للترفيه والنشاط الدرامي. كان إذاً رغب أحد من أي مدينة في العالم الإغريقي في أن يترك بصمته في عالم المسرح يتوجه مباشرة إلى أثينا، تماماً مثلما يتوجه صنّاع الأفلام الطموحين إلى هوليوود في عصرنا الحاضر. ويمكن أن نتخيل أرسطو يمشي فجراً بصحبة ثيوفراسطوس وتلامذتهما، مع العديد من المواطنين الأثينيين والمقيمين في أثينا، لحضور المسرحيات التراجيدية والكوميديّة في معابد وسط المدينة ومسارح ديونيسيوس، ويحلّلها بحماسة بينما هو عائد في طريقه إلى الأكاديمية وقت الغروب. لم تُصمّم الدراما الأثينية لتسلب لب مشاهديها فقط لكن لتزودهم بالمهارات المعرفية، والأخلاقية، والسياسية، التي يحتاجونها من أجل إدارة مدينة مزدهرة.

يندلع من حين لآخر صخب عام حول حدود ما هو من الملائم واللائق أن يُطلَب من الناس مشاهدته أو سماعه في برنامج تلفزيوني أو فيلم أو

مسرحية. وقد خضعت المشاهد العنيفة، والألفاظ البذيئة، والتفاصيل الجنسية، ومشاهد العُري، لرقابة مباشرة أو غير مباشرة (ولا يزال ذلك يحدث في كثير من الأنظمة القضائية في سائر أنحاء العالم). فقد تسبّب فيلم «حياة براين» (1979) *Monty Python's Life of Brian* على سبيل المثال في فضيحة، واتهمه بعض المسيحيين بأنه فيلم كُفري؛ كذلك شجبت صحيفة «دايلي ميل» المحافظة، وآخرون ممن نصّبوا أنفسهم حراسًا على الأخلاق العامة، فيلمًا يحتوي على أداء توني هاريسون لقصيدته الرائعة والغنية بالفُحش على القناة الرابعة عام 1987م؛ ووجه بعض أنصار الحركة النسوية النقد لمشهد الاغتصاب المطول والوحشي في فيلم «المتهم» (1988) *The Accused* من إخراج جوناثان كابلان، باعتباره فيلمًا يُشبع الخيالات السادية للرجال. وفي الآونة الأخيرة، لفت الباحثون انتباه أولياء الأمور إلى تراجع حساسية أولادهم النفسية تجاه العنف بسبب ألعاب الفيديو، خاصةً تلك التي يلعبون فيها دور «مطلق النيران من منظور الشخص الأول». لكن ما لم يُلتفت إليه في كثير من الأحيان أن هذا النقاش يمتد إلى العصور القديمة، وأن نقاشات مطوّلة في هذا الشأن جرت للمرة الأولى في أكاديمية أفلاطون بين أفلاطون وتلميذه الألميقي أرسطو. وقد احتجّ أرسطو بأننا لا نحكي ما نراه من أعمال فنية من دون تفكير؛ فإذا كانت هذه الأعمال مصنوعة بطريقة مسؤولة، فإننا نفكر بشأن ما نراه، ونقرّر ما إذا كانت محاكاته أمرًا مرغوبًا فيه أم لا، إلى جانب قرارات أخرى.

يُعدّ أرسطو أول فيلسوف يرى أن الفنون يمكن أن تكون أداة تثقيفية مدهشة. وقد أكد بحماسة قائلًا إن منتجي الدراما والموسيقى في الأنظمة الديمقراطية يتحمّلون مسؤولية عظيمة إلى درجة أنه ينبغي أن يكونوا مسؤولين رسميين يشغلون مناصب عامة، ولا يفوقهم في الأهمية إلا الكهنة. وينبغي أن تكون لهم الأسبقية حتى على السفراء

والرُّسُل الرسميين. أيضًا يستخدم أرسطو على نحو متكرّر أمثلة من الأساطير والأعمال المسرحية المشهورة والقصائد الملحمية في أعماله في مواضيع أخرى متنوعة إلى جانب علم الأخلاق. وتُدين مناقشته عن الإفراط والتفريط في الطبيعة الإنسانية بالكثير من الفضل للقوالب التي شاهدها في الكوميديا التي عاصرها. ولا شك أنه لو كان أرسطو حيًا في أيامنا هذه كان سيصبح مستهلكًا متعطّشًا للبرامج التلفزيونية والروايات والأفلام، وكان سيستخدمها لتوضيح وجهات نظره الأخلاقية. كان أرسطو أول مفكّر على الإطلاق يستنبط حججًا للقدرة التثقيفية للقصص وعروض الترفيه التمثيلية، وقد أضاف العديد من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين التفاصيل لأفكاره واستخدموها في الأفلام.

فعلى سبيل المثال، رأى والتر بنجامين أنه يمكن للفنون -والأفلام السينمائية في المقام الأول- أن ترتقي بحياتنا الأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية. وذهب كل من آيريس مردوخ ومارثا نوسباوم وبول دبليو كان إلى أن الأفكار الفلسفية -خاصّة حول الأخلاق- لا تجد أفضل عرض واضح وتفصيلي لها في الأطروحات الأكاديمية، وإنما في الحالات المعيّنة المصوّرة في الفنون، لأنها أمثلة ذات تطبيق عملي، ومن ثمّ فهي مقنعة عاطفيًا.

ويُعتبر الاطلاع على فن جيّد أمرًا أسهل كثيرًا اليوم من أيام أرسطو، عندما كان تمثيل المسرحيات يقتصر على احتفالات معيّنة يفصل بينها فارق شهور. فقد جعلت شبكة الإنترنت أمر اختيار ومشاهدة الأفلام، والمسرحيات، والكتب، والبرامج التلفزيونية، التي نُعرّض أنفسنا وأطفالنا لها، أسهل من أي وقت مضى. وبإمكان ترفيه عالي الجودة مع قليل من التخطيط أن يسهم في سعادتنا وتزايد حكمتنا في كل يوم من حياتنا. إن الأفلام هي بحق شكل فني ديمقراطي؛ إذ يُمكن الاستمتاع بها في المنزل أو على أسرة المستشفيات من دون تكلفة تُذكر. وجد صديق

مُقَرَّب لي، كان يحتضر جراء مرض التصلب التعددي، متعة وتسلية كبيرة في مجموعته الهائلة من أقراص الفيديو الرقمية، حتى عندما كان بالكاد يستطيع أن يُحرِّك أي جزء من جسده.

في الفصل الثاني من كتابه «فن الشعر»، يسأل أرسطو السؤال الجوهري: لماذا يملك البشر، بخلاف الحيوانات الأخرى، فنوناً أصلاً؟ أولاً؛ نحن نولد ولدينا غريزة محاكاة أقوى من أي حيوانات أخرى. ويتعلَّم الأطفال وسائل كينونتهم الأولى من محاكاة ما يفعله بشر آخرون. وثانياً؛ «يستمتع» البشر في جميع الأزمنة والأمكنة بفنون المحاكاة. فنحن «نُسَرُّ» بالنظر إلى اللوحات أو صور محاكاة الواقع. وفي العموم تستغل الطبيعة المتعة لإرشاد جميع الحيوانات نحو ما فيه خيرهم؛ مثل التغذية وتكاثر النوع. وفي حالة البشر -بصفتهم حيوانات متطورة واجتماعية- فبإمكان اللذة التي نحصل عليها من خلال النظر إلى الصور، أو مشاهدة العروض المسرحية أن تساعدنا في «التعرف على العالم». ويمكن للفنون أن تكون بمثابة موسوعة ضخمة للخبرة الإنسانية، تُمكننا، مهما كانت صعوبة الأمر، من التعرف على الأشياء التي قد لا نخبرها بصورة مباشرة في الواقع مطلقاً.

كذلك لاحظ أرسطو أننا لا نستطيع فحسب تحمُّل النظر إلى التشابهات الفنية الواقعية للأشياء التي يمكن أن تُشعرنا بالألم بدلاً من اللذة عندما ننظر إليها في الواقع، «بل نودُّ ذلك في الحقيقة». والأمثلة التي يطرحها أرسطو هي الكائنات البغيضة والجثث البشرية. ربما نبدي رد فعل سيئ عند رؤيتنا لعنكبوت أو قنديل بحر، لكن أرسطو كان يعرف -لأنه قام بتشريح تلك الكائنات ورسم رسوماً توضيحية لها- أنه يمكن لصورة للحبار، على سبيل المثال، أن تتيح لطالب علم الحيوان أن يتعلَّم الكثير حول ذلك النوع حتى لو لم يسبق له، أو لها، قط مشاهدة هذا النوع من اللافقاريات البحرية.

والمثال الآخر الذي استخدمه أرسطو، وهو الجثث. ولا يُرَجَّحُ أن يكون أرسطو قد حضر تشريح جثة بشرية. إلا أننا نعلم أنه يوجد الكثير من جثث الموتى في الفن والأدب القديمين؛ إذ يدور الجزء الأكبر من «إلياذة» هوميروس حول جثث المحاربين الرائعين الذين قُتلوا في ساحة المعركة مثل «باتروكلوس» و«هيكتور». بل إن التراجيديا الإغريقية تتطلب من جماهيرها التحديق ماديًا ولفترات ممتدة في جثث الأشخاص المقتولين على أيدي مقرّبين من أفراد عائلتهم - كأطفال جايسون وميديا المتدلّين من عربة والدتهم في نهاية مسرحية يوريبيدس «ميديا» *Medea*، أو الجثة الدامية لابن كريون المنتحر «هايمون» والتي يحملها كريون ليدخل بها باكيًا إلى خشبة المسرح في نهاية مسرحية «أنتيجون» *Antigone* لسوفوكليس-. يقول أرسطو إن مثل هذا الفن يسمح لنا بأن نفكر بشأن جثث الموتى -حتى أولئك الأشخاص الذين قُتلوا في ملابس مروّعة- وأن نتعرّف على شيء مفزع كالموت بطريقة مبهجة. وتساعدنا هذه النظرة الثورية على تفسير السبب وراء قراءتنا للروايات، أو ذهابنا إلى المعارض الفنية، أو السينما أو المسرح، لنغمر أنفسنا في عوالم تتسم بالعنف والمعاناة الشديتين وعلى نطاق نجد أنه لا يُطاق مطلقًا في الواقع. فبإمكاننا أن نثقف أنفسنا بشأن المعاناة التي تسبّب بها القصف الفاشي للمدن الإسبانية من خلال لوحة «جرنيكا» *Guernica* الجدارية لبيكاسو (1937). ويمكننا التعرف على محنة الرجال الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية في نيويورك خلال ثلاثينيات القرن الماضي من رواية «الرجل الخفي» *Invisible Man* لـرالف والدو إليسون (1952). وباستطاعتنا أن نتعرّف على تجربة النساء المسجونات في السجون الفيدرالية من المسلسل التلفزيوني الشهير «أورنج إز ذا نيو بلاك» (البرتقالي هو الأسود الجديد) *Orange is the New Black* لجينجي كوهان (2013). علاوة على ذلك، فإن هذا الشكل من التعلّم

-كما يؤكد أرسطو- «يمنح المتعة ليس فقط للفلاسفة ولكن أيضًا لكل شخص آخر بالطريقة نفسها»، وإن كان ذلك بدرجة أقل. فعندما يتعلق الأمر بالفنون واكتساب المعرفة، نجد أرسطو ديمقراطيًا خالصًا.

وهكذا فإن وصفة أرسطو لجميع الفنون بسيطة. إن أي مسرحية، أو قصيدة، أو لوحة، أو نحت، لكي تكون ناجحة، تحتاج أن تقدّم لمشاهدها، أو قارئها، أو مستمعها، إما المتعة أو شيئًا مفيدًا. فلا أحد سيذهب لمشاهدة فيلم إذا لم يكن من الممتع مشاهدته ولا يضيف إلى ثقافتنا من قريب أو بعيد. لكن القطعة الفنية الجيدة، بحسب ما يؤكد أرسطو، تحتاج إلى الأمرين. وتُمدُّ هذه الحجة الثمينة ناقد أي عمل فني بقاعدة ذهبية لتقدير قيمة العمل. فسؤال: «هل استمتعتُ به؟»، هو سؤال مهم، لكن إذا كانت الإجابة عن سؤال: «هل تعلّمتُ منه أي شيء؟» سلبية، فلا بد من وجود علامة استفهام حول ادعائه الجودة العالية.

فإلى جانب المتعة يجب أن يأخذ المنتجون المنفذون والممولون للمسرح والسينما بجدية أكبر مسألة التثقيف إلى جانب الترفيه. تُعجّ مسارح لندن في الوقت الحالي بكوميديات تافهة مع أنها تبدو جيدة في المظهر، وتمتلىّ دور السينما بإعادات لا نهاية لها لأفلام قديمة، وبحبكات مكرّرة، وبأفلام تتكرّر في أجزاء لمجرّد أن الجزء الأول لاقى إقبالًا، وأفلام مستمدة من أعمال سابقة عن أبطال القصص المصورة الخارقين، أو العملاء السريين المدجّجين بالسلاح الذين يحبطون المؤامرات الإرهابية المزعومة. وغالبًا ما تسيطر على الفيلم مشاهد الحركة الصاخبة بشدة أو مشاهد التجسيد المرئي الرقمية المطوّلة أكثر بكثير من أي نوع من الحوارات التي تحمل معنى. رُشّح برادلي كوبر لجائزة أوسكار لأحسن ممثل للعام 2014 عن أدائه في فيلم «أمريكان سنّير» (قناص أمريكي) *American Sniper* بينما لم يُرّشح ديفيد أويولوا عن تجسيده الاستثنائي لدور مارتن لوثر كينج جونيور في فيلم «سيلما»

Selma. لا يعني ذلك أن فيلم «أمريكان سنّير» ليس فيلمًا ممتعًا؛ ففريق العمل جيد، والتمثيل مناسب، وتوجد بضع إشارات للمشكلات الوجدانية التي يواجهها الجنود. لكن بينما يمكنك أن تعرف الكثير عن حركة الحقوق المدنية من فيلم «سيلما» - إلى جانب الاستمتاع به من بدايته إلى نهايته - لن تتعلّم أي شيء من فيلم «أمريكان سنّير» باستثناء القليل عن كيفية التعامل مع بندقية ماكملان تاك338-.

إن تعلّم التاريخ من الأعمال الأدبية يمكن أن يحسّن حياتك كلّها. فإذا كانت كتابة الرواية أو المسرحية أو الفيلم جيدة، فسوف تتعلّم، في غمرة استمتاعك، من دون بذل أي مجهود على الإطلاق. ويمكن للسيناريوات المُتَخَيَّلَة برفقة المؤلفين والمخرجين وكتاب السيناريو الذين يتمتّعون بسمعة البحث التاريخي الدقيق أن تكون تنويرية كأى كتاب تاريخ. غدّت استحضارات ماري رينو الجميلة للتاريخ الإغريقي القديم شغفي لدراسة أدب وتاريخ الإغريق والرومان في سن المراهقة، خاصة روايتها «قناع أبولو» (1966) *The Mask of Apollo* - التي تجري أحداثها في القرن الرابع قبل الميلاد الذي عاش فيه أرسطو-. ونظرًا لأن معظم التاريخ هو سلسلة من الأفعال البربرية التي ارتكبتها جماعة من البشر ضد أخرى، فإن التعرّف عليه من خلال الوسائل الفنية التي تجلب المتعة إلى جانب الرهبة هو أمر منطقي بالتأكيد. وكل شخص لديه قائمة خاصّة به؛ أما قائمتي فعلى رأسها رواية «الورثة» *The Inheritors* لويليام جولدينج (1955)، وهي عبارة عن تصوير درامي لمواجهات بين إنسان النياندرتال والهوموسيبيانس (الإنسان العاقل)، والملحمة الأسترالية «كابريكورنيا» *Capricornia* (1938) لزافير هربرت، وكذلك «العار» (1983) *Shame* لسلمان رشدي، التي جعلت السياسة الباكستانية مفهومة لي أخيرًا، ورواية مارجريت ووكر «جوبيلي» (1966) *Jubilee*، وهي إحدى أعظم الروايات عن الحرب الأهلية الأمريكية وإعادة الإعمار، لكن من منظور الطبقات الدنيا.

كذلك فإن إحدى جماليات الرؤية الأخلاقية الأرسطية المستنبطة للعالم أنها تجعل تحليل حياة الآخرين - بطريقة لا تنطوي على إصدار أحكام- أكثر تشويقاً. فالتأمل في خصال الشخصية والسلوك سيؤدي إلى السعادة أو البؤس لدى الآخرين، وكيفية اتخاذ هؤلاء الأشخاص لقرارات صعبة، أو تعاملهم مع سوء الحظ العشوائي، يمكن أن يكون أمراً ممتعاً وتنويرياً، وأن يقدم لنا أمثلة نحتذيها أو نتفادها. توفر الحياة الواقعية مجموعة مستمرة من دراسات الحالة الأخلاقية للفحص والتحليل. وكذلك يصبح التاريخ الواقعي أكثر تشويقاً عندما نُفكر فيه من زاوية أخلاقية - فلماذا قاد ليونايديس جنوده الاسبرطيين الذين كانوا يضع مئات إلى موت وشيك في ثيرموبيلاي عندما غزا الفرس اليونان؟- اتضح أن ذلك كان استخداماً فعالاً للدعاية في رفع معنويات الإغريق في كل مكان وتشجيع مقاومة الإمبريالية الفارسية. لكن الخصال الشخصية، وعملية التدبر والتشاور، والمصالح التي كان يحميها (فهو لم يأخذ معه في نهاية المطاف إلا المحاربين الأكبر سناً الذين كانوا قد أنجبوا أبناءاً أحياء) والدوافع الجوهرية.. هذه الأمور جميعها تحتل تحليلاً لا متناهياً، فيتيح لنا التاريخ فرصة تنمية قدراتنا الأخلاقية؛ وكذلك يفعل الأدب.

أعرب أرسطو عن تقديره لقيمة حرية القصص الخيالية التي أوجدت مواقف أخلاقية مهمة. يحتاج الكتاب، الذين يعملون في نطاق «ما قد يحدث» أو «ما يُحتمل أنه حدث» (في حالة الخيال الذي يُصاغ في إطار الماضي التاريخي) إلى التفكير ملياً بشأن الأخلاقيات وبشأن الكيفية التي يمكن أن تتكشف الحوادث بها على نحو مقبول، أو على حد تعبير أرسطو «وفقاً لقانون الاحتمال أو الضرورة». قاد هذا أرسطو، في الفصل التاسع من كتاب «فن الشعر»، إلى الاستنتاج الحتمي، بل والثوري، الذي مفاده أن نمط الكتابة الأدبية (وكان ما يدور في خلدِه تحديداً هو

التراجيديا) «أكثر فلسفية وأعلى شأنًا من التاريخ؛ لأن الشعر يميل للتعبير عما هو عام، بينما يميل التاريخ للتعبير عما هو خاص». وأرسطو مولع بفكرة أن نوع الكتابة الأدبية، مثل التراجيديا التي تُصاغ في سياق الماضي الأسطوري، أوسع من الكتابة الواقعية لأنه يستكشف «كيف يتكلم أو يتصرف شخص من نوعية معينة في مناسبة ما، وفقًا لقانون الاحتمال والضرورة».

في زمن أرسطو، لا بد أنه كان يوجد ما يزيد على ألفي عمل تراجيدي مكتوب، وتُظهر الطائفة الواسعة من الإشارات في كتابه «فن الشعر» أنه رأى أو قرأ بنفسه عددًا كبيرًا منها، واستوعبها وقدم تدريبًا مكثفًا في كيفية تقييم القصص الأدبية من منظور أخلاقي متطابق مع القصص التي صيغت في أطروحاته الأخلاقية والتي تركز ارتكازًا مطلقًا على خبرة كون المرء إنسانًا. وهذا هو ما يجعل تحليلاته تنطبق على أي زمان. فهو يتساءل عن سبب وقوع أمور سيئة للبشر (وفي الواقع يتجاهل جميع الأسباب الدينية التي تقدمها النصوص التراجيدية) ويختزل، بدرجة أو بأخرى، الأسباب إلى سببين: خطأ بشري، وحدث عشوائي. يُعد الإنسان، بصفته الممثل الأخلاقي العاقل في عالم لا يمكن فيه لبعض العوامل أن تُدرك بالعقل أو أن تحكمها قوة أخلاقية، هو محور نظرية أرسطو في الفن بلا منازع. إن أرسطو مولع بفكرة الغياب التام لعدالة العناية الإلهية في هذا العالم. ولهذا السبب فإن مسرحيته المفضلة عندما يتعلّق الأمر بشرح نظريته الفنية هي مسرحية «أوديبوس تيرانوس» أو «أوديب ملكًا» لسوفوكليس، التي تُشدّد على الانعدام المطلق لإنصاف القدر، والحظ، والصدفة، في الحياة البشرية. ينتهي الأمر بأوديب إلى الاكتشاف المروّع أنه تزوّج أمه جوكاستا، وأنجب منها أربعة أطفال، بعدما قتل أباه لايبوس (من دون دراية بهويته) فيما كان بالأساس مشاحنة على الطريق خرجت عن السيطرة. إنها مثال صارخ على شخص يعاني من دون ذنب جناه، لأن

هذا المصير الفظيع كان محتوماً لأي ابن من أبناء لايوس وجوكاستا كُتِبَ له أن يتجاوز مرحلة الطفولة. كان أوديب متقاداً نحو مستقبل مرعب قبل حتى أن يُولَد.

لم يُحمَلْ سوفوكليس أوديب بعقله الفذ أية مسؤولية عن جريمتي قتل أبيه وسفاح القربى، اللتين لم يرتكب أيًا منهما عن دراية. لقد ظفر أوديب بعرش طيبة وبملكته الجميلة بإنقاذه المواطنين من الدمار عندما تعرّضت المدينة لتهديد وحش سفنكس الأسطوري البغيض قبل أعوام. لكن أوديب بالطبع هو نفسه السبب الجذري لمعاناتهم، فجرائمه لوّثت المدينة. وتمثّل المفارقة التي طرحتها هذه التراجيديا في أن شخصاً ذا ذكاء وحافز أقل ربما ما كان سيكتشف مطلقاً هويته الحقيقية؛ فلو لا ذكاء أوديب اللامع ربما كان سيبلغ مع جوكاستا وبمتهى السعادة سنّاً متقدمة غير مدركين لعلاقتها الحقيقية. إلا أنهما يكتشفان الأمر باستدلال منطقي، حيث تكتشفه جوكاستا قبل زوجها ببضع دقائق. يمر الشريكان بمشهد «الإدراك» في هذه المسرحية - فأوديب هو نفسه ذاك الطفل الذي أمرت جوكاستا بأن يُترك أعلى الجبل ليموت - ويُستخلص هذا الإدراك بمعاناة شديدة. تذهب جوكاستا إلى غرفة نومهما الزوجية وتشنق نفسها. ويتبعها أوديب لينزع دبائيس الزينة من جثتها المتأرجحة ويفقأ بها عينيه. يستولي صهره كريون على السلطة في المدينة ويُفرّق بالقوة بين طفلتين من أطفاله - طفلته اللتان هما في الوقت نفسه أختاه من أمه - أنتيجون وإسمين. وفي غضون يوم واحد، يُكتشف أن طاغية طيبة الجبار والمحبوب هو مَلِكُها الحقيقي بالوراثة، ويفقد هذا الملك مكانته، وعائلته، وبصره.

إن الصورة الواقعية التي يرسمها سوفوكليس هي لشخص على وشك أن يفقد سيطرته على نفسه لأنه يسعى جاهداً لأجل إيجاد حلول لمشكلة لا حل لها. يحتاج المُشاهد باستمرار إلى التمييز بين سمات شخصية

أوديب التي ساهمت في خبرته وحياته العملية وبين الحظ السيئ الذي لم يكن له أي سيطرة عليه. لا عجب أن أرسطو قد استمتع بهذه المسرحية باعتبارها دراسة حالة في الأخلاق. فالعلاقة بين الحبكة، والشخصية، وعمليات التفكير، والحوارات، مصممة ومنفذة بدقة. وهذه العناصر الأربعة للتراجيديا -الحبكة (muthos)، والشخصية (ethos)، والنشاط الذهني (dianoia)، واللغة (lexis)- هي بالفعل الأشياء الأربعة، في ذلك النظام، التي يعرفها أرسطو بأنها العناصر الأساسية لهذا النمط الأدبي. ولا يزال هذا المبدأ ينطبق انطباقاً تاماً على أي شكل آخر من الأشكال الأدبية الجيدة.

إن أرسطو يعدّ أوديب بطلاً تراجيدياً نموذجياً، كونه يمثل النوع الأنسب لأن يثير فينا مشاعر الشفقة والخوف، التي يعتبرها أرسطو استجابات عاطفية مناسبة للتراجيديا. فبينما يترنح حاكم طيبة المطلق المخلوع على خشبة المسرح والدم يتدفق من محجري عينيه، لا يمكن ألا نشاركه ألمه. ولأنه لم يكن ثمة شيء كان يمكنه أن يفعله، فإننا نخشى من أن مثل هذا المصير المرعب قد ينتظرنا أيضاً. يوضح أرسطو في الفصل الثالث عشر الرائع من كتابه «فن الشعر» أن البطل يجب أن يكون ذا طبيعة أخلاقية مناسبة لكي تُثار هذه العواطف بصورة ملائمة. نحتاج أن نشاهد رجلاً يمرّ بتغيير جذري في حياته، والأكثر تراجيدية هو أن يكون تغييراً يأخذه من حالة من السعادة والنجاح إلى حالة من البؤس والفشل عبر نقيصة (hamartia) ما.

ويؤكد أرسطو على أن الطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها تقييم الشخصية هي عبر المراقبة الفعلية للأشخاص أثناء فعل الأشياء أو أثناء التحدّث. ونقيصة البطل ليست علة أو نزعة نفسية دائمة، فهي أمرٌ يفعله أو يقوله، أو هي أمر يتجاهل فعله أو قوله عندما كان ينبغي عليه ذلك. إن الأمر، عند أرسطو، مثلما هو الحال في بقية التراجيديات الممتعة،

«متعلق بأخلاقيات الإنسان في الواقع العملي». إنه هذا التركيز الأخلاقي والنفسي الذي محوره البشر والذي ينتج عنه عمل تخيلي جيد - درامي، أو سينمائي، أو روائي - وتكمن أهميته في أن له قدرة فريدة على مساعدتنا على معرفة أنفسنا، واستيعاب موضوعات مظلمة، وإدراك العالم حتى أثناء خوضنا في لهو ممتع.

تُعد نظرية التنفيس (catharsis) التراجيدي لأرسطو واحدة من أكثر الأقوال ارتباطاً به في المخيلة الشعبية. تتضمن مشاهدة التراجيديا مشاعر الشفقة والخوف، وعبر استثارة هذه المشاعر تنتج «مشاعر التنفيس عن هذا النوع من المشاعر». كان أرسطو ابناً لطبيب مشهور، وشاهد، وربما ساعد، في عمليات طبية؛ لأنه سافر أو عاش في أجزاء مختلفة وعديدة من اليونان، وكان بوسعه مقارنة الطرق المحلية المتنوعة للتداوي والعلاج.

يتكلم أرسطو في كتاب «السياسة» عن دور الموسيقى - كما شهدناها في طقوس دينية معينة - في علاج الأشخاص الانفعاليين عبر «تنفيس محدد وتسكين مصحوب بمتعة». تشكل هذه المناقشة دليلاً حاسماً على القوة التي امتلكتها بعض الألحان المقدسة المتميزة في مساعدة الإغريق على التعامل مع الانفعالات الشديدة. فإذا كان أرسطو - حين ذكر «التنفيس» التراجيدي في كتاب «السياسة» - يفكر في نظيره من «الألحان المقدسة»، فنحن نحتاج إذاً إلى تخيل الدراما التراجيدية على أنها تثير مشاعر قوية موجودة بالفعل لدى المشاركين فيها، في عملية معالجة تجانسية، وأنها لا تُسعد أولئك المشاركين فحسب، وإنما أيضاً تجعلهم أكثر قدرة على مجازاة هذه المشاعر عند انتهاء التجربة المسرحية.

ويمكن إدراك روابط عديدة بين المسرح والطب في العالم القديم. فثمة قدر هائل من الاستعارات الطبية في شعر التراجيديا الإغريقية. وقيل إن سوفوكليس أدخل عبادة أسكيليبوس البطل الشافي (إله للطب) في منزله. وعادةً ما كانت معابد أسكيليبوس تُبنى بالقرب من المسارح؛ على

سبيل المثال، في إبيدوروس، وكورينث، وبوترينت (في ألبانيا الحالية). وبالمجازفة باستخلاص أوجه تشابه غير صالحة لهذا العصر، ربما كان أرسطو يصف تجربة مماثلة لتلك المألوفة اليوم، عند مشاهدة فيلم من الأفلام التي تدرج تحت التصنيف المعروف بـ «ويبيز» (أفلام النحيب) أو «تيرز جيركرز» (المثيرة للدموع) التي تتضمن مشاهد عاطفية للغاية مصحوبة بقطعة موسيقية مؤثرة، وتسمح للمرء «بالتمتع» ببيكاء يتناسب مع معاناة الشخصيات التي تظهر على الشاشة. في بريطانيا، على الأقل، تنظم مجموعات من الأصدقاء - عادةً من النساء - حفلات مع عدد كبير من علب المناديل الورقية من أجل الاستمتاع معاً بفيلم من أفلام «الويبيز»، وأستطيع أن أشهد شخصياً بأن هذه التجربة يمكنها أن تجلب شعوراً بالتنفيس والتطهّر والتخفّف من الألم النفسي المصحوب بالمتعة. يعلمنا كتاب «فن الشعر» كيف نقرأ الأدب، ونشاهد الدراما، ونفكر في الفن أخلاقياً، بطريقة تُثري حياتنا اليومية، إذا قررنا تجربة الطريق الأرسطي للسعادة. ولا يزال هذا الكتاب يقدم نصائح لا تقدّر بثمن للكُتّاب الطموحين، وبخاصّةٍ حول الصيغة الرباعية المتعلقة بالحبكة، والشخصية، والعمليات الفكرية، واللغة. وتحتوي الفصول السادس، والتاسع، والثالث عشر - التي لا نظير لها - على الأسرار الأكثر أهمية، لكن الفنان المبدع سوف يجد العديد من المحفّزات الأخرى في مواضع غيرها. ويمكن لفكرة أرسطو حول الفعل المنفرد والموحد الذي تقوم عليه أي حبكة مثالية أن تساعد في الحيلولة دون انحراف مسار القصة الذي يتسبّب في أن يفقد الجمهور انتباهه. ويبدو أن بعض كُتّاب الدراما في زمن أرسطو اعتقدوا بأن المسرحية يمكن أن تكون موحدة كفاية بمجرد التركيز على حياة وتجارب بطل منفرد مثل ثيسبوس أو هرقل. يعرف أرسطو أن هذه يمكن بسهولة أن تصبح قصة فضفاضة بلا حبكة أو تسلسل، ونحن نعرف أنه على صواب: فكم عدد أفلام السيرة الذاتية التي

تعاني من أجل أن تصنع من حياة شخصٍ فذَّ انطباعاً حقيقياً بالاستمرارية،
ناهيك عن الصلة بين تسلسل مشاهدتها المرتب زمنياً؟
إن المسرح ليس هو النشاط الترفيهي الوحيد الذي يناقشه أرسطو،
على الرغم من أنه النشاط الذي يُكرَّس له - في أعماله التي نجت على
أية حال - نقاشه الأكثر توسعاً. لكنه لا يقدم إرشادات محدّدة حول كيفية
تسخير وقت فراغنا لتحقيق بناء الذات. إذ لا يمكن وضع معايير لهذا
الأمر؛ فكل واحد منا يختلف عن الآخر، ويجب على كل واحد فينا أن
يتخذ بنفسه هذا القرار حول الاستخدام الهادف لأوقات فراغنا. لكنني
واثقة من أن أرسطو كان سيدرج كافة جوانب التعلم الذاتي، ونحن نعلم
من كاتب يدعى هيراقليدس الكريتي أن المحاضرات التي ألقاها فلاسفة
أثينا، مثل أرسطو، كان يحضرها الكثيرون من العامة في أوقات فراغهم.
لكن تشديد أرسطو على تعهّد العلاقات بالرعاية باعتباره أمراً بالغ الأهمية
لتحقيق السعادة يشير إلى أن من تقضي وقت فراغك معه يمكن أن يكون
على نفس قدر أهمية كيفية قضائك لذلك الوقت. ويشير نموذج أرسطو
الملهم عن المجتمع القائم على الأفعال الصالحة المتبادلة والوفاق
الوطني إلى أن أنشطة وقت الفراغ مثل التطوّع، أو النشاط السياسي، أو
التواصل الاجتماعي في محيط الفرد، هي أنشطة بناءة بطبيعتها. والنقطة
المهمّة التي نستخلصها هي أن وقت الفراغ ليس مسألة ثانوية، ويتطلّب
الاستغلال الكامل له إيلاء تفكير ومجهود أكبر حتى من الذي نوليه
لحياتنا العملية؛ ذلك لأن في وقت الفراغ سنجد ذواتنا الحقيقية وسعادتنا
الكبرى.

الفصل العاشر

الموت

إن التفكير في السعادة يتضمّن حتمًا التفكير في الموت، إذ نقضي جميعًا حياتنا ونحن على علم يقيني بأننا ومن نُحب سوف نُوارى الثرى بغضّ النّظر عن وجهات نظرنا حول الدين، والآلهة، والحياة الآخرة، وسيتهيي وجودنا المادي كما نعرفه حاليًا. ورغم تأكيد أرسطو على أن التفكير في الموت كان نهجًا ضروريًا لنعيش بصورة جيدة وبسعادة، فقد كانت هذه الحقيقة ماثلةً أمام عينيّه: «الموت هو أبشع الأشياء كلها، لأنه هو النهاية». كيف يمكن لنا، مثل أرسطو، مواجهة هذه المعرفة المؤلمة، وكذلك استغلالها لتحسين فرصنا في تحقيق السعادة بينما لا نزال على قيد الحياة؟

لطالما ارتعب أسلاف البشر من الموت. فقبل خمسين ألف سنة، مارس إنسان النياندرتال طقوسًا معقّدة على نحو مدهش لموتاه، إذ كانوا يزينونهم بعناية بالورود وأكسيد الرصاص الأحمر قبل دفنهم بعناية في قبور غير عميقة. تتعلّق أقدم قصة إنسانية مسجّلة في ملحمة جلجامش بسعي بطلها لاكتشاف سر الخلود. ويشير التّفكّر في الموت تلقائيًا الأسئلة الكبرى المستعصية على الإجابة بشأن أسرار الوجود والقوى غير المرئية المحرّكة للعالم المُدرّك، الأسئلة التي نطرحها بدايةً ونحن أطفال. لماذا أنا هنا؟ من أين أتيت؟ مَنْ أو مَا الذي يدير الكون؟ هل توجد آلهة؟ هل تكثر تلك الآلهة بي أو بسلوكي؟ هل ينبغي عليّ عبادتها؟ ما الذي

يحدث لي بعد موتي؟ هل الانتحار جائز؟ عندما يموت أحبائي، هل يمكن أن أظل على اتصال معهم بأي طريقة؟

تتحوّل أهمية هذه الأسئلة أو تتدفّق في عقولنا على نحو يتناسب مع انغماسنا في مشاغل الحياة اليومية. فعندما نبدأ رحلة الحياة، ونأخذ في اكتشاف إمكاناتنا وتحقيقها، وفي العمل باجتهاد، وتكوين الصداقات والعلاقات الرومانسية، وإنجاب الأطفال، واتخاذ القرارات، والتمتع بالاستجمام، قد تبدو هذه الأسئلة بعيدة وممكنة التأجيل إلى ما لا نهاية. لكنّ ثمة أوقات أخرى، غالبًا ما تأتي بغتة ومن دون سابق إنذار، تصير فيها تلك الأسئلة مُلحّة؛ عندما يمسنّا وأحبائنا الضّر، ونُشخّصُ بإصابتنا بأمراض خطيرة أو مميتة، ونوشك على الموت، أو الانتحار، أو التّكل. وتصير هذه الأسئلة مُلحّة كذلك حينما يرغب أطفالنا أو من نعولهم في الحصول على إجابات، أو يحتاجون إلى التعزية في أوقات الفقد أو المعاناة الشديدة. كذلك يمكن لصدمة عنيفة في حادث، أو تجربة اقتراب من الموت، أن تستدعي ضرورة امتلاك فهم أفضل لعلاقتنا بالموت والمعتقدات الدينية، كما في الشخصية التي لعب دورها جيف بريدجز في فيلم «لا يعرف الخوف» *Fearless* للمخرج بيتر واير (1993م)، الذي يصل به الأمر إلى حد التشكّك في كل شيء اعتبره مُسلّمًا به بشأن الحياة والموت بعد النجاة من حادث تحطّم طائرة.

فحتى إن كنتَ تؤمن، لأسباب دينية أو روحية، بإمكانية وجود شكل ما من أشكال الحياة الأخرى، فإن معظم ما يقوله أرسطو حول الموت والاحتضار يمكن أن يكون مفيدًا لك ولأحبائك أثناء حياتكم الراهنة. كان لدى معلّمه أفلاطون أيضًا الكثير ليقوله حول دور الموت في الحياة البشرية، رغم أنه اعتبر الموت بمثابة إحداث تغيّر سطحي فقط في مظاهر العالم المادي. أما عند أفلاطون، فالأرواح البشرية خالدة، وهي تتناسخ مرارًا في العالم المادي. عرّف المسيحيون الأوائل عالمه الفائق للإدراك،

الذي يتَّسم بالمثالية وعدم التبدُّل والذي تعود إليه الأرواح مرارًا، بأنَّه الرب الخالق. أدرك أرسطو أن العديد من قُرَّائه ربما يؤمنون بحياة أخرى. فثمة بعض التلميحات بأن أخلاقه يمكن أن تتَّسع لمعتقدات مستمعيه بخلود الروح، في أجزاء من خطبة كتبها لتعزية الثكالي -الذين لم يكونوا من الفلاسفة المتمرِّسين- عندما توفَّى قبرصي يدعى أوديموس في الحرب. لكن مما لا شك فيه أن أرسطو نفسه رأى الموت نهاية، مثلما يراه معظم الملحدين واللاأدريين هذه الأيام. وهو يؤكِّد في كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس» على أنك قد تتمنَّى الخلود، لكن لا يمكنك أن تختاره لأنه مستحيل.

إن أي وجهة نظر أخرى لن تتوافق مع فهمه العلمي للعالم كما أجملهُ في كتابه واسع الصدى المسمى «الكون والفساد» *On Coming to Be and Passing Away*. إن الأشياء في عالمنا المادي، بما فيها البشر، في عملية متواصلة من المجيء إلى الوجود، أو التكاثر، والنمو، والتبدل، والانحلال، والانهاء. يحدث الموت بسبب تبدُّد الحرارة المتأصلة في أي كائن حي. إذ تستمر الحياة في كل حيوان طيلة المدة التي تستمر فيها حرارته الطبيعية. إنها هذه الحرارة التي يقول أرسطو إنها «إن جاز التعبير تُشعل الوعي». وعندما تنطفئ الحرارة عند الموت، يأخذ الكائن الحي المركب والذي يتألَّف من الجسد الدافئ والوعي أو «الروح» في التحلُّل. وبحسب ما قال في كتابه «عن الروح» *On the Soul*، لا يعود بالإمكان اختبار المشاعر أو النشاط الفكري للذين يمكن أن يقال إنهما يخصَّان الفرد «الإنسان».

في ما بعد، اتفق العديد من الفلاسفة مع وجهة نظر أرسطو بأن وعي الإنسان الفرد يتوقف عن العمل عند الموت، مثلما ينطفئ مصباح إضاءة أو تُنزع فيشة كهرباء من مقبسها، ومن ثَمَّ، كان هذا المشهد الكثيب هو الشاغل الفلسفي الرئيسي عبر الزمن. يميل المستشارون والمعالجون

النفسيون الذين يمدّون يد العون للأشخاص الذين يحتضرون أو يواجهون فاجعة إلى التأكيد على تقبل الموت -«الرحيل في هدوء»- بوصفه غاية نهائية. لكن لا يوجد في الواقع إرشاد من هذا القبيل عند أرسطو، الذي اعتبر الموت أعظم الشرور التي تواجه الإنسانية. والحقيقة الصادقة بشأن فلسفة أرسطو هي أنك كلما مارست تعاليمه الأخلاقية على نحو أفضل، وأصبحت بناءً على ذلك أكثر سعادة، بدا -للهولة الأولى على الأقل- أنك ستخسر حتمًا حين يداهملك الموت. وإذا أفلحت في إقامة علاقات شخصية ناجحة، فإن التفكير في العلاقة الشخصية مع من تحب في حال موتهم يمكن أن يضيف وضوحًا بالغًا، لكنه لا يطاق، على السعادة التي يجلبها حبك لهم؛ وضوح قد يجعل من أي تعزية فلسفية أو لاهوتية تُقدّمها حول الموت تبدو عقيمة. ويذكر روبرت جريفز ذلك في قصيدته المؤلمة «الموت الخالص» Pure Death، حين يقول:

نظرنا، فأحبينا، وبعدها على الفور

جاء الموت مريعًا لي ولك.

بالحب تحرّرتنا من ذعرنا الفطري

من كل فيلسوف مُعزّي

أو من كل لاهوتي كئيب يصعب تصديقه؛

ففي النهاية استحق الموت مقامه ووضع الصالحين.

أرسطو -الذي أحبّ عائلته وأصدقاءه حبًا جمًّا- فكّر مليًا بشأن الموت. ولو كان قد علم بموقف الفيلسوف الصيني كونفوشيوس من الموت الذي دعا إليه قبله بقرنين من الزمان، كان سيكون له رد فعل مختلط. كان سيوافق على تركيز كونفوشيوس على عيش حياة خيرة أخلاقيًا في واقع الحياة اليومية بدلًا من التفكير في الأشباح أو الحياة الأخرى. لكنه كان سيتقد كونفوشيوس لتجنبه جميع المناقشات حول

الموت. لأنه توجد طرق يمكن بها للأخلاق الأرسطية أن تحدّ من القدرة التدميرية للموت، ومن ثمّ تقدم بعض العزاء. لكن لرجل صادق وفضولي فكرياً مثل أرسطو، كان إنكار الموت أو غض الطرف عنه أمراً غير وارد. ولا يوجد أي مؤشّر في فلسفته على قبول هادئ للموت أو إذعان أمامه. يوجد شعور سائد بأن الاعتراف بفنائنا ومواجهة كامل آثاره يمكن استغلاله بفاعلية لمساعدتنا لنحيا ونموت كما يجب. لكن ذلك لا يعني بأنه ليس مسموحاً لنا أن «نستشيط غضباً لزوال النور»، مثلما حدّد ديلان توماس والده. ويتكشف مثل هذا الغضب إلى حد بعيد في فيلم «إليري» *Elergy* للمخرجة إيزابيل كويسيت العام 2008 المقتبس من رواية «الحيوان المحتضر» *The Dying Animal* للروائي فيليب روث، التي تتمحور حول مثقف شهير يفشل ببساطة في التعامل مع الشيخوخة والموت الوشيك.

تنوّعت الرؤى الفلسفية في الموت بعد أرسطو تنوّعاً شديداً، لكن لأنه كان أول مفكّر يواجه بلا خوف التداعيات الكاملة لتوقّف الوعي، فإن غالبية هذه الرؤى يمكن أن تُعزى في نهاية المطاف إليه. فعلى أحد طرفي النقيض، ترى هذه الرؤى الغضب باعتباره الاستجابة المناسبة الوحيدة للموت، وتتخذ موقفاً مشابهاً لنصيحة توماس بالألا «تخطو وثيداً نحو موتك». فعلى سبيل المثال، ذهب الفيلسوف اليوغوسلافي-الأمريكي توماس ناجيل إلى أن الحياة تجعلنا نألف ما تمنحه من الطيبات، لذلك ينطوي فقدانها عند الموت -في أي عمر- على حرمان، سواء من ناحية النفس، أو من ناحية الأحاسيس أو التجارب^[14]. كان إلياس كانييتي، الكاتب اليهودي-الألماني-البulgاري، الذي عاش معظم حياته في بريطانيا، والفائز بجائزة نوبل في الأدب العام -1981 مقتنعاً بأنه يجب علينا ألا نهدف إلى قبول الموت، بل أن ننظر إليه باعتباره عديم النفع ومؤدّ، فهو «البلوى الأساسية غير المحسومة وغير المفهومة للوجود بأكمله». ازدرى كانييتي

كل المحاولات الدينية لفهم الموت، وادّعى بأن قبول الموت بسكينة يعادل قبول القتل^[15]. ورأى الفيلسوف الإسباني والعالم الكلاسيكي أونامونو البشر أسرى في صراع دائم غير قابل للحل ومأساوي بين ذواتهم الحساسة العاطفية التي تتوق إلى الخلود وذواتهم العاقلة التي تعلم أنه لا مفر من انتهاء الحياة العضوية. لكن على عكس ناجيل وكانييتي، يلفت أونامونو الانتباه إلى استنتاج أرسطي مفاده أنه من المهم محاولة العيش باستقامة، وهو نابع من هذا الاعتراف بأن الموت عدم، وأنه مماثل للقتل، وأنه مأساة: «الإنسان هالك. قد يكون الأمر كذلك، وإذا كان العدم هو الذي ينتظرنا، فدعونا نتصرف إذاً باعتبار أنه سيكون مصيراً ظالماً»^[16]. وظلم الموت هو سبب لمحاولة عيش حياة طيبة إلى درجة أن الموت حين يأتي يبدو أكثر كأمر غير مستحق على الإطلاق.

وقد ورد أقوى تعبير تصويري عن الشعور بأن الموت ظالم في كتاب بليز باسكال «خواطر» (1670): *Pensées*:

دعونا نتخيل عددًا من الأشخاص مكبلين بالأغلال، وقد حكم عليهم جميعًا بالإعدام، حيث يُقتل بعضهم كل يوم تحت مرأى ومسمع من الآخرين، وأولئك الذين يبقون يرون مصيرهم هم أنفسهم في مصير رفاقهم، ويتظنون دورهم، وهم ينظرون إلى بعضهم بعضًا في أسى وبلا أمل. هذا تصوير لحال البشر^[17].

إن مجموعة الأشخاص المكبلين بالأغلال الذين يصفهم باسكال هم كناية عن حياة البشر؛ مثل زنزانة السجن الإسبانية المشتركة مع مدانين آخرين في قصة سارتر القصيرة «الجدار» *The Wall*، أو غرفة انتظار طبيب الأسنان في شعر إليزابيث بيشوب، أو وادي ظل الموت في المزمور 23، أو الشجرة الساقطة في مسرحية صامويل بيكيت «في انتظار جودو» *Waiting for Godot*. لكن اعتراض أرسطو على باسكال

كان يمكن أن يكون قويًا: نحن لسنا مكبلين بأغلال ولسنا مجبرين على قضاء كل وقتنا في مراقبة رفاقنا يموتون. لدينا إرادة حرة، وقدرة على التصرف باستقلالية، وإمكانية تحقيق سعادة هائلة من خلال العيش بالطريقة الصحيحة وفي علاقات تسودها المحبة. فباستطاعتنا أن نأمل في أن نعيش في بيوت سعيدة، وأن نعمل من أجل تحقيق أهدافنا، وأن نجرب العمل البناء والاستجمام الهادف، وأن ننعم بأحاسيس ممتعة، وأن نتساءل عن تنوع وجمال عالم الطبيعة، وأن نفكر بقدر أكبر في أشياء أخرى غير الموت أثناء حياتنا الواعية. وثمة فلاسفة يصل هوسهم بالموت حد التقديس الأعمى، وسييدون مُفْرِطين في التشدد مقارنةً بأرسطو، ومنهم هايدجر، وكامو، وسارتر، وفوكو. ومثلما هو حال كل شيء في العالم الأخلاقي، ينطبق أمر وجود وسط بين الإفراط والتفريط على تناولنا لفكرة الموت.

«التطلع إلى النهاية» لقدّر مناسب من الوقت يمكن أن يساعدنا على تحقيق أكثر ما يرغب به أرسطو؛ العيش بأفضل طريقة وأمتعها. وربما يكون مونتاني -الذي كان لديه نوع من العلاقة المتقلبة من الحب والكره مع أرسطو- قد بالغ في التفكير طوال الوقت تقريبًا بشأن نهايته: «إنني أتحلل من الالتزامات على جميع الأصعدة؛ إذ أتممت بالفعل جزئيًا توديعاتي للجميع باستثناء نفسي. فلم يسبق مطلقًا لإنسان أن استعد تمامًا وبكل معنى الكلمة لمغادرة العالم ولا انفصل عنه كليًا، بدرجة أكبر مما قررت أن أفعل». لكن أثناء تفكيره بشأن موته، توصّل مونتاني إلى اكتشاف أعاده إلى كامل حيويته، وجعله يشعر أنه ينبض بالحياة أكثر بكثير: «عندما أرقص، أرقص، وعندما أنام، أنام»⁽¹⁸⁾. وعلى غرار ذلك، رأى نيتشه أن مواجهة موتنا ورفض آمالنا في حياة أخرى يجعلان من الضروري لنا أن نضطلع بمسؤولية كاملة وناضجة عن حال واقعنا، الأمر الذي بدوره يتطلب منا العيش على نحو أفضل وبحماسة أعظم.

ينطوي الاكتفاء الذاتي الأخلاقي أو الاعتماد على الذات (*autarkeia*) على استقلال الفرد ويتطلب منه أن يكون «صادقًا مع نفسه». وإن الإقرار بأنك وحدك تستطيع مواجهة احتمال موتك - حيث لا يمكنك أن تجد بديلًا يواجهه نيابة عنك - هو جزء من كونك صادقًا مع نفسك. كما أن هايدجر، الفيلسوف الذي غالبًا ما يكون مبهمًا وغامضًا والذي عادةً لا تتوافق أفكاره عن طبيعة الوجود مع أفكار أرسطو، - قد جعل الموت محوريًا في مفهومه المشابه بغرابة لمفهوم الذات الإنسانية الأصلية - «الأنا» التي تشير إلى وجود كائن فريد من نوعه - في كتابه «الكينونة والزمان» *Being and Time*. فقد رأى هايدجر أن جميع البشر في حيرة بين الامتثال للقواعد والقيم المعيارية للمجتمع وبين إدراكهم الحسي القوي أنهم أفراد وذوات مفردة؛ «أنا» متميزة وأصلية. فالقيام بما يتوقعه المجتمع يجعلنا نفقد الشعور بكوننا ذواتًا فريدة ومتفردة، يتألف تفردنا تحديدًا من وحدتنا التي لا سبيل لتجنبها عندما نموت. لذا، لكي نكون كائنات أصلية وصادقة مع ذواتنا المتفردة أثناء حياتنا، يجب علينا أن «نتطلع إلى النهاية» ونتفكر في موتنا. يقول هايدجر إن «كل وجود مع الآخرين سوف يخذلنا» عندما تكون «القضية» هي الموت، وسوف يتوقف إحساسنا بكوننا كيانًا فريدًا مع توقف وعينا. ومع ذلك، ومما يدعو للعجب، فإن تلك المعرفة يمكن أن تعيدنا إلى عوالم العمل والعلاقات كفاعلين أخلاقيين ملتزمين ونشطين بدرجة أكبر^[19]. ويمكن لإدراكنا لما يدمره الموت أن يجعلنا أيضًا أكثر إبداعًا؛ مثلما قال مايكل أنجلو: «لا توجد فكرة في داخلي إلا نحتها الموت بإزميله».

وفي مناقشته لما إذا كان من الممكن أن يُطلق على رجل ميت أنه سعيد، يكشف أرسطو عن سمة مريحة على نحو غريب للموت. فعندما نموت، تتغير بعض الأشياء، لكن (على نحو مدهش) الشيء الوحيد الذي لا يتغير على الإطلاق هو «الشخص» الذي يموت. فذاتك

الفريدة تصبح أكثر وضوحًا وتحديدًا، والسبب في ذلك تحديدًا أن ذاتك عند الموت تفقد قدرتها على التبدّل. ففي السجل البشري وفي ذاكرة الأشخاص الآخرين، تكتمل «ذاتك» بوصفها شخصًا فريدًا عند التوقف عن كونك قابلاً للتغيّر حين تموت^[20]. فعندما تحدث وفاة في العائلة، يواصل الشخص الفريد الذي مات ممارسة حضوره، وغالبًا ما يكون حضورًا أقوى لأنه في الموت يمكن لمدى إسهامه وطبيعته أن يبدو أكثر وضوحًا. فإذا كان لديك ثلاثة أشقاء ومات أحدهم، فستكون دومًا أحد أربعة أشقاء. يعبر ووردسوورث عن هذا بعمق في قصيدته «نحن سبعة» *We are Seven*، التي تصوّر فيها فتاة صغيرة على عبارة «نحن سبعة» مع أن اثنين من أشقائها الستة «يرقدان في مدفن الكنيسة». ويبدو موت الأطفال هو الأكثر جورًا على الدوام بسبب شعورنا بأن ثمة إمكانية لم تتحقق. يستكشف فيلمان رائعان درجة الألم فضلًا عن تنوع ردود الأفعال الممكنة، هما فيلم «الحياة الأخرى الجميلة» *The Sweet Hereafter* للمخرج أتوم إجويان (1997)، الذي يستكشف مسألة ضرورة العثور على شخص يُلقى عليه اللوم، وفيلم المخرج كينيث لونرجان «مانشستر على البحر» (2016) *Manchester by the Sea* المؤلم، وذو الأداء التمثيلي الرائع.

يرى أرسطو الكائنات الحيّة كلّها باعتبارها داخلة في حيز الوعي، وهي تنضج في الظروف المناسبة من أجل تحقيق إمكاناتها الكاملة قبل أن تتضاءل تدريجيًا وتوارى الثرى. وهذا يعني أن لكل حياة قصتها (أو منحناها) مثل شخصية مكتوبة بشكل جيد في رواية. فهي تمتلك وحدتها السردية الخاصة خلال الزمن، كما قال أرسطو في كتابه «فن الشعر» إن المسرحية أو القصيدة الملحمية الجيدة يجب أن تكون لها وحدتها السردية. استخدم أرسطو أيضًا تشبيه الحكمة الدرامية عندما أصر على أن المعاناة الشخصية المبكرة للفرد تكون أكثر أو أقل أهمية لتقييم سعادته

الكلية مما يحدث بعد موته. إن الفرد الذي يتتهج الأخلاق الأرسطية سيدرك على الصعيد الفكري أن له حياة خاصة به، أو فترة موحدة يوجد خلالها في العالم بوصفه كائنًا فريدًا، أو الشكل الذي به يستطيع توجيه نفسه إذا ما تحمّل المسؤولية وتصرف كفاعل يتمتع بالاكتماء الذاتي. فهو يستطيع أن يكون كاتب قصته، ويرتقي بوحدها وتماسكها واكتمالها. يفكر البشر بالفعل بطريقة قصصية، وبإمكان «التطلع إلى النهاية» أن يساعدنا في إعداد فصل أخير أقل إثارة لعدم الرضا. هذه الطريقة في النظر إلى الحياة يمكن أن تجلب راحة هائلة. عرف أرسطو كيف نسعد عاطفيًا بخاتمة مرتبة. ويعتقد علماء النفس اليوم بأن الرغبة في الخاتمة هي أمر متأصل في الدماغ البشري، وأنه ربما يكون لها أسس بيولوجية تساعدنا عندما نشيخ على التعامل مع سنوات أرذل العمر وترقب الموت^[21].

تحثنا الأخلاق الأرسطية على التخطيط لحياتنا من ناحية المساعي التي نرغب في أن نبذلها من أجل تحقيق إمكاناتنا البشرية. في هذه الأيام، ثمة عادة يتبعها الأشخاص الذين يحتضرون تتمثل في إعداد قوائم بجميع الأشياء التي يرغبون في إنجازها أولاً. يدور فيلم «قائمة الأمنيات الأخيرة» (2007) *The Bucket List*، من إخراج روب راينر، حول رجلين يحتضران يعدّان قائمة بجميع أمنياتهما التي لم تتحقق ويشرعان في تحقيقها. تشمل هذه الطموحات القفز بالمظلات، والطيران فوق القطب الشمالي، وزيارة جبل إيفريست. ويُعد الفيلم تحفيزيًا وقد ساعد العديد من الأشخاص حين تُشخّص إصابتهم بأمراض مميتة. كذلك فيلم «إكيرو» (1959) *Ikiru*، للمخرج أكيرا كوروساوا -والمستوحى جزئيًا من رواية «موت إيفان إيليتش» *The Death of Ivan Ilyich* لتولستوي- الذي يُشخّص فيه بيروقراطي من طوكيو، يشعر بأنه فشل في تحقيق أي شيء يمنح حياته معنى، بسرطان قاتل. وتتمثل ردة فعله في قضاء أسابيعه الأخيرة في ممارسة الضغط من أجل افتتاح ملعب جديد لأطفال المدينة وينجح في ذلك.

لكن الطموحات الأرسطية تتعلق بمشاريع أكثر استدامة وترابطًا، والتي لدى معظمنا مجموعة متكاملة منها. فالمشروع يمكن أن يكون طفلًا نربيّه، أو صداقة نعتز بها، أو عملاً نشرع فيه، أو منزلًا أو حديقة نُجَمِّلُهما، أو جمعية خيرية نقدم لها الدعم، أو مدرسة نديرها، أو نوعًا من الكلاب نربيّه، أو هواية نمارسها، أو جبالًا نتسلّقها، أو سياسة نُؤيِّدها، أو كتابًا نؤلفه، أو قطعًا أثرية نجمعها. توحد شخصيتنا هذه المشاريع، فالشخصية الأرسطية ترعى كل مشاريعها بشكل دائم، وتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها. ويمكن للتفكير في الموت أن يعزّز من إمكانية نجاح مشاريعها. وكل مشروع من المشاريع سوف يتأثر بصورة مختلفة بموت هذه الشخصية؛ فبعضها سيتوقف عندما تموت، لكن البعض الآخر لن يتوقف. هنا يصبح الفكر الجاد والعمل اللازم أمرين جوهريين. ناقش موتك مع العائلة والأصدقاء المقربين؛ فهذه المشاريع -صلات المحبة- لا تتوقف عندما نموت. ومن حسن الحظ، من الصعب أن يتعرّض أيُّ منّا لزوال جميع مشاريع حياته، والذي ستجده الشخصية الأرسطية أمرًا يكاد يكون من المستحيل تحمّله. يضرب أرسطو مثالًا بـ«بريام»، الرجل الذي تحطّمت كليًا قدرته على السعادة، والذي قضى جميع أبنائه نحبهم أمام ناظره، واحترقت المدينة التي حكمها طويلًا حكمًا رشيدًا وهو ينظر إليها. لكن معظمنا لا يواجه محن بريام، فسوف يبقى بعض أحيائك على قيد الحياة، وسيظلون أحياءك بغض النظر عن توقف وعيك. ولا تنطوي رعاية مصالحتهم على مجرد مواجهة الآثار العاطفية، وإنما أيضًا على الإفصاح عن أمانيك في ما يتعلق بالعناية الطبية في نهاية العمر، وممتلكاتك البسيطة التي ليست مشمولة في وصيتك، ومراسم دفنك، وكيفية التعامل مع رُفَاتِكَ. لديّ زميلة أرملة تعيش في كرب لا داعي له لأنها لم تسأل زوجها أبدًا أين يريد أن يُنثر رماده. ونظرًا لأنها لا تعرف أين تنثره فإنها لا تزال غير قادرة نفسيًا على استلامه من المحرقة. ويمكن حتى للتفكير في

الموت أن يساعدك على أن تجد في نفسك النشاط والانضباط من أجل إتمام المشاريع؛ مثل التعامل مع الأعمال الورقية بغرض تأسيس جمعية خيرية، أو كتابة رواية، أو تسلق جبل كليمانجارو. يمكن لتفويض الآخرين أن يساعد في استمرار بعض المشاريع؛ فمن المهم أن نكون واضحين، لو بذلنا جهداً كبيراً من أجل تأسيس بيت جميل، أو عمل ناجح، أو جمع تحف أثرية، حول ما إذا كنا نريد من الآخرين أن يحافظوا على تلك المشاريع بعد موتنا أم لا، وبشأن من ينبغي أن يرثها.

أخذ أرسطو نفسه مسألة أن يموت الإنسان ميتة طيبة بالجدية نفسها التي أخذ بها مسألة أن يحيا حياة طيبة. لم يناقش كيفية مواجهة الموت بالتفصيل في أعماله الفلسفية، لكن الروايات التي تتناول موته نفسه ووصيته الفعلية، والتي بقيت ووصلت إلينا، تمثل نموذجاً لنا جميعاً. توفي أرسطو في منفاه بعيداً عن أثينا العام 322 قبل الميلاد. وأدى نهجه العلمي تجاه العالم، وإنكاره لمسألة اهتمام الآلهة بشؤون البشر، إلى جعله عرضةً لأن يُحاكَم لأسباب دينية. فما إن مات الإسكندر الأكبر حتى انتهز أعداء أرسطو في أثينا الفرصة واتهموه بالهرطقة تماماً مثلما حوكم سقراط قبل ذلك بثمانية عقود. ولكن أرسطو لم يسعَ إلى أن يُنفذ فيه حكم الإعدام مثلما فعل سقراط. أُتيحت لسقراط فرصة الهرب من أثينا والبقاء حياً، لكنه فضّل البقاء في السجن والتضحية بنفسه. وعلى النقيض، لم يكن أرسطو من نوعية الرجال الذين يضحون بحياتهم، مع أنه كان في هذا الوقت يعاني من مرض خطير في المعدة، ربما كان السرطان. لجأ إلى ضيعة فيها حديقة وكوخ للضيوف تملكها عائلة أمه في خالكيس على جزيرة وابية Euboea. وصحبته رفيقته هربيليس -أم ابنه نيقوماخوس- إلى أن توفي هناك عام 322 قبل الميلاد. ولا بد أنه كان جَزِعاً، ولا بد أنه افتقد بشدة حياة الليسيوم وصداقة ثيوفراسطوس، الذي ترك له مسؤولية رئاسة الليسيوم.

لكن الانتقال إلى خالكيس وقر لأرسطو مكانًا رائعًا ليستعد للموت الذي من المرجح أن معرفته الطبية قد قادت به إلى توقّعه. وقد استمد أرسطو دعمه العاطفي من قراءة الأدب الكلاسيكي؛ إذ ينبتنا أحد الأجزاء المؤثرة، المكتوب في نهاية حياته، أنه كان يستمتع استمتاعًا متزايدًا بالأساطير القديمة «كلما كَبُرْتُ وازدادت عُزْلَتِي». كانت خالكيس ولا تزال مدينة ساحلية صحية عليلة النسيم. ومن المبهج تصور أنه، في مرضه الأخير، تمشّى في نزهاته الأخيرة على الممشى المشمس الطويل، ربما برفقة هربيليس وأولاده، من أجل مناقشة الكيفية الأمثل لمواجهة احتمال موته، ومستقبلهم من دونه. إن الحزن عندما يموت شخص محبوب جدًا هو أسوأ ألم عاطفي يمر به معظم البشر، وهو أمر يستحق الاستعداد له. كان أرسطو يستمد عزاءه من قراءة الكلاسيكيات القديمة للأدب الإغريقي، بتصويرها لموت الأبطال؛ أما نحن فبوسعنا مشاهدة أفلام عبقرية عن الموت. يكشف فيلم «النافورة» *The Fountain* (2006)، للمخرج دارين أرونوفسكي، كيف يكون شعور امرأة تُحتَضَر تريد من زوجها أن يُمضي كل ما تبقى لها من وقت في الاستمتاع بصحبة بعضهما بعضًا، بينما لا يستطيع هو مواجهة أمر فقدانها الوشيك، ومنشغل انشغال مهووس في محاولة البحث عن علاج ممكن من أجلها. أما في ما يتعلق بما بعد الفاجعة، فثمة قراءة حسّاسة للغاية في الفيلم الكندي «السيد لازهار» *Qubécois Monsieur Lazhar* (2011)، للمخرج فيليب فالاردو، تستكشف حزن بعض الأطفال على معلّمهم الذي مات، وكذلك حزن معلّمهم البديل، وهو لاجئ سياسي قُتلت زوجته وعائلته الصغيرة في موطنه.

في وصية أرسطو، يُعدّ التأمل في سيناريوات مستقبلية محتملة مختلفة -بحسب مَنْ مِنْ شأنه أن يموت أولاً من بين من بقي على قيد الحياة- ممن أحبهم أو شعر بمسؤولية تجاههم -جديرًا بالفعل باهتمام المفكرين

الأكثر اقتدارًا. كان لأرسطو ابنان من صلبه؛ نيقوماخوس وابنته بيشاس، وقد تبنّى أيضًا ابن أخته نيكانور. ومع علم أرسطو بأنه كان على وشك الموت في ظروف تؤثر سياسي، وأنه كان يواجه شخصيًا عداءً من بعض الأثينيين، اختار أقوى رجل متاح في ذلك الوقت، أنتياتر، داعمه المقدوني منذ فترة طويلة، والذي كان في تلك الفترة حاكمًا لليونان القديمة، منفذًا للوصية. كان أرسطو جادًا حيال ذلك. ضمن هذا الاختيار عدم انتهاك أحد لشروط الوصية إلا إذا كان عرضة للخطر.

يشير أحد التفاصيل في مستهل الوصية إلى أن أرسطو قد كتب نصّها أو نقّحه قبيل موته، مما يوحي بأنه كان يعلم أنه مصاب بمرض قاتل. اختار أرسطو ابنه بالتبني نيكانور - ابن أخت أرسطو أريمنيس وزوجها بروكسينوس - ليكون المنفذ الثاني للوصية، لكنه كان على ما يبدو خارج البلاد. وحتى عودة نيكانور، طلب أرسطو من فريق مكّون من أربعة أصدقاء، بالإضافة إلى ثيوفراسطوس - الرئيس الجديد لليسيوم (الذي من المفترض أنه كان مشغولًا للغاية) - «إذا ما كان يرغب في ذلك وكان ذلك ممكنًا» أن يتولّوا مسؤولية رعاية «الأطفال وهربيليس وإرثهم».

من الواضح أن أرسطو كان يحترم نيكانور ابنه بالتبني؛ إذ جعل منه وصيًا على ابنه. لكن نظرًا لأن نيكانور كان ابن أخت أرسطو، وأصغر منه بكثير، أدرك أرسطو أن علاقة نيكانور بطفليه اللذين هما من صلبه ستكون «كما لو كان أبًا وأخًا في الوقت نفسه». وكان على نيكانور أن يولي بيشاس عناية خاصة، «وأن يرعى كل شيء آخر بطريقة تليق به وكذلك بنا». كانت النساء اللاتي يفقدن آباءهن عرضة للاستغلال، وفي حاجة إلى رجل صالح يمثلهن في الشؤون القانونية والمالية. لذا؛ أراد أرسطو من نيكانور أن يتزوَّج بيشاس وأن يتولّى مسؤوليتها ومسؤولية ذريتهما المشتركة. كان قلق أرسطو على بيشاس كبيرًا حتى إنه اختار زوجًا محتملًا ثانيًا جديدًا بالثقة في حال موت نيكانور؛ وهو ثيوفراسطوس.

وربما كانت الشخصية الأكثر غموضًا في حياة أرسطو الخاصة هي عشيقته الدائمة، هربيليس، وهي امرأة من استاجيرا، موطنه القديم. ويرجع السبب لعدم زواجه منها إلى أنها كانت على الأرجح من منزلة اجتماعية أدنى، وربما كانت جارية أو امرأة محرّرة من العبودية. وأعتقد بأنه كان قلقًا أيضًا بشأن الأمان النفسي لابنته بيشاس: فقد كان الصراع بين زوجات الأب والأبناء ماثراً للخوف كبير في العالم القديم. كان الوعد الوحيد الذي انتزعته ألكيستيس -بطلة مسرحية يوريبيدس- من زوجها وهي على فراش الموت هو ألا يتزوج أبدًا حتى لا يُتكلّى أبنائهما بزوجة أب عدوانية. وربما كانت بيشاس راضية عن التعليمات الموجودة في وصية أرسطو التي تقضي بإخراج عظام والدتها الميتة من القبر لتُدفن بجوار عظام والدها.

ولكن، حتى مع أن هربيليس كانت محظية أرسطو، فقد أنجبت له نيقوماخوس الابن، الذي خصّص له بندًا ينطوي على حرص شديد. يحرص أرسطو كذلك على إدراج العبارة المؤثرة والقصيرة التي تقول بأن هربيليس «كانت طيبة معي». وهذا يوحي بضرورة أن يضطلع منفذو وصيته بدأب بتنفيذ توجيهاته التفصيلية والعطوفة المتعلقة بها:

إذا كانت ترغب في الزواج، فيجب أن تزوّجها لشخص في جدارتي. وينبغي أن تُعطى -إضافة إلى الهدايا الأخرى التي تسلّمتها قبل ذلك- طالين من الفضة، من التركة، وثلاث إماء، إن رَغِبْتَ في ذلك، والأمة التي تملكها حاليًا، والعبد بيرهايوس. وإذا كانت ترغب أن تعيش في خالكيس، فلتأخذ كوخ الضيوف الكائن بجوار الحديقة. وإذا رغبت في العيش في استاجيرا، فليكن لها منزل أبي. وأي منزل من الاثنين سوف تختار، على منفذ الوصية تزويده بالأثاث الذي يرويه مناسبًا والذي توافق عليه هربيليس.

هل التمسّت والدّة نجل أرسطو منه ألاّ يسمح للجنرالات أو الفلاسفة باختيار ديكور منزلها الداخلي؟

مع أن البند الذي خصّصه أرسطو لعبيده ليس غريباً على أصحاب الأملاك في القرن الرابع قبل الميلاد، فإنه لا يزال يشير إلى أنه كان قد أنشأ روابط شخصية ودية معهم. فقد أوصى بتحريرهم جميعاً فور موته، أو في تاريخ لاحق محدّد (مثل زواج ابنته). ومُنح بعضهم، فضلاً عن ذلك، إرثاً سخياً. أكد أرسطو على ألا يُباع أحدٌ من العبيد الذين اعتنوا به (فمن شأن هذا أن يضعهم تحت طائلة سيد أقل طيبة): «ليس لمنفّذي الوصية أن يُقدّموا على بيع أي من العبيد الذين اعتنوا بي، ولكن لهم أن يوظّفوهم. وعندما يصلون إلى السن المناسبة، ينبغي على منفّذي الوصية أن يحرروهم كما يستحقون».

وشأن جميع الإغريق، كان أرسطو مهتماً بالوسائل التي يمكن للبشر أن يحققوا بها نوعاً من الخلود إذا امتد تأثير ما فعلوه إلى ما بعد موتهم. وكانت الطريقة الأكثر وضوحاً تتمثل في إنجاب الأولاد والأحفاد ليحملوا شيفرتك الوراثية وسلالة عائلتك. تحدث الكتاب منذ هوميروس أيضاً بفخر عن الخلود وهو أن تُسجّل مآثرك البطولية، أو حتى مصائبك المحفوظة، في أغنية شهيرة مهداة، بحيث يبقى اسمك ومآثرك يُسمّعان بعد أجيال كثيرة. فمن أجل الاحتفاظ بالذكرى العلنية لأنفسهم ولأحبابهم حيّة، كان أولئك القادرون على تحمّل تكاليف تماثيل البورتريه، واللوحات، وشواهد القبور المنحوتة، والمدافن والأضرحة، يسندون إلى آخرين تكليفاً بالعمل عليها. أشار الفلاسفة -خاصة أفلاطون- إلى أن إنتاج أفكار جديدة يشبه الإنجاب، لأن المفاهيم ذات الأهمية تبقى موجودة وتغيّر عقول الناس وحياتهم بعد فترة طويلة من وفاة الأشخاص الذين ابتكروها.

وكان أرسطو مفتوناً بكل هذه الوسائل التي ابتكرها البشر من أجل

التحايل على الموت البيولوجي. وعلى الرغم من أن أرسطو كان لا يؤمن شخصيًا بوجود حياة واعية للبشر بعد الموت، فقد كان حريصًا على ألا يقسو على حاجة الناس الغريزية للطقوس التي اعتقدوا بأنها كانت تربط بينهم وبين المتوفين من أحبائهم. سلم أرسطو بأن الإصرار على أن الموت يتسبب في انحلال روابط الصداقة، التي تجعل المجتمع الإغريقي مترابطًا، من شأنه -على حدّ قوله حرفيًا- أن يكون «غير ودي» (aphilon). كتب أرسطو قصيدة في مدح صديقه المتوفى هرمياس، حاكم مملكة أسوس التي قضى فيها أرسطو أواخر الثلاثينات من عمره. كما عيّن صديقه وتلميذه الأجدر بالثقة ثيوفراسطوس ليخلفه في الليسيوم، ورحل عن العالم وهو يعلم أن عشرات من الفلاسفة الشبان سيخلدون اكتشافاته الفكرية ويطوّرونها. إلا أنه أضاف أداة مفيدة للغاية إلى مجموعة أدوات التعامل مع الموت أو الفاجعة؛ وهي التطوير المنهجي لمقدرتك على التذكّر الواعي.

إن الأشخاص الذين يموتون يعيشون على ذكرى أولئك الذين يحبّونهم، وأولئك الذين تأثروا بهم. فالشخصية الأرسطية سوف تستخدم ذكرياتها بطريقة منضبطة ومنهجية لتساعدها على التأقلم مع مرحلة الشيخوخة وفقد الأحباء. كان أرسطو أول مفكّر نعرفه يميز بين الذاكرة والتذكّر المتعمّد؛ ولنعرف مدى أهمية ذلك الأخير؛ فإنه من بين جميع الحيوانات، يمتلك الكائن البشري وحده قوة التذكّر المتعمّد. ابتكر سقراط، الذي أعلن عن نظرية لتناسخ الأرواح، فكرة أن تعلم الأشياء يمثل في الواقع شكلاً من التذكّر، تذكّر أشياء تعلّمناها سلفًا في حياة سابقة. لكن أرسطو لا يتقبّل الفكرة القائلة بأن عقولنا وُلدت في أجساد أخرى في عصور سابقة. فقد كان مهتمًا بالكيفية التي برمجت بها الطبيعة عقولنا الآن لتتطور بطرق معينة، ومن ثمّ الكيفية التي تسهم بها كل تجربة فردية -إلى جانب تدريب الخيال والذاكرة- في نضوج هذه العقول.

كتب أرسطو رسالة كاملة بعنوان «عن الذاكرة والتذكر» *On Memory and Recollection* يستكشف فيها هذه القدرة البشرية المدهشة. وتعد هذه الرسالة قراءة آسرة بسبب الألفة التي تجعلك تشعر وكأنك داخل رأسه. إنه يصف الحقن الذي تسببه الشعارات والأقوال الجذابة - «ديدان الأذن» - التي لا تستطيع «إخراجها من رأسك»؛ على الرغم من أننا قد نحاول «التخلي عن العادة ولا نقصد الخضوع لها، فإننا نجد أنفسنا نتغنى أو نتلفظ باستمرار بهذه الأصوات المألوفة ونرددها». إن أرسطو يعي تمامًا قدرة العقل على إعاقة الذاكرة أو قمعها، ويعي ما يسمى حاليًا «متلازمة الذاكرة المستعادة»؛ إذ يقول: «من الواضح أنه من الممكن تذكر الأشياء التي لا يتذكرها المرء في اللحظة الحالية، بل التي استوعبها المرء أو عانى منها منذ البداية». وربما استرجع أرسطو نفسه في وقت ما ذكريات صدمة عانى منها في الطفولة رغم أنها كانت في طي النسيان لسنوات عدة. لقد بذل جهدًا ليختبر ويصف بتفصيل دقيق ما حدث عندما كان يستغرق في التفكير في الصور الذهنية التي ولدها وعيه. الصور الذهنية تعني انخراطه إما في تخيل أمر افتراضي، أو توقع أمر سوف يحدث في المستقبل، أو تذكر تجارب الماضي عشوائيًا، أو تذكرها عن قصد: «من المستحيل حتى التفكير من دون صورة ذهنية».

نجد مناقشة أرسطو المطولة للغاية حول الخيال في حوار آخر هو: «عن الروح» *On the Soul*. لكن المسألة المهمة في رسالة «عن الذاكرة والتذكر» لأرسطو هي أنه ثمة فارق كبير بين تذكر أمر ما عشوائيًا - على الرغم من أنه يمكن أن يكون ذا قيمة - وبين التذكر عن عمد. ومن الواضح أن بعض الحيوانات الأخرى لديها ذاكرة. راقب أرسطو الحيوانات وهي «تتعلم» من خلال التجربة؛ فالكلب يعرف الطريق ويتذكره لأنه كان سار على هذه الطريق من قبل. لكن الكلب لا يستطيع الجلوس ساكنًا والتفكير عن قصد حول ما يعنيه أن يكون كلبًا، أو أين سافر مع صاحبه الصيف الماضي أو ماهية شكل أمه.

لكن، على الرغم من جدّيته المطلقة في مناقشة موضوع التذكّر، يرسم أرسطو ابتساماً على شفّتيّ عندما يفرّق بين التذكّر والذاكرة العشوائية؛ إذ يقول: «شتان بين الرجال الذين لديهم ذاكرة جيّدة وأولئك الذين يُحسِنون التذكّر، ففي الواقع، وعموماً، يتمتّع بطيئو الفهم بذاكرة أفضل، لكن سريعي البديهة وأولئك الذين يتعلّمون بسهولة أفضل في التذكّر». يمكن للمرء أن يتعلّم أن يكون بارعاً في التذكّر. لكن ملاحظة أرسطو بأن بطيئي الفهم يحفظون بذاكرة أفضل توحى إليّ أنه -مثل العديد من الأساتذة اليوم الذين تكون عقولهم منخرطة عادة في التفكير في مادة فكرية من نوع أو آخر- كانت ذاكرة بعض «الأساتذة شاردي الذهن» في اليونان القديمة سيئة للغاية حينما كان الأمر يتعلّق بتذكّر قوائم التسوّق أو أي جوانب أخرى من خبرة الحياة اليومية.

إن للذاكرة والتذكّر علاقات مختلفة بالحواس. ترتبط الذاكرة، كما يقول أرسطو، بقدراتنا الحسّية. ابتكر مارسيل بروسست مصطلح «الذاكرة القسرية» *mémoire involontaire* في روايته «البحث عن الزمن المفقود» *À la recherche du temps perdu* (1913-1922)، عندما «أنعش» أكله لكعكة المادلين المنقوعة في الشاي ذاكرته وذكّره بأكله لهذا النوع من الكعك برفقة عمّته عندما كان طفلاً. لكن قبل بروسست بأكثر من ألفي عام، كان أرسطو قد ميّز بدقة بين الذاكرة «المنعّشة» القسرية التي تدفعنا حواسنا لاختبارها (*amneme*)، وبين المعلومات التي يمكننا استرجاعها حول ماضينا عن قصد بالأفعال «الطوعية» للتذكّر (*anamnesis*)؛ وتعد هذه الأخيرة هبة إنسانية حصريّة. إنها قدرة واعية لعقولنا وليست قدرة غير واعية لحواسنا.

في تصوير جميل يصف أرسطو كيف تتشكّل الذاكرة «البروستية»: فعقولنا -عبر الإدراك الحسّي- تشبه شمع الختم الذي يستقبل طبعة من محفّز خارجي هو ختم التوقيع. لقد فكّر مليّاً بشأن الأشخاص الذين

لا تعمل ذاكرتهم بصورة جيدة؛ الطاعنين في السن، والأطفال الصغار، والمعوقين ذهنيًا. وهو يفسر هذا بالقول بأن الجزء المتأثر من عقولهم بالإدراك الحسي ليس حساسًا لختم التوقيع؛ إنه لا يشبه شمع الختم اللزج الذي يوشك أن يجف ويحتفظ بطبعة الختم. بل هو يشبه الماء الجاري في حالة الأطفال، والجدران الصلبة القديمة في حالة الكبار أو المعوقين ذهنيًا. لكن على خلاف الذكريات التي يثيرها التحفيز الحسي، فإن التذكر المتعمد هو مقدرة إنسانية فريدة ومتميزة؛ «فالعملية هي نوع من البحث». إنها القدرة التي، إذا جرى تطويرها أو التدريب عليها، يمكن أن تفيد في سعينا نحو السعادة. إنها ترتبط بقدرتنا الإنسانية المتميزة الأخرى، قدرتنا على التفكير في أفعالنا، التي تعدّ جزءًا لا يتجزأ من فعل الصواب وتحقيق إمكاناتنا. على مستوى إنساني أكثر شمولًا، دراسة التاريخ وأفكار أشخاص مثل أرسطو في الماضي هي نوعًا ما طريقة إنسانية جمعية للتذكر المنضبط الذي لا غنى عنه من أجل فهمنا للمشروع الإنساني، وهي مرشد لمستقبلنا.

أظن أن والد أرسطو، الطبيب نيقوماخوس، كان لديه اهتمام خاص بالأمراض العقلية. كثيرًا ما يظهر أرسطو إمامه بالأنواع المختلفة من الوعي غير الاعتيادي التي يمكن أن نسميها الاضطرابات النفسية المتعددة. ويكتب أرسطو بتبصر استثنائي عن معاناة الأشخاص من الأوهام التي تؤدي إلى خلط أنواع مختلفة من الصور الذهنية؛ ذكريات فعلية من الماضي مع سيناريوات تخلقها خيالاتهم. وهو يصف حالة شخص يدعى أنتيفيرون، من بلدة أوريوس، وهو «مجنون» تحدّث عن «صوره الذهنية كأنها وقعت بالفعل» وكأنه «تذكرها بالفعل». وتحدّث أرسطو أيضًا عن الكرب الناجم عن الذكريات المختلطة لأشخاص ذوي ميول اكتئابية وسوداوية. إن قناعته بأن للذاكرة علاقة وثيقة بأجسادنا من خلال الحواس، وأن اختبارنا لصور ذهنية من أي نوع هو -بشكل أو

بآخر - نشاط جسدي، يمكن أن تبدو قريبة بصورة ملحوظة من اكتشافات علم الأعصاب الحديث. ويصف أرسطو تحديدًا الأشخاص المكتئبين الذين يشعرون بانزعاج مرير «حينما لا يستطيعون التذكر رغم التركيز الشديد». فهل استخدم والد أرسطو نوعًا من العلاج النفسي الذي يطلب فيه من المرضى تذكر صدمة سابقة، واختبر إحباط الأشخاص الذين «أعاقوا» كليًا ذكريات الأحداث المعنية؟

كان أرسطو مبهورًا كذلك بقدرة الصور خارج العقل على تنشيط التذكر وتحفيزه. استخدم أرسطو تمثاليًا نصفياً لسقراط كان موجودًا في الليسيوم كمساعد في التدريس. وقد ذكر كُتَّاب سيرته أن أرسطو نفسه أمر بعمل تمثالين لزوجته بيثياس ولصديقه هرمياس بعد موتهما، وأنه كتب قصائد عنهما. كذلك ذكروا أنه رسم صورة لأمه. يصف أرسطو في كتابه «فن الشعر» السرور الذي يشعر به البشر عند «التعرُّف» على الأشخاص في صورة، وعند القدرة على تخمين من هم، وكيف يمكن لذلك أن يكون تجربة تعليمية وممتعة أيضًا. وفي رسالته «عن الذاكرة والتذكر»، يبحث أرسطو في صورنا «الداخلية» عن أشخاص نعرفهم، وهو يرى أن هذه الصور بمثابة شيء يمكن النظر إليه في سكون، باعتبار أن لها حياة حقيقية خاصة بها، وكذلك أيضًا «كمثال مساعد للذاكرة». المثال الذي يطرحه أرسطو هو عن تلميذ له شعر داكن يُدعى كوريسكس. ويمكن لصورة أرسطو الذهنية لكوريسكس أن تحاكي تمامًا لوحة فنية؛ تسمح لأرسطو بالنظر إلى كوريسكس والتفكير فيه مع أنه لم يره مؤخرًا. وتُعد القدرة على التمتع بحضور كوريسكس الداخلي في عقلك، وحتى النظر إليه وقتما تشاء، أمرًا يمكن لمقدرتنا الإنسانية على التذكر وحدها أن تفعله. إذا ظهر كوريسكس في مخيلتنا، ربما يكون ظهوره لا إراديًا - فربما لم نستدع هذه الصورة بالتحديد عمدًا - وقد يكون في الواقع صورة وليس ذكرى استثيرت بواسطة إحساس آخر أو ذكرى أخرى. وأيًا

كان الأمر، فإن كلاً من الصورة الفعلية لكوريسكس والصورة الذهنية عنه التي يتحصّل عليها أرسطو إراديًا ولا إراديًا تعنيان أنه يستطيع التفكير في تلميذه حتى أثناء غيابه. يقدّم علم النفس الأرسطي، إلى جانب تقليد السيرة الذاتية المتمثّل في حرصه على تخليد ذكرى أحبائه، استراتيجية مفيدة عند مواجهة الموت والفقد.



كتبت الجزء الأكبر من هذا الفصل بينما كانت والدتي تحتضر وهي في سن التسعين، بعد حياة طويلة وحافلة. وقد وجدت سلوى كبيرة في التفكير بشأن ما توحى كتابات أرسطو أنه كان سيقوله لي. ورغم أن حزني كان عميقًا، فقد مكّنتني تطبيق نظامه الأخلاقي بوعي من أن أشعر براحة أكبر أثناء الوضع المحزن بأكمله، ومن ثمّ أبدو هادئة ومبتهجة في وقت احتاج مني الآخرون فيه أن أكون كذلك. وأكد لي هذا النظام أيضًا مدى أهمية عيش الحياة بأفضل طريقة ممكنة، لأن الحياة غالية جدًا حقًا. وتحديدًا، وجدت أن استخدام قدرتي على التذكّر ساعدني في التعامل مع مرحلة شديدة الإيلام عندما كنتُ أرعى والدتي. توحى ردود فعلها الدافئة: تزيّيت يديها الواهنتين، وابتسامتها العريضة وسط كل الأنابيب، بأن هذا قد ساعدها أيضًا.

لقد شرعت عن وعي، وبأكبر قدر ممكن من التفصيل، في تذكّر لحظات السعادة التي شعرت بها في صحبتها عندما كنت طفلة. يمكن لصوّر قديمة ولحديثٍ إلى أفراد آخرين من العائلة أن يساعد بقدر كبير، لكن الذكريات الخصبة حقًا تنبعث مما يطلق عليه أرسطو «التذكّر المتعمّد». إن الدخول بطريقة منهجية في وعيي خلال سنوات حياتي السابقة، والبيوت التي سكنا فيها، والعطلات التي قضيناها على شاطئ البحر في يوركشاير واسكتلندا، والمدارس الابتدائية الثلاث التي التحقت بها؛ جميعها أشياء جعلت ذكريات حية على نحو مذهل عن

والدتي وهي في ريعان شبابها، تتدقق عائدةً في ذهني. اليوم الذي كنت فيه في الثالثة من عمري ورقصنا معًا حول جهاز تسجيل صغير في غرفة نومها لأنها كانت قد اشترت أسطوانة فينيل لأغنية منفردة لفريق البيتلز عنوانها «إنها تحبك» She loves you. والسعادة الغامرة التي شعرت بها عندما أمسكتني بإحكام وانزلقنا على المزلجة المائية في مسبح مفتوح في الهواء الطلق في يوم صيفي (تمكّنت من خلال قناع الأكسجين أن تقول إنها تظن بأن هذا لا بد أنه كان في بلدة دنبار). وشراؤها صابون بيرز لي أنا خصيصًا، لأنني كنت أحب النظر إلى الأشياء من خلال شفافيته الكرمليّة اللون. لعبنا بلعبة «بوستيكس»⁽¹⁾ Poohsticks لساعات على جسر فوق مجرى نهرٍ في يوركشاير ديلز، وأرتني الطريقة التي أتأكد بها من أن قطعتي من السرخس تمضي بأسرع ما يمكن بتصويبها نحو الجدول السريع. الجلوس أمام شاشة التلفزيون، والصياح في بهجة، عندما كانت تجلس معي لمشاهدة مسلسل الأطفال «شاهد مع أمك» Watch with Mother. وكيف أن أفضل أيام حياتي في المطبخ كان مرتبطًا بها؛ عندما اشترت لي أواني عجين البسكويت ومجموعة جديدة من قواطع المعجنات، والتي كانت على شكل دجاج وملائكة وأرانب عيد الفصح. كيف استمتعتُ سرًا باحتجازي في المستشفى وأنا في نحو الثامنة من عمري، بعد عملية طارئة لاستئصال الزائدة الدودية، رغم الألم الحاد؛ لمجرد أنها كانت تزورني كل يوم بمفردها، بينما كان أشقائي في

(1) البوستيكس Poohsticks : لعبة تجري على الجسور الخشبية الصغيرة للأنهار، حيث يجمع المتسابقون أعواد صغيرة من الشجر، ثم يختار كل متسابق عودًا واحدًا، ويصطفون معًا على جانب الجسر، ويقومون بإلقاء الأعواد التي في حوزتهم في تيار النهر، ويسرعون إلى الجانب الآخر من الجسر ليروا جميعًا أيًا من هذه الأعواد سيحملة التيار المائي أولًا إلى الجانب الآخر، ليكون صاحب هذا العود هو الفائز. (المترجم)

المدرسة. لمرة واحدة لم يكن عليّ التنافس معهم للاستحواذ على اهتمامها الكامل. عندما كانت تختصر، كتبت هذه الذكريات وذكريات أخرى كنت قد تمكنت من استعادتها من جديد بعد وقت قصير من مضي بوعي للبحث عنها في سرايب ذاكرتي. ستجلب لي هذه الذكريات عزاءً يمكن الاعتماد عليه في المستقبل الذي ينتظرنني الآن من دون أم.

إن ألم الفقد مختلف عند الأشخاص الذين لا يمدهم دين بوعد لحياة أخرى. لم يؤمن أرسطو بحياة أخرى. لكن مع أنه اتهم بالزندقة، فهو في الواقع لم يكن ملحدًا على الإطلاق. لم يكن حتى لا أدريًا بالمعنى المفهوم اليوم. هو فقط لم يؤمن بأن الكيانات الإلهية البعيدة كان لها أدنى اهتمام بشؤون البشر. إن نبذه للأفلاطونية، ووضعه أساسًا راسخًا للأخلاق في الطبيعة كان يعني أن النظرة الدينية للسلوك البشري أضحت غير ضرورية. فلا يستند سعي معتنقي الفلسفة الأرسطية لفهم الطبيعة ولأهداف العيش الطيب على رؤية دينية أو ميتافيزيقية. فهم -عوضًا عن ذلك- يستندون إلى رؤية تتبع المذهب الطبيعي. لكن ذلك لا يستبعد إطلاقًا احتمالات وجود كيانات إلهية، أو أن بعض جوانب ممارسة الدين على الأقل ربما تكون مفيدة للإنسانية.

لاحظ أرسطو أن كل الجماعات الإثنية المختلفة في العالم «تتحدث عن الآلهة كما أنه يحكمها ملك، لأنه في الواقع هذه هي طريقة حكم بعض هذه الجماعات نفسها الآن وفي حالات أخرى دُرِجَت على أن تكون كذلك في أيامها الغابرة؛ ومثلما يتخيل البشر الآلهة في هيئة بشرية، يفترضون أيضًا أن نمط حياة تلك الآلهة يشبه نمط حياة البشر». يؤمن أرسطو بأن حدود الخيال البشري هي وحدها التي تعني تخيل الآلهة بصفات بشرية. ويعرف أرسطو أيضًا أنه بإمكان الطغاة استغلال الدين من أجل زيادة السيطرة على رعاياهم؛ فقد اخترعت آلهة الأساطير «للتأثير على عوام الناس وباعتبارها ذريعة تأسيسية ونفعية». ومن ناحية

أخرى، فإن إله أرسطو أو آلهته بعيدون عنا تمامًا؛ فالفجوة كبيرة للغاية إلى درجة أننا لا نستطيع أن نتوقع وجود علاقة بهم، سواء كأصدقاء أو كحُكّام مستبدين.

وفي بحثه حول الطبيعة وما وراء الطبيعة -وكذلك من حين إلى آخر في كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس»- يشير أرسطو إلى أنه يعتقد بأن التأمل في الكون المادي قد يقربنا أكثر من «الإله». على الأقل، من الأرجح أن يقربنا من الإله بدلًا من مجرد تخيل الكائنات السماوية باعتبارها (أ) تشبه البشر، (ب) في الواقع، هي كيانات حاکمة فائقة للبشر تتفاعل مع «رعاياها» البشريين، وهي الطريقة التي فهم بها غالب البشر في العالم الألوهية. يبدو أن أرسطو آمن بأن الأجرام السماوية «أكثر قدسية» من البشر. ففي بعض الأحيان، نجده يدعو الشمس والنجوم والكواكب بـ«الأجرام القدسية التي تتحرك في السماء»، أو «الأشياء القدسية المرئية»، أو «السماء وأقدس الأشياء المنظورة». وبما أن نظامه الفلسفي كلّه أقرّ بمركزية الحركة والتغير، رأى أرسطو أن الإله -مهما كان بعيدًا- لا بد أن يكون أحد «المبادئ الأولى» أو المصادر الأصلية للحركة التي تضبط بقية الكون المتحرك. ومن ثمّ يُعد الإله «مُحرِّكًا»، لكنه «غير متحرك»، وغير متبدّل من قِبَل البشر، أو في الواقع، من قِبَل أي محفّز أو قوة أو كيان آخر.

وفي سؤاله عن ماهية الإله، أو ما يفعله الإله، يطبّق أرسطو عملية الاستبعاد المعتادة لديه، ويسأل في فقرة ساخرة عما لا يفعله الإله. فعلى خلاف البشر، الذين يعيشون في أفضل الأحوال تبعًا للفضائل، لا يخضع الإله لأي نوع من الأخلاقيات على الإطلاق. فلا يقضي الإله وقته في معاملات تجارية، يُظهر فيها الفضيلة من خلال الطريقة التي يكتب بها العقود ويرد بها الودائع. ولا يضطرّ الإله إلى إظهار شجاعته من خلال مواجهة خطر مادي. إن كنا سنُمجّد الإله لتحكّمه في رغباته الشريرة،

فإننا بذلك في الواقع سنهينه بالإشارة إلى أنه يملك مثل هذه الرغبات ليتحكم بها. ولا يوجد أحدٌ على المستوى السماوي يمنحه الإله مالاً، ومن ثَمَّ يُظهر كرمه. يستثير أرسطو عبثية تخيل الآلهة في هيئة بشرية باستحضار فكرة النقود والعملية الإلهية، فقط ليستبعداها. ويقول مازحاً إن الادعاء بأن الآلهة أبدية لكنها دائماً نائمة (مثل إنديميون) من شأنه أن يكون تبريراً واهياً.

كل هذا يقود إلى استنتاج أرسطو بأن الإله لا بد أن يكون متصلاً بعمل يتوافق مع عمل أعلى الفضائل كافة، ونحن كبشر نكون في أفضل أحوالنا، عندما نكون «فاضلين» للغاية، ومن ثَمَّ في أسعد أحوالنا، وذلك عندما نستخدم عقلنا بفعالية. فالوقت الذي نقضيه في الاجتهاد في التفكير بشأن العالم، ونُنَظِّر بشأنه - أي نعيش حياة التنظير أو التفكير - هو الوقت الذي نقرب فيه كبشر إلى أقصى درجة من الألوهية. ومن الواضح أنه كثيراً ما قيل لأرسطو إن من الخطر المضاهاة بين النشاط الفكري الإنساني وبين الإله، لأننا نجده يحيد عن طريقه من أجل تحذير قارئه من «الأشخاص الذين ينصحوننا بأنه ينبغي أن يكون للإنسان أفكار إنسانية وأن تتمحور أفكار البشر الفانيين حول الموت». فالبشر، على الأقل في الفترات الوجيزة التي ينخرطون فيها في تأمل فكري بشأن أمر ما يثير اهتمامهم، ومن ثَمَّ يكونون في غاية السعادة، ينالون فرصة مؤقتة لفعل ما يفعله إله أرسطو طوال الوقت.

وتظهر الفقرة الأشهر حول «الإله» في كل مؤلفات أرسطو في الكتاب الثاني عشر من كتابه «ما وراء الطبيعة» أو «الميتافيزيقا». هذا الكتاب معروف عادةً لدى الفلاسفة باسم *Metaphysics Lambda*، أي «الميتافيزيقا، الكتاب الثاني عشر». وهو نصٌّ مكثف وصعبٌ للغاية، لكن جوهره واضح. «الإله» هو فكر متحقق، أو فكر واقع، يمكننا نحن البشر أن نستمتع به مؤقتاً. إنه يماثل السعادة أو المتعة الخالصة. التفكير بأفضل

قدراتنا، وعلى أعلى مستوى، يحولنا مؤقتًا إلى «إله»، أو على الأقل، يسمح لنا بأن نشارك في الفعل الإلهي. إن الفكر المتحقق هو ما يجعلنا أحياء، وهذا يماثل أن تكون «إلهًا». ولكن في حين أننا كائنات مؤقتة الوجود لها عمر بيولوجي، فإن «الإله» هو الحياة الأكثر خيرية والأكثر أبدية. «نحن نعتقد، إذًا، أن الإله كائن حي، أبدي، وخير؛ ومن ثم فإن الحياة والوجود المستمر الأبدي ينتميان إلى الإله؛ لأن تلك هي ماهية الإله».

قد تبدو هذه الحجة أكثر غموضًا من المنطق الأرسطي الواقعي وحكمته العملية التي تتكشف في هذا الكتاب. ومع ذلك -على المستوى الأعمق- تشير الحجة القائلة بأن «الإله» فكر أو فهم أبدي -على نحو استثنائي- إشارة مسبقة إلى آراء بعض أكثر العقول تقدمًا في عصرنا. فتحددًا، في كتابه الأكثر مبيعًا «تاريخ موجز للزمان»⁽¹⁾ *A Brief History of Time* (1998)، بدا ستيفن هوكينج أرسطيًا بغرابة حين خلص إلى أنه «لو اكتشفنا نظرية كاملة، ينبغي بمرور الوقت أن تكون قابلة للفهم من قِبَل الجميع، وليس فقط من قِبَل علماء قلائل. لذا، يجب علينا جميعًا؛ فلاسفة، وعلماء، وأناس عاديون، أن نكون قادرين على أن نشارك في النقاش حول سؤال لماذا نحن موجودون ولماذا الكون موجود. وإذا عثرنا على الإجابة لذلك السؤال، سيكون ذلك هو النصر المطلق للعقل الإنساني؛ لأننا حينئذ سندرك عقل الإله».

لكن ماذا يتعين على الأرسطي الذي يظن بأن البشر يشاركون في الفعل الإلهي لأنهم يستطيعون ممارسة المنطق واستخدام عقولهم لفهم الكون أن يفعل حين يتعلق الأمر بدين راسخ؟ على خلاف أفلاطون،

(1) تاريخ موجز للزمان، تأليف: ستيفن هوكينج -ترجمة: مصطفى فهمي - دار التنوير، 2014

نادرًا ما يناقش أرسطو التعبد؛ على الأقل في رسائله الأخلاقية. وبالنظر إلى الطريقة التي يُرسي بها أخلاقياته في إطار الطبيعة وليس اللاهوت، لا يكون هذا مُستغربًا على الإطلاق. لكنه يبين بإيجاز من حين إلى آخر في أعماله الأخرى موافقته على طرق تقليدية محدّدة لاحترام الآلهة من ناحية المنافع الاجتماعية أو المنافع الأخرى التي يمكن أن تضيفها مثل هذه الطقوس، بما في ذلك الترويح الجماعي. هذا الموقف مفيد؛ فحتى لو لم تكن «مؤمنًا» بالله بأي معنى متعارف عليه، يمكن أحيانًا للذهاب إلى الكنيسة، أو المسجد، أو الكنيس، أو المعبد، أن يكون إيجابيًا عندما تسعى أنت أو مجتمعك إلى الاندماج والسلوى الطقسية.

يفترض أرسطو في كتابه «السياسة» أنه من المهم للدولة المدينة، وهو السياق الذي غالبًا ما يزدهر فيه البشر، أن تولي رعاية جيّدة لطوائف الآلهة. فهو، على سبيل المثال، يمتدح «التراطات التي تشكّل لأجل المتعة، مثل التجمّعات الدينية، ونوادي الطعام، التي هي تجمعات لتقديم الذبائح والاختلاط الجماعي». يعتقد أرسطو أنه في الدولة المدينة جيدة الإدارة، يتجمع الأشخاص «من أجل تقديم الذبائح وإقامة الاحتفالات في ما بينهم، ومن ثمّ يجلّون الآلهة ويوفرون عطلات ممتعة لأنفسهم. إذ قد يُلاحظ أن مناسبات تقديم الذبائح والأعياد ذات الأصل القديم تقام بعد الحصاد، كونها في الحقيقة أعيادًا للحصاد؛ وذلك لأن هذا الفصل من العام كان هو أكثر فصل يستمتع فيه الناس بأوقات الفراغ». وفي نصيحة أرسطية خاصة للنساء -تجمع بين مناصرته للمشى ونظيرته الطبية المعتمدة على كونه من نسل أطباء- باستحسان واضح لحدّ أدنى من الاحترام للطقوس التقليدية على الأقل، يوصي أرسطو صراحةً بأنه في الدولة المدينة الحسنة الإدارة، ستُشجّع النساء الحوامل على «الاعتناء بأجسادهنّ، وعدم الابتعاد عن ممارسة الرياضة، واتباع نظام حماية مناسب»؛ وهو يقترح لممارسة التريّض، «المشي اليومي من أجل العبادة الواجبة للآلهة التي تتحكّم في عملية الولادة».

أما الخرافات المستهتره فهي مسألة مختلفة. من المرجح أن أرسطو كان سيتفق مع صديقه وزميله الفيلسوف المشاء ثيوفراسطوس، الذي وصف مخاوف الإنسان المضحك المؤمن بالخرافات في كتاب يحتوي على تصورات أخلاقية موجزة بعنوان «الشخصيات» *Character*. يقول ثيوفراسطوس إن الإنسان المؤمن على نحو تقليدي بالخرافات يشعر بالرعب من التعامل مع النساء اللواتي أنجن، والمجانين، ومرضى الصرع. وقد أذهلت المحرمات البدائية، التي ربطت الرجس الفعلي -التن- بمثل هؤلاء الأشخاص، فلاسفة الليسيوم العقلانيين إذ اعتبروها مثيرة للضحك وسخيفة. وكثيراً ما يشير أرسطو في أعماله إلى التفسيرات القائمة على الخرافات وغير العلمية التي يؤمن بها غير المتعلمين بشأن ظواهر يمكن في الواقع تفسيرها من الطبيعة من خلال الملاحظة التجريبية. لكن تعزيز الترابط الاجتماعي في نوادي تناول الطعام تحت رعاية آلهة وأبطال بعينهم، أو مشي امرأة حامل، المفيد صحياً، لتقديم قرايين في أحد مزارات أرتميس (الإلهة التي ترعى الجوانب البيولوجية لحياة المرأة) هي أمور مختلفة. لا يبدو أن أرسطو يعتبر أن هذه العادات الدينية التقليدية المثمرة ضارة بأي شكل من الأشكال.

لكن هذا لا يزال غير كافٍ بالنسبة إلي. فإذا لم يكن لدي شخصياً، كمفكرة أرسطية، أي ميل لممارسة الصلوات أو الطقوس المعتادة، ولا أؤمن بفعاليتها، فماذا عساي أن أفعل مع العديد من البشر في العالم الذين يمارسونها ويؤمنون بفعاليتها؟ سببت لي هذه المسألة قلقاً، من ناحية لأن غالب أفراد العائلة التي ولدتُ فيها يؤمنون بالله ويمارسون شكلاً أو آخر من شعائر المسيحية البروتستانتية. وكثير من أعز أصدقائي من الروم الكاثوليك أو يمارسون تعاليم أديان تشمل اليهودية، والإسلام، والسيخية، والهندوسية. يعيش كثيرون منهم حياة فاضلة، ويمارسون أخلاقيات مماثلة لأخلاقياتي، وتعينهم معتقداتهم الدينية على فعل

ذلك. إن أكثر الأشخاص في العالم الذي أعيش فيه يؤمنون بالله، وكثير منهم يعتقد بأن إلهه أو آلهته تتدخل تدخلًا مباشرًا في شؤون البشر. لذا، يتعين عليّ أن أقبل معتقدات الآخرين الدينية من دون تحفظ، وأن أتعامل معهم باحترام كمواطنين، شريطة ألا يجبروا أحدًا آخر على قبول آرائهم، أو يحاولوا تغييره بطريقة دينية، بدلًا من السعي العلماني وراء السعادة الكونية كمنطلق للتشريع والعلاقات المدنية، أو يحاربون حقوقي في السعي وراء السعادة من دون آلهة ويختلفون مع هذه الحقوق. ولا يوجد أي دليل على الإطلاق أن أرسطو قد فعل خلاف ذلك.

إن العيش من دون إيمان بإله أو آلهة تتدخل في شؤون البشر، أو في الواقع، من دون أمل في حياة أخرى، هو أكثر تحدّيًا حينما تكون الأوقات عصيبة. خضع الكثيرون من معاصري أرسطو، بمن فيهم أفراد الأسرة المالكة المقدونية، لشعائر أديان غير مفهومة وغامضة على أمل أن يستطيعوا بذلك أن يضمّنوا الخلود. لبعض منا، يصبح الدافع للصلاة طلبًا لمساعدة فائقة للطبيعة دافعًا جارفًا عندما نواجه مشكلات خطيرة من أي نوع، لكنه يكون في أقوى حالاته عندما نحتضر أو نواجه موت أحبائنا. ويمكن للرغبة في الاعتقاد بوجود أعمال شفاء عجائبية، أو نعيم حياة أخرى، أن تستولي على أكثر اللاأدريين عقلانيةً. ولا يوجد ضرر متأصل في ذلك. فلا ينبغي الاستخفاف بأي شيء يجلب السلوى عندما يكون البشر في معاناة. ومع ذلك، يمكن لمواجهة حقيقة فناء الإنسان أن تجعل الحياة نفسها - ما دامت قائمة - أكثر ثراءً ووضوحًا إلى حدٍّ بعيد. ثمة أيضًا مزايا لمواجهة احتمال توقّف وعينا ببساطة عند توقّف أجسامنا عن العمل، مثلما يتوقّف التيار الكهربائي عن السريان عندما نزع القابس من المقبس؛ فأن يكون المرء ميتًا يعني أنه لا مزيد من الألم أو المعاناة، ولا مزيد من السعادة أيضًا.

إن الحياة، عند أرسطو، هي الهدف الأساسي. كرّس أرسطو

حياته للتفكير في ما يعنيه أن يكون المرء حيًّا؛ ما يعنيه ذلك للنباتات، والحيوانات، والأسماك، والطيور، وكذلك البشر. وراقب أرسطو، بعجب شديد، في تجربته الشهيرة عن «أفراخ الدجاج»، كيف نمت من اللحظة التي باضتها فيها الدجاجات حتى أتت الأفراخ إلى الوجود بعد عدة أيام من فقس البيض. سجّل أرسطو نتائج ملاحظاته يوميًّا في كتابة نثرية دقيقة، وعقلانية، وعلمية، وقرينة من الشعر الخالص:

في اليوم العشرين تقريبًا، إذا كَسَرَت البيضة ولا مست الفرخ، تجده يضطرب داخل البيضة ويسقسق؛ ويكون الفرخ مكسوفًا بالفعل بالزغب، بعد مضي اليوم العشرين، وعندها يشع في كسر القشرة. يكون موضع الرأس على يمين الساق بالقرب من الخصر، ويعلو الجناح الرأس؛ وفي هذا الوقت تقريبًا يكون واضحًا للعيان الغشاء، الذي يشبه غشاء ما بعد الولادة، ويلي مباشرة الغشاء الخارجي للقشرة.

إن هذا التعجب من الحياة واحترامها، إضافة إلى قناعته أنه بالصبر والسعي الأخلاقي يمكن التغلب حتى على المعاناة العاطفية المريرة، هو ما جعل أرسطو يعارض الانتحار.

اخترع المسيحيون الأوائل، الذين أرادوا ترويض أرسطو واختزال القدرة التفسيرية لرؤيته للعالم المتمحورة حول الإنسان، قصةً مختلفة. قالوا إنه انتحر بعد أن اعترف بتدخل الله في البناء المادي للعالم؛ أي إنه تخلّى عن آرائه عن الأخلاق المتمحورة حول الإنسان وعن علمه. ادعوا أنه قفز في مضيق يوريبوس الذي يفصل خالكيس عن البر الرئيسي لليونان. وزعموا أن الدافع وراء فعلته كان السخط لأنه لم يستطع أن يفسّر علميًا المد المرتفع الذي يدور في دوامات في القناة الضيقة، ومن ثَمَّ اعترف، في لحظاته الأخيرة، بأن ثمة قوة إلهية غامضة فاعلة في

العالم لم يكن بمقدور عقله فك شفرتها. لكن هذه كانت ترهات دعائية. إن المشكلة في الانتحار، عند أرسطو، هي الغاية من ورائه، وهي غاية سلبية؛ للهروب من «الفقر، أو عذاب الحب، أو الألم». لاحظ أرسطو أن ثمة صنفًا واحدًا من الأشخاص الذين يرغبون في الانتحار يتألف من السفاحين، الذين يقتلون أنفسهم للهروب من ماضيهم والخزي الاجتماعي الناتج عنه: «فالأشخاص الذين ارتكبوا عددًا من الجرائم، والمكروهون بسبب خسّتهم، في الواقع يهربون من الحياة ويتخلّصون من أنفسهم». إن الشخص الذي يقتل نفسه لا يفعل ذلك لأنه أفضل إجراء في هذه الظروف بعد تفكير عميق، قرار نابع من شخص متأنٍ مؤهل لاتخاذها، لكنه نابع من ضعف في مواجهة ضيق. يبدو أن أرسطو كان يوافق على الوضع القانوني الأثيني، حيث لم يكن الانتحار يعد جريمة، لكنه أيضًا لم يكن جائزًا.

أجرى الفلاسفة عبر التاريخ بحوثًا حول الانتحار. ويعالج جميع الفلاسفة الذين يتفقون مع أرسطو بشأن رفض الانتحار - أمثال أفلاطون وكانط - المسألة بوضع الشخص الذي يرغب في الانتحار في سياق علاقات مع ثلاثة كيانات؛ مع نفسه، ومع المجتمع، ومع الله. ومع ذلك يبدو أرسطو، في فقرة أخرى، مهتمًا فقط بعلاقة الفرد مع مجتمعه. فهو يرى أن الإنسان «الذي يقتل نفسه في نوبة من الانفعال» يرتكب جريمة عمدًا، والمجتمع هو الذي يتحمّل ضررها. إذ يفقد المجتمع أحد أعضائه، وبما أننا جميعًا نحمل مسؤوليات تجاه مجتمعاتنا، فإننا نتسبّب في تلك الخسارة إذا قتلنا أنفسنا^[22]. الانتحار هو جريمة قتل نوعًا ما إذا كان يوجد أشخاص يحبوننا أو يعتمدون علينا بأي طريقة من الطرق، حتى لو كانوا مواطنين آخرين. ومن المثير للاهتمام أن أرسطو يربط ادعاءه بفكرة أن من يرتكب الانتحار الإجرامي يفعل ذلك في نوبة من الانفعال. وليس من الواضح على الإطلاق إن كان من شأنه أن يدرج في ذلك قتل النفس

المتعمّد مع سبق الإصرار من قِبَل أشخاصٍ اعتقدوا بأنهم عبء أو كانوا يحتضرون بالفعل.

لم يقل أرسطو قط إنه يوافق على الانتحار أو على المساعدة على الموت (القتل الرحيم) في حالة الأشخاص المصابين بمرض عضال؛ فلو كان يعارض ذلك، فقد يرغب بعضنا اليوم في أن يوضح له القضية من ناحية حق الأشخاص أصحاب الأمراض القاتلة في التحكّم الكامل في التفكير في الموت بلا ألم وبكرامة. لكن في حالات أخرى؛ يؤكّد الأطباء المتخصّصون أصحاب الخبرة في حالات الأشخاص ذوي الميل الانتحارية أن النزوة غالبًا ما تكون عابرة ومن ثمّ فهي غير متعمّدة. وهذا ما يجعل الأمر غير متوافق على الإطلاق مع السياسة الأرسطية المقتنعة بفعل الأمر الصحيح من أجل عيش حياة طيِّبة. يفكّر الكثير من الأشخاص في الانتحار عندما يشعرون باكتئاب شديد، خاصّة في أعقاب فقد عزيز أو انهيار علاقة. لكن الأرسطيين يدركون أن كل شيء يتغيّر، وأن المستقبل يحمل في طياته إمكانية السعادة، التي من شأنها أن تقهر اليأس الحالي. لقد بقي أبراهام لنكولن، الذي صارع الاكتئاب طوال حياته، حيًّا وحقق أقصى إمكاناته، رغم العديد من نوبات الرغبة في الانتحار، بالتركيز على حتمية التغيّر. وفي العام 1862، كتب تلك الكلمات الأرسطية العميقة لامرأة شابة صديقة توفّي والدها:

ببالغ الحزن علمت برحيل والدك الطيب والشجاع؛ وخاصة أن هذا الأمر يؤثّر على قلبك الشاب بما يتجاوز ما هو شائع في هذه الحالات. في عالمنا الحزين هذا، يحلّ الأسى على الجميع؛ وللصغار يأتي بالألم الأمر، لأنه يباغتهم من حيث لا يحتسبون. لقد تعلّم كبار السن أن يتوقّعوا ذلك دومًا. أنا أطلع بشغف إلى أن أخفف عنك بعضًا من محتكّ الحالية. فالسلوى الكاملة غير ممكنة، إلا بمرور الوقت. ليس باستطاعتك الآن

أن تدركي أنك سوف تشعرين بتحسّن أبدًا، أليس كذلك؟ ومع ذلك، فليس هذا صحيحًا. من المؤكّد أنك ستعودين سعيدة مرة أخرى. إن معرفة هذا - وهو حتمًا حقيقي - سوف تجعلك أقلّ تعاسة بعض الشيء الآن. ولديّ من الخبرة ما يكفي لأعرف ما أقوله؛ ولا تحتاجين سوى إلى تصديق الأمر لتشعري بتحسّن في الحال. إن ذكرى والدك العزيز ستصير، عوضًا عن الألم، شعورًا حزينًا حلّوا في قلبك، ونوعًا أنقى وأقدس مما عرفت من قبل.

وانطلاقًا من الحقيقة المؤكّدة بأن حالتنا العاطفية سوف تتغيّر، فإذا شَعَرَ شخص أرسطي برغبة في الانتحار، فإنه سوف يقرّر - بدلًا من ذلك - أن يتصرّف بطرق قد تبدو أكثر صعوبة على المدى القصير. إن التغيّر أمر دائم. يستخدم أرسطو التصوير في أعماله كلّها لتوضيح فكرة أن جزءًا من شيء ما، أو حتى مجمل هيئته الكلية، يمكن أن يتغيّر أو يختفي، بينما يمكن لأجزاء أخرى منه أن تبقى. فمثلًا، إذا أُعيد ترتيب نفس الحروف الأبجدية معًا بطريقة مختلفة، يقول إنه يمكن أن تُؤلّف إما مأساة أو ملهاة. في الطبيعة، لا ينفك كل شيء أن يأتي حتمًا إلى الوجود ثم يزول، ويساهم جوهره المؤسس في أن يصير كيانًا آخر. لكن المهم أن أرسطو يدرك الفارق بين التكاثر العضوي وبين إعادة الخلق الدورية الأولية للمياه التي تُحوّل السحب في الهواء إلى أمطار تعود في الوقت المناسب بعد ذلك إلى سحب. وعلى خلاف المطر والسحب، «لا يعود البشر والحيوانات إلى ما كانوا عليه، بحيث يأتي الخلق نفسه إلى الوجود مرة أخرى». فعندما تموت، ينتهي الأمر. لكن حتى هنا ثمة سلوى. فلم يكن حتميًا أبدًا أن تأتي إلى الوجود لمجرد أن والدك قد أتى. فلربما لم تكن لتولد أبدًا. لكن إذا كنت موجودًا، فيوجد يقين جذاب واحد؛ وهو أنه لا بد أن يكون والدك قد أتى إلى الوجود قبلك. فأبوك (مثل أمك؟)

كان على قيد الحياة، كجزء من التكاثر الثابت لأجيال الجنس البشري. كان أبوك على قيد الحياة. وقد عاش، وأسهم في الحياة. عاش تلك الحياة، ولا شيء ولا أحد يستطيع أن يسلبه إياها. وأخيرًا، يمكننا جميعًا أن نستمدّ السلوى من واحدة من أجمل عبارات أرسطو. إنه يقترح أن عملية الكينونة الدائمة التي نراها في الطبيعة، والتكاثر اللانهائي للأجيال في البشر، هي «الحلّ الإلهي لمشكلة خلق وجود أبدي». كان الله سيود أن يكون الكون أبدياً، وقد اقترب قدر الإمكان من خلق كون أبدي «بجعل الكينونة عملية دائمة». يضيف هذا على تاريخ الكون بأكمله بما في ذلك الجنس البشري، وكل واحد منا كفرد - وحدة وترابط مطلقين؛ «الكينونة المستمرة للكينونة هي أقرب منهج يؤدّي إلى الوجود الأبدي».

شكر وتقدير

لم يكن من الممكن أن يرى هذا الكتاب النور إلا بفضل الصبر والدعم المتعاطف الذي أبداه وكيلاي الأدبيان، بيتر شتراوس وميلاني جاكسون، وكذلك الناشرون والمحررون الخبراء: آن جودوف، وستيوارت ويليامز، ويورج هينجسن، ومحرر النسخ ديفيد ميلنر. ولقد تعلمت الكثير على مر السنين من خلال محادثات مع العديد من المفكرين الأرستطيين، والكلاسيكيين، والفلاسفة، ومن بين هؤلاء: توم ستيتون، وجريجوري سيفاكيس، وسارا مونوسون، وكريستوفر رو، ومالكولم سكوفيلد، وهانز جونثر نسلراث، وجيل فرانك، وديفيد بلانك، وفيليب هوركي، وريتشارد كراوت، وسول تور، وكارول أتك، وفرانسيس أورورك، وبول كارتليدج، وجون تاسيولاس. غير أن الكتاب لم يكن ليكتمل أبدًا من دون الدعم المتعاطف والمتواصل من عائلتي؛ زوجي ريتشارد، وابنتي جورجيا وسارة بويندر. وقد رافقتني سارة بجرأة في زياراتي لكل مكان عاش فيه أرسطو والتي صحبني فيها أيضًا ليونائيس بابادوبولوس؛ وقد ساعدنا في تلك الرحلة الطويلة بكرم شديد كل من كريستينا باباجورجيو، وسيميون كونستانتينيديس، وجون كيتمر.

مسرد المصطلحات

<i>anamnesis</i>	تذكر
<i>arete</i> (plural 'aretai')	تميز، فضيلة
<i>autarkeia</i>	اكتفاء ذاتي
<i>authekastos</i>	الصدق مع النفس
<i>dianoia</i>	النشاط الفكري
<i>dynamis</i>	إمكانية أو قدرة
<i>endoxa</i>	معتقدات شائعة، افتراضات عامة
<i>energeia</i>	تحقق، إدراك
<i>enthymeme</i>	دليل عقلي فكري
<i>epieikeia</i>	مساواة، إنصاف
<i>ethos</i>	الشخصية
<i>euboulia</i>	إتقان اتخاذ القرار
<i>eudaimonia</i>	السعادة، الحالة الذهنية المتحققة من خلال ممارسة أخلاقيات الفضيلة
<i>hamartia</i>	خطأ، زلل
<i>hedone</i>	متعة
<i>hexis</i>	صفة أو سمة

<i>hypokrisis</i>	أداء، إلقاء بلاغي
<i>kakia (plural 'kakiai')</i>	أخطاء، رذائل، صفات خبيثة
<i>megalopsychos</i>	امتلاك روح عظيمة، كون المرء نبيلًا كريم الخلق
<i>meson</i>	الوسط بين طرفي نقيض
<i>phainomena</i>	ملاحظات تجريبية
<i>phronesis</i>	حكمة عملية
<i>physis</i>	الطبيعة
<i>polis</i>	الدولة-المدينة
<i>prohairesis</i>	تفضيل، اختيار
<i>praxis</i>	فعل، نشاط
<i>skopos</i>	هدف
<i>sophos</i>	شخص حكيم، متخصص، خبير
<i>symbolia</i>	إسداء النصيحة وتلقيه
<i>telos</i>	هدف، غرض، غاية، نهاية، الموت
<i>theoria</i>	نظرية، التوصل إلى تفسير
<i>to meson</i>	الوسط
<i>zoon politikon</i>	حيوان يعيش في مجتمع مدني؛ إنسان